أبو جامع

اسم الكتاب: أبو جامع
رواية
الكاتب: أحمد إبراهيم إسماعيل
الطبعة الأولى 2019

رقم الإيداع:
الترقيم الدولي

مراجعة لغوية: دعاء السيد
إخراج فني: Monity Designs

تصميم الغلاف: مروة فتحي

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

دار الهالة للنشر والتوزيع
المدير العام : هالة البشبيشي

للتواصل:
01110161117
alhalapublishing@gmail.com
26 ش 261 المعادي الجديدة

جميع الحقوق محفوظة للدار.

أبو جامع

رواية

أحمد إبراهيم إسماعيل

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

إهداء

" أنا وبلاط المُجَمَّع وشارع هدى شعراوي بيننا عامل مشترك؛ الحلاوة. "

إلى هذه الجملة، وإلى فاطمة محمد دسوقي.

نحن اخترعنا الأبجديةَ بلسمًا
فلِمَ انْذَبَحْتَ أمامَ حرفِ العِلَّة؟

أحمد بخيت

أَبُو جَامِع

إن المقابرَ يا غلبان بتتمَوِّل
لا تلتَمِسْ بُكره من سَتْرك في عَمْنَوِّل
أَوْدِعْ حياتَك قبل البنك ما يفَوِّلْ
عزِّيت في موتي قبل الهيصة واللمة؟
وَزَّعْتْ قوتي قبل الجوع ما يتسَمَّى؟
سِمِعت صُوتِي؟
طب أحكي لك من الأول؟

(١)

العفاريت ليسوا من أهل البلد، ليسوا من الذين يفطرون بالجرائد ويتعشُّون بالنشرة، لا يقنعهم ضيق السكن ولا ضنكُ العيش، ليسوا مواطنين. لذلك أحبُّوا الإقامةَ فِيَّ، أنا غنيٌ بالبراحِ، وقلبي مَرعَى بلا سور، أعني، كنتُ كذلك.

هذا يُفسِّر ما قاله الشيخ عبد الوارث، قال أنه جِن ابن أبالسة، يتمشَّى فِيَّ كبيتِ أهله، أو كمدينةٍ لا حكومةَ فيها، وأنني سأموت، حين يَزْهَقُ من اللَّفِ وينهي جولته داخلي ويبلغ حلقومي ويتمدَّد فيه. كيف سيزهقُ من البراح؟ ليس مواطنًا، لم يدرك أحدٌ هذا في هذه الأيام، كنتُ أتحسَّسُ حلقومي أيامها كثيرًا، أنتظرُه أن ينتفخ، وكانوا يفسِّرون هذا بأنَّ الجني قد زادَ في بخِّ جرعةٍ من العفرتة، فيجرون ويقرَءُونَ الفلق.

"جثته صَبَحَتْ زرقاء مثل النيلة" التي قالتها أمي تستعطفهم أن يتوقفوا عن الضرب، لم يسمعها أبي الذي كان سمَّاعًا لكلمِ جدي خاتِم مصحف ربنا، كنتُ ابن ستةِ أعوامٍ حينها وحافظًا لجزء عم، وكنتُ قد عرفتُ كذبهم أول ما عرفتُ حين لم أجد خَتْمًا واحدًا من ختم جدي الأزرق المُدَوَّر باسمِه داخل المصحفِ يُثبتُ له لقبَه، وأن القرآن الكريمَ يخصُّه، كان لا يخصُّه.

جدتي والنسوة كُنَّ يجتمعنَ لإعدادِ الكسكسي لطهورِ موسى، الصغيرِ الذي جاء وختنوه، حينَ لدغَت النحلةُ وركي تورَّد وورمَ مثل لعنة، وحينَ لم تشفِه بعرة جحش الشيخ عبد الموجود، رغم ستِ جرعاتٍ منها، أجمع الكلُ أن داخلي كثير الحواري وضعيفُ الإضاءة، والجن ابن الأبالسة وجدَ داخلي مدينةً تصلح للتخفي والسكن الطويل. "عيِّل قلبُه مَسْكُوكٌ عليه من التحتانيين" "بانَ سبب أكلُه الكثير، لا يأكل لنفسه فقط، يأكل للجماعة كلهم" "سِمُّوه" "شُقُّوا صدره" "ادعوا له".

لقد ضربوني كثيرًا أيامها يا عم خليل، وجعلوا جثتي زرقاء مثل النيلة بحق وحقيقي، حين اعترَضَتْ أمي مرةً ببكاءٍ سكبته عند وركي وخدي وفِيَّ وفي شقاوتي وضمتني منهم؛ مَشُّوها لأهلها، ونقلتها الكارُّو لجدي وأخوالي في عزبة السمنودي، ثم أعادها أبوها لتقبيل قدمِ أبي وجدي خاتِم المصحف بالنصب والخَتْم الوهمي، ولاستكمال سكب دموعها خفيةً عندي، وعند ما تبقى من شقاوتي الملسوعة. وعندما شُفيتُ من اللدغةِ والجن ابن الأبالسة، أعدَّت جدتي الكسكسي مجددًا وطالبني أبي بتقبيل قدمِ جدي الذي شفاني بكرامته وختمه، حينَ قلتُ أن جثتي التي أصبحت زرقاء مثل النيلة لن تعودَ أبدًا كالبفتة البيضاء كما كانت تصفني أمي قبل اللدغة واللعنة؛ عاودوا الضرب، وقال جدي أن العفريت لم يغادر بعد، وأن الحواري داخلي وفَّرَت له مسكنًا جديدًا أوسع.

انظر يا عم خليل.. انظر، لقد مرَّ على هذا خمسون عامًا ولم تعد جثتي بفتة بيضاء كما كانت، مات الجميعُ وهم يتجنبون اجتماعي بأخي المختون لأن جرحه مفتوح، والجني ابن الأبالسة لن يجد صعوبة في دخوله منه، لقب الملبوس لم يكن سيئًا جدًا مثل الضرب بالبُلغة وعصا البهائم، هو فقط أبعدني عن أخي الذي لم أرَه قط بعد هذه الأيام، وأجبرني على الهروب في "بيجو" الموقف الستة راكب والمجيء إلى هنا، وأنا بعد

كل هذا العمرِ مازلتُ أتحسَّسُ حلقومي، لأطمئنَ أنه لم ينتفخ، هذا يعني أنه مازال بالداخل، لقد أحببتُ هذا الجني كثيرًا رغم كل شيء، انظر، انظر للزَرَقَان القديم.. الجني كان الوحيد الذي لم يغادرني مثلهم.

***

معنى الحدوتة التي تمنعُكَ عذوبتُها من أن تُمرجِحَ شاي السهرةِ على شفتيْك يا عم خليل، هناكَ ما هو أمتعُ من روتين مزاجك، هكذا بالضبط، بالك! حتى تلقيمة الشاي تشكُرُكَ أنك رحيمٌ وفعلت، وحقَّقْتَ لها أمنيةَ قبلَ الموتِ في جوفِك.

شُفْتَ الكلامَ الحلو الذي غفلَ الناسُ عن حلاوته لأنه يتكرَّر؟ "يسعد مساؤك" مثلًا، تعرف يا عم خليل أين عفاف في ذلك؟ إنها توقف آذان الناس عن المشيِ بعد الجملة، تقولُ لهم "بُصّوا، هناك سعادةٌ في الكلام، لا تسمحوا للتكرارِ أن يقتله، إنه ليس كلامًا عاديًا ومجاملة، لا تناموا الآن وتضيعوا الفرصة. " .. إنها ليست المساءَ السعيد، المساءُ السعيدُ رجلٌ كان يحاولُ لفتَ انتباهها وفشل، فاسوَدَّ، لماذا سعادته إذن؟ لأن ذكراها فيه طبعًا.

المحبةُ بسيطةٌ يا عم خليل، شُفْتَ قدرتَكَ على قول "يا بنت الكلب" لإبرةِ الإنسولين ثم الطبطبة على جلدك بعدها؟ هذه هي، وعفاف كانت مليحةً مثل سكر تَصالحُ به "نِفْسَك" بعدها، هذه العلاقةُ التي مثلُ اللحظة الأولى بعد انتهاءِ الحدوتة بالنتصار الطرفِ الذي تُشَجِّعه، تتحوَّلُ طفلًا في لسانِه كلامٌ كثيرٌ تترجمه "هيييه" طويله، هذه كانت عفاف يا عم خليل، ادعُ الله ألا أُجَنَّ يا عم خليل، الله يبارك لك.

***

-لأنها لم تُنادي على صلاة، ولم تَبْنِ مدرسة، شُغلها سليم.

لم يسمعوا مني هذه فقط، رغم أنهم سمعوا كل شيء قلته، ورغم أن

هذه كانت إجابةً على سؤالٍ منهم، لماذا لا يمسكون إلهام شكيب حتى الآن وقد بَطَحَتْنا سمعتُها، وسالتَ مِنَّا رفعةُ رؤوسنا وسط الخَلْق من نجعنا حتى المركز، ولم يَمَسَّها تعفيرُ ثوبها حتى هناك، بل ارتدت علينا فضيحة في كل الناحية، لم يردُّوا وانصرفوا لحديثٍ غيره.

آفة الناس هنا وهناك أنهم يحبون آذانهم جدًا، في النجعِ كانوا يقولون للصغار أن أبا العلا الجني سيأكل آذانهم لو لم يحفظوا "الرُبع" ويرتلوه كمولانا، نشأ الصغار –وأنا منهم– وهم يدركون أن الأذن هذه أسترُ للبدنِ من الهدمة المُجابة بالقسط، وأحفظُ للحياةِ من اللقمة المُستَدْرَكةِ بالشحاذة، وأكثر قدسيةً من دَخلة العيد، شيءٌ يعني الحفاظُ عليه حفظَ الرُبع كمولانا، وحفظ الرُبع كمولانا طريق دخول الجنة، بالنهاية هذه الأذن هي من سيدخلنا الجنة.. آمنا بذلك ولم يكن مؤسفًا في حقيقةِ الأمر، بعض الراحة النفسية في سهولة دخولك الجنة لمجرد حفاظك على عضوٍ منك شيء مُغرٍ بشكلٍ كبير، جنة بالساهل. الشيطانُ مهما بلغت نجاسَتُه لن يقدر بأي حال أن يسلبنا شيئًا سهلَ المنال كهذا، تريدُ الجنة؟ حافظ على أُذُنِك، أين العُسر؟

كان هذا فقط ما اجتمع عليه أهل نجعِ الحمَّالين واختلفوا في كل شأنٍ غيره. الطريفُ في الأمرِ يا عم خليل أنني لم أحفظ آيةً واحدةً رغم الخيزرانة التي جعلَت أكتافي مثل أقراص الجِلَّة –الله يحفظ مقامك– ربما كان هذا هو السبب أنني لم أعرف قط كيف أسمع على طريقتهم، كثيرًا ما آمنتُ أنني أصمّ، وكنتُ أتردَّدُ على الزاوية في غفلةِ الشيخ محجوب أدعو الله ألا يحرمني الجنة التي منحها بقية الأهالي مفرودةً بين أذني كل منهم، أو على الأقل أن يحجب عنهم أنني محرومٌ مِن ما مُنحوا، كي لا يستلمونني بالسخريةِ والمعايرة في كل ناحية.

علمتُ لاحقًا أنني بذلتُ خوفي عبثًا، حين أسموني في سكن المدينة

الجامعية السمّيعَ، لأنني أكثر من تسلطَنَ دماغي بخفيفِ هزَّاته كأنه حُقِنَ امرأةً حلوة، وتمزَّجَت عيناه بطول إغماضهما كأنهما تُخبّئانِ حياتهما من الروتين الدائر ضربًا في الخلق، بتغريد النقشبندي والشيخ عبد الحميد زميلنا حين يبلغُ وقارَه ويَشْرِقَ به في سهوٍ ضاحك، ويصبح مُهزءًا، ويغني لعدوية ليلة الخميس بعد البليلة والشاي الكشري، وربما هي السبب أنني هنا الآن أفرغ مثانتي بجوارك وأنا أستمع للنشرة. لكن أتعلم يا عم خليل، أنا لم أهتم كثيرًا بكوني أملك أذنًا أم أن هذه خرزة تركها لي أبو العلا لعنةً وإثباتًا على حسن بلاءِ الشيطانِ فِيّ كما أخبرني مولانا في المرة الأخيرة حين يئِس، يكفيني أنني الآن أفرغ مثانتي بينما أراكَ يحمرُّ وجهك لتفعلها ولا تجرؤ حتى ينتهي الأستاذ من الأخبار، أملًا منكَ في دخول الجنة.. تُرَى أيُّنا سيدخل الجنة يا عم خليل؟

***

لقَد علَّقتني في جدارٍ واقفٍ لوحده يا عم خليل والله، جدارٍ لا يحتمي بثلاثةٍ آخرين يُدَفِّئُونه ويسند عليه ناسٌ تحبُ الحكي والسهر، وينظرون إليه أو يقترحونَ على بعضهم أن يفتحوا فيه شُبَّاكًا.

أقولُ لك شيئًا ولا تقولُ في سِرّكَ وسِخًا وناكرَ عِشرَة؟ حتى لمَّا علَّقتني على الجدار الواقفِ في "الهوّ" فعلَتْ بمساميرَ دعكَها الصدأ، وقَلْوَظَةُ رأسِها خَرِبَة من كَثْرةِ الدَق، مساميرُ تُشبهُ قصَّتنا، استَخْسَرَتْ يا عم خليل، استَخَسَرَتْ في حدوتة غالية، لا أنا مُعَلَّقٌ بثباتٍ يجعلُ شكلي حُلوًا كأنني رَسمة كعبة، ولا أنا واقعٌ أسفلَ الجدارِ أتدفَّأ ببعضِ الولعة المتروكة من مواقف قديمة، تعليقة مُهزَّأة، مثل شُغلَتي هذه، ومثل الطريق التي تمرُّ على كلِ الكوم بترابٍ خفيفٍ، وتمرُّ قُدَّام دكانتي كأنه فمُ الحصَّالة التي تدَّخِرُه به، أقولُ لك؟ مُهَزَّأة مثل أرنبة أنفي التي يعايرونني بها وتدعي النسوانُ ألا توجدَ في المُتَقَدِّم لبناتهن.

نهايته.. اسمح لي يعني لو طوَّلتُ في الكلام، أنا أصلي عمري ما فتحتُ صنبورًا في قلبي، سِباَكَتُه عطلت منذ زمن، خَوَّخ، ما صدَّقتُ أن أُمَشِّي فيه بعض الماءِ معك بالفضفضة، لا تزعَلْ، خصيمُك النبي محمد لو فَعَلت. أصُبُّ لك شايًا؟ أو أقولُ لك، عندي عجوة.

ادعُ لي يا عم خليل، ليس بأن أنزلَ من الجدارِ، ليس لي، ادعُ لأرنبة أنفي أن تتحمَّل المعايرة، وللدُكَّانة الغلبانة.

***

في الرُقَعْ الجائعةِ لا شيء يبدو في مكانه، البكاءُ في الفرحة، الجرائد تحت الأطباق، الصوت في كرة القدم، إلا قلبي، لم يصحبني إلى هنا، ظلَّ شابطًا في كلِ ما تركتُه خلفي، كان الوحيد الذي ظلَّ في مكانِه.

فنّنا سكرُه مضبوط. كنا نؤمن بهذا ونلتقطه من الأرض كلما سقط منا باكتئابٍ أو يأسٍ أو افتراء الحكومةِ علينا، وكنا نُكوِّر أهازيجنا وحواديتنا حباتٍ وندحرجها في الآذان والنفسية، فتُدغدغ بالطرب وتُلطخ جداريات المزاجِ بالألوان والحلاوة، كنا صغارًا نحب أن نقضي الوقت بعيدًا عن رائحة الطب المرميَّة على طول شارع قصر العيني، وبعيدًا عن الكركبة البشرية المُتَرَّبِةِ تحت قبة الجامعة ومكتبات تصوير بين السرايات، الأوقات المسفوكةُ على عربات الفول بزوايا طلعت حرب والعتبة كوصايا الجدات بتطريزاتٍ قديمةٍ لثوبٍ جديد، أو بسماتٍ ظريفةٍ نطَّتْ فجأةً على وجهٍ كدر، ملاعب الجامعة امتدادًا لنطات السور بمركز شباب الحوامدية ومدرسة الحوامدية الثانوية بنين وملعب الحُمرَة بنادي شركة السكر، وتهديدات عم حمامة لمن لم يدفع جنيه التفويت من البوابة، القفشات في أروقة المدينة الجامعية حين نستصعب العودة للحوامدية مرةً ويمنعنا الكسل والبرد وتخيل زحمة موقف حوامدية/سهران بميدان الجيزة أو المنيب، فتستضيفنا وحكاياتنا سبرتاية الشيخ أكرم "بتاع أسيوط".

كنا غلابة، نحب أن نتمرد ونشتم في الخفاء ونتسكع على كوبري قصر النيل في الثانية صباحًا، ونرى قبة الأوبرا أكثر لطفًا ومروءةً من قبة جامعة القاهرة، تلك الأيام التي ارتدينا فيها قصصًا وغناوي من مدرجات آداب وتجارة وعلوم واستاد القاهرة خلف الزمالك، واهترأت كعوبنا فيها خلف الكرة والسخام والشتيمة والقَشْر والأنزحة الفارغة أو الصعلكة التامة في كل مكانٍ فيها، ومن وراء أهالينا. حقائب الظهرِ التي كُنا نشتريها جُملةً من سوق الجمعة بالفِصال، وندفعُ أثمانًا في المفاوضاتِ من جفافِ حلوقنا تساوي –على الأقل– الفلوس المدفوعة، كانت تحوي حذاءً قديمًا لزوم لعب الكرة الطارئ، وكتابًا أو رغيفًا بحلاوة طحينية لزوم ساعات انتظار الأوغاد المتأخرين، وكل ما لا مزيَة فيه إلا الفرحة ولُطف اللحظة.

لماذا لم يبذرونا في أرضٍ نائيةٍ حتى؟ أرضٍ لا تُجبَرُ على أن تحلم فيها، سنرضى، الشغلُ كفيلٌ بجعلك خامةً سهلة التشكيل، لا شيء مهم في البلاد البعيدةِ عن سريرك الأول، تسيرُ فقط لأن الواقَفَ يُدهَس، أنت مرحلةٌ في عمر الشغل، شبابُه وطَيْشُه، وأنت شَرْبةٌ تشربُها الرأسماليةُ لتفيقَ ويطولَ عمرُها، وتدهسَ آخرين. هذه الأرضُ، أرضُنا ذات الحياة الدائخة، المدهونةُ على المساحةِ المنكوبةِ بين عينيْك، لا تراها، لكنك تحسُّها حين تدقُّ مزاجَك بالعَوَز والمسئولية وال"لا إشارات مرورٍ هنا، فقط جريٌ من عقارب الساعة." .. لو يضخوننا في أرضٍ عطشانةٍ لا يمر الماءُ من وسطها؟ لا بأس، سنتأقلمُ على الاستسقاء.

في الأراضي التي تعيشُ فيها كَضَيْفٍ لن تسلطنك أغنية مهما أكلتَ من منابِ الطرب، الأغاني التي تحملُ هويتك ضاعت مع حقيبةِ السفر، في الزحمة، حقيبةُ السفر لم تَضِعْ؟ هذا يؤكد النظرية.

لا فلسفة ولا يحزنون يا عم خليل، لقد مضى على هذه الأيام سنواتٌ كبرنا فيها وفقدنا بالموت، أو الاعتقال، أو السحق النفسي، أو السفر،

أو موت الأهل، أو الانشغال بضيق المعاش، وارتداء النظارات المَنْظَر، والقمصان الكلاسيكية الرخيصة، والعطور المبصوقة من الجمال والذوق، والبحث المسموم عن كفء الوظيفة، أو حتى وظيفةٍ بلا وصفٍ مهندمٍ يبروزها في عين الحسود والحبيبةِ المنتظِرة. خلعنا أردية الوكسة والصعلكة والفراغ و "شُف لك مصلحة تعملها" وارتدينا مثيلاتٍ لها ذات موضةٍ يقبلها أهالينا والدولة، وما زلنا نتساءل يا عم خليل.. متى اخترعوا حُقْنَةَ السرعة؟ وكيف غافلونا وشَكُّوا بها عمرنا على هذا النحو؟ ومن سمح لهم أن نكون فئران التجارب؟

***

–سي عارف.. أنا.. أنا صحيح نور عينيك؟

" المرأةُ كالتراب.. منه نُخلَق وفيه نُدفَن، أصل الحياةِ والوطنُ الرحيمُ للموت "

حينَ كتبتُها متذمرًا –لأن القهوةَ لم تأتِ بالميعاد– صرختُ، فسمعتُ صوت الارتطامِ الثالث لهذا المساء، سعديةُ لم تكن تصلحُ لشيء غيرَ الإشارةِ لقلبي والسؤالِ عن كونها بالداخل كما أخبرتها أمها ليلة الزفاف، أم أنني نسيتُ أن أضعها مع بقية الكراكيبِ فيه.. أنا ما لي وما لأمها؟ لم أفهم يومًا.

– أمي قالَت لي المَرَة من غير رجل كاليمامة من غير فَرع تسند عليه.. قالت أن عارف.. يوه، يأخذني ربنا، قصدي سي عارف ي.. يعني ي.. يحبك. والله لا تزعل مني، أنا فقط مرسال أبلِّغُك كلامها.

لمَّا قالتها وهي جالسةٌ تصبُّ الشاي على الأرضِ، أسفلَ المقعدِ الخيزرانِ الدمياطي الذي أجلسُ عليه تظاهرتُ بالتشاغلِ بالجريدةِ والقلمِ والليلِ عبرَ النافذة.

– ربنا كريم وقادر يعطينا الولد، أنا عارفة أنك تكهرني لأجل الولد،

لكن بعون الله أول ما نتدَّلى على مصر الدَكتور يرزقنا الخلَّف، نزور سِيدنا الحُسين وأقول له يعطيني ولد لأجلك أنت، أنا والله ما لي غرض في الدنيا كلها لأجل نفسي، أنا يعني غاوية حمل ورضاعة ووجع قلب؟ أنا أنتظره وأتمنَّاه لأجل أن ترضى أنت.. أنت ستأخذني معك مصر يا سي عارف؟

" المرأة كتحيةِ الصباح، بإمكانها أن تكونَ قبلةً بجبهةِ حبيب، أو إشارةً باهتةً لمديرِ عمل "

– الصبايا كلهم يحسدونني عليك يا سي عارف، البنت كريمة قالت لي أن صورتك في الجورنال، لكن مثل أمها، لا عارفة المكتوب تحت الصورة ولا حتى فوقها، لكن قالت الجاكتة كان شكلها حلو، أحلى من جاكتة محمود ابن العمدة المتعلم في بلاد برا، في مصر، هي جَديدة؟.. كانوا كاتبين اسمك تحت الصورة يا سي عارف؟ كانوا كاتبين عنك كلامًا كثيرًا؟ طيب كتبوا أني أحبك يا سي عارف؟

لم أجبْ أي سؤالٍ لسعدية طوالَ سبعةِ أعوام، حتى حينَ تعلَّمت إعدادَ القهوةِ والإتيانَ بها بالميعاد، كنتُ كثيرًا ما أوقنُ أني أكثر بني آدم حماقةً لأنني أنصتُ إلى أمي بضرورةِ اختيار – واحدة غلبانة تصونك – .. سعدية لم تزرْ طبيبًا ولا حُسينًا ولا حتى "مصر" .. لمّا آنَ آنُ وضعها لفظت نَفَسَها الأخيرَ، بينما المولودة الضريرةُ تُطلُ برأسِها من فَرجِها .

" المرأةُ كدواءُ السُكَري، نشعرُ منه فقط بوخزاتِ الإنسولين، ثم نفتقده كوطنٍ حين تداهمنا الغيبوبة "

حين قرَأ الصفوة مقالَ الرثاءِ بمقالي الأسبوعي انهالت برقياتُ العزاءِ وتمنياتِ إفراغِ الصبر، للمرةِ الأولى لا يمانعُ رئيسي بمنحي إجازةً ليومين، ولا يتهمني حسين عبد الواحد الشاب الجامعي بالنفاق ولعق كراسي أصحاب القرار، لم أحملْ في الواقعِ همًا كالذي حملتُ في تلك الأيام،

من سيتكفلُ بإعدادِ القهوة والجلوسِ تحتَ المقعدِ لأردَ تساؤلاتِه بالتجاهل ريثما تكبرُ الصغيرة الضريرة، وحين تكبر، هل ستتمكنُ من إعدادِ القهوةِ وهي تُتَجاهَلُ من الأساس؟.. لقد مضى على هذه الأيام عهدٌ سحيقٌ يا عم خليل، أين كنتُ وأين اصبحت؟ وكيف وصلتُ إلى هنا، وأنا.. من أنا يا عم خليل؟

(٢)

قطةٌ تجري من قط يريد ما بفمها وتناسُل، كرة تخبط شباكًا وتقلب طبق فول فوق مصطبة ويقطعها سكينٌ وسب أهالي العيال وخلفتهم، الشمس تجري لمستقرٍ لها في عيون النسوان الصاحية في الظهرية بعد ليلٍ طويلٍ من السهاري ولمّ العيال من الشوارع والبرد ومن أشياء كُثُر ، وعيل صغير يجري على أمه قائلًا "ضحكت على مراد بن كرم المسيحي وخلّيته يردد ورائي في لعبة وقلتُ في الآخر أشهد أن لا إله إلا الله وخلّيته يدخل الإسلام عافية". بندقية صيد مسروقة تشتغل فوق سطوح أحمد عبده، تلتقط الحمام المرمي في مرماها وتنشل نظر الفاضين والقُصَّر الهاربين من المدارس والأشغال، "وقعَت وراء بيت صلاح أبو رية" بعد صيدٍ أصاب، مباحثات على عتبة محسن سلامة حول الأهلي والنجم الساحلي، خناقة مع صلاح أبو رية وتعيير بماضي زوجته حسناء الزبداني بعد مقولته "لم يسقط شيء هنا". طفلٌ يضرب بخشبة قط وقطة يتناسلان، رائحة البصل والقوطة والفلفل الرومي في زيت مقلاة أم لمياء، تعمُّدها إعلاء صوتها بالثناء على طبيخ لمياء في مرور جدعان أمام الشباك المفتوح، عم خليل يحلف بالطلاق على أحمد عبده أن يمشي الآن ونحِلَّها بالأصول والهوادة بعدين، قرآن يشتغل في الزاوية، "من مات؟" تتدحرج

في الألسنة والعيون المجرورة لهناك، نداء على بطاقة ضائعة في الزاوية، غريب يسأل عن الزاوية ومصدر النداء، طيارات ورقية تشنكل بعضها فوق ساحة المقابر وشارع نخل السجر، أخبار جرائد مزيتة ببقايا أرغفة كبدة ومُكوَّرة في حنك قط، وتشمم قطة حذاء جدار، صوت مدلوق من شباك تحته عيال تضحك وتتابع، مياه وسخة تتشعبط في ثياب بيضاء واتهام بالعمى والقصد لزوم الغل، أذان الظهر، خرطوم في ورشة حدادة يسحق جلد عيل، باب جديد أمام ورشة نجارة وخناقة على السعر، صلاة الجنازة، سؤال عن بصلتين زائدتين عن حاجة، قيء عند حائط، غزل بذيء عند حائط، بَوْلَةٌ عند حائط، رقم هاتف مكتوب فوق حائط، دجاجة مسروقة عند حائط، فسبة مركونة ويُفَكُّ تسجيلها عند حائط، صوت ماكينة خياطة ريسة، "الحساب ثلاثون"، فرجة شارع الأجزخانة على لمّ الجمعية من عدلي مختار واتهامه لشعبان المُلَّا أنه يغالط في الحسبة وأنه ابن ضلالية، أذان العصر، "اطلبها من أمها، أبوها ميت وخالها في السجن"، بِلْيْ، "حكومة"، جري، علم الزمالك فوق سطوح، دخول عتبة بمداس مطيَّن واتهام آخر بالعمى والمكايدة، عيال يجرون وراء كلبة حبلى بالطوب، كيس كشري مخطوف من يد، لمسة مخطوفة من كتف وما تيسَّر، كلمة مخطوفة من مرور، قط وقطة مصابان يموءان، رائحة مسقعة، زغاريد طهور والاحتفال بشريط مصارعة معروض للكل، خطاب رئاسي في تلفاز مقهى القصر، خرَّارة، رهان على كأس دخان، أذان المغرب، قرآن في الزاوية، "من مات؟"، صلاة جنازة، زحمة صنايعية عائدين من أشغال، زجاجة مكسورة دخلت في رِجْل، دودٌ وجبن دخلا في بطن، تخديعة، صابون برائحة، مياه استحمام مدلوقة، دومينو، شاي، شيشة، "تطفحه سمًا" لولد خطف الكوب من ولية وحدوتتها، عيالٌ تجري وراء مخبول وتهيص، عيال تولَّع في ذيل قط، عيالٌ تعمل

قَبْرَيْن عارضَتَي مرمى، طوبة ورأس مبطوح وشكك صيدلية و"عيال في بعض". أذان العشاء، درس في الجامع، زحمة المقهى، حشيش رخيص، "دُست على كتاب الدين بتاعه" من مراد لأمه، الأهلي والنجم الساحلي، المشروب بجنيه والفرجة بجنيه يا جدعان، الأصول والهوادة بين أحمد عبده وصلاح أبو رية، قفلة في الكابل المسروق من الكابل العمومي وانقطاع التيار والبث، حكاية عن مشي بدور البطَّال، خناقة حول استرداد جنيه الفُرْجَة، جبن وخيار وقثاء وشاي وسهرة، الجري وراء واحد لم يدفع، قمر يسند على كتف حزن ثقيل، "من يشوف الكوم من فوق غير من يشوفه من تحت" في لقاء مسروق فوق سطح، قط وقطة مصابان يحتميان بنفس الخشبة من السقعة، سكوت بالخارج ولم النسوة للعيال من الشوارع ونزلات البرد، ليمون مغلي وثوم في لبن رائب، عدس وبصل أخضر ودفء، أحلام يُصحَى قبل نهاياتها السعيدة وكوابيس تكمِّل للآخر، صُبح، قط وقطة مصابان يتناسلان.. خشبة.

(٣)

كوم (أبو جامع)، أرض الله الواسعة، أو ما تدحرج منها نحو النسيان والضِيقة، الأرض الواقعة من جيب الكون وتناقلتها نعولُ السنين بالدهسِ والركل إلى أمامٍ وإلى جانب، ثم دفنتها كعوبُ العيشةِ بعد الزهق من اللعب. الكوم الذي ليس له ماسكة، كما يقول عم خليل ويؤكد أن هذا سر بقائه، بقاءَ قبوره وزيارات أهل الصالحين منهم تحت شواهدها وأعمالهم ومَشْي الخلق، مشبوكٌ في بعضِه كأنه صَنَعَهُ عاملٌ مُكتئبٌ ووقته طويل وغير ملتزم بموعدِ تسليم، لا يستعجل في إتمامِ صَنعة، ويحب التفاصيل.

العَفَر الذي يقومُ عليك وعلى الداخلين من شارع نخل السجر، يُعَرِّفُكَ أن زيارتك ليست للمكان الصحيح. اختلاط روائح التخديعة وزيت طعمية صبَّاحي وطفح الطرنش التي يتعجب أهالي شارع الباشا من تأفف الأغراب منها كما لو أنهم تربية مدارس "انترناشنا". دخان قهوة القصر الملكي المرصوص على شِيَش الناس الكَسْر وفي لفَّات أفواههم، يُغَطِّي عري الهزال السارح في أرواحهم وطالع إلى دماغهم. سلاحهم الأبيض لزوم التثبيت والطلوع بمصلحة من داخل غريب رماه القدر بحجورهم وجحورهم لأي سبب، من زيارة قبر، أو البحث عن غرفة تلمُّه، أو قصد مكتب الأستاذ بدوي عبد العال المحامي بالنقض في قضية نفقة

أو حضانة أو نزاع بين أخوين حول مترين هنا أو هناك في ورث أبٍ ميت كان على باب الله أو غير ذلك، مما يخوض فيه الأستاذ المعارك والأتعاب وخرابَ بيت موكله من الباب للسطوح.

وجود صيدلية الدكتور محمد عماد التي يديرها مجدي الدكتور في بداية شارع الأجزخانة، ويقفل يومها على ألف جنيه من الشُكك والتقسيط وآجل مخازن الأدوية وتنوع البيع بين قُرص وشريط وعلبة كاملة للمبسوطين، وضرب الحقن، وخلطات الجلدية المناسبة لأسعار كوافير بدور وصالون صبحي الحلاق للعرسان والعرائس ولياليِ الوقفة والإجازات والمزاج الفرحان، وجودها في الدَخلة الشرقية للكوم والمفضية بعد مسافة مشي مُعتَبَرة لجامع عمرو وأتوبيس ١٢٨ والعالم الحي قد أضاف بعض الاطمئنان لداخلي وخارجي الكوم، الذين باتوا يعرفون ما فيها ويتجنبون الدَخلات الثلاث الأخرى للغرباء الذين يختم الكوم ختمه على ملابسهم البيضاء أو أنوفهم أو جيبوهم أو شيء من كسلٍ لابِدٍ في قلوبهم، ويُطرَدُ بالرعب أوالتأفف حسب الحالة.

في الأول كانت المقابر بمعزل عن السكن والحجرات التي تأوي الغلابة الأوائل، الشوارع الأربعة لنخل السَجَر والباشا والقصر والأجزخانة كانت تفضي لساحة تتجاور فيها المقابر وبعض أشباه البيوت بفاصل بينهما من حجارة صغيرة وورق كارتون ودعوات أن ينجي المولى من أرواح الليل، ومن البرد أو الصهد حسب الفصل ومزاج الجو. لم تكن تتفرع لكل هذه الشوارع والعطوف الصغيرة التي شكلتها عشوائية الغرف والمطارح والبيوت المضافة للكوم عبر سنواته وجنازاته، حتى جُعِل بين كل بيتين شارع ومصطبة ومقبرة وحدوتة، وعلم بأسرار لا تكفي حيطان من صفيح وبقايا كَسْر طوب لحفظها عن جيران الهناء والسوء كيفما اتفق.

قبل سنوات كان حمام الزاوية وعدة حمامات بلدي بين البيوت تكفي

الكبار، بينما لم يكن أحد يلوم الصغار الذين لا يعبؤون بمكان، طالما ظلُّوا بعيدين عن المقابر وإغضاب الأرواح وحيطان الزاوية والأذان لزوم الطهارة والبعد عن لعنة ربنا بالمسخ، ولمَّا العيال كبرت وأصبح هذا فضيحة، بات على الجميع أن يشيل بعضه مع إضافة بعض الحمامات الأخرى، حتى تطور الأمر باستقطاع متر في متر في كل مطرح بمقترح من بيومي الذي صار بيومي الكسحجي لاحقًا، بعدما حفَّز نخوة الأهالي بأنه لا يصح أن تحمل الحريم ملابسها وتستحم في حمامات ينظر لها الشباب عديمو الرباية من فتحات صغيرة يصنعونها خلسة بين الأبواب الصاج والحائط المشروخ لا يلحظها الداخل ويلحظها صانعها فقط.

– أو كل واحد فينا يروح يقف للمَرة على الباب يحرسها ويخرَب أكل عيشنا، العيال صُيَّاع أولاد أبالسة وأهاليهم يستحقون الحرق.

وبيومي بانت عليه النظافة والأبَّهةُ من حفر القاعدات والبلَّاعات، وتوصيل مواسير بمواصفات تشبه أهل الكوم، رخيصة وتُخفي الخشونةُ التي في خارجها الضعفَ الذي في داخلها، تفي بالغرض ثم تفنى فلا يُعلَم السببُ، وتُستبدَل في سُكات، مثل الأهالي تمامًا.

ثم يقوم بكسح كل هذا لاحقًا بشكل دوري. قد باضت له دجاجةُ سعدِه في القفص كما يقول عبُّودة قبل كل إتاوة يُحصِّلها منه، أبدل باب بيته الصفيح بباب خشب، مضيفًا غرفة صغيرة بناها بنقلة كَسْر جاء بها لوري من محاجر طريق الواحات، واستعصى عليه دخول الكوم تحاشيًا لدهس الحياة فيه، فتم نقل حمولته نقلة نقلة فوق أكتاف الأهالي الذين وقفوا معه بعشمِ حسنةِ فلوسٍ يأخذونها منه، بينما اكتفى هو بأن تعهد لهم بردّها لهم في الأفراح ومتشكرين، ما حفَّز الشيخ عبد المولى لتخصيص خطبة الجمعة للحديث عن أكل السحت وأموال الناس بالباطل والاستقطاع بعد أن كان قد عقد النية على تخصيص أول خطبة بعد الميكروفون الجديد

–الذي جعل صوته مثل محمد رفعت كما يؤكد هو – لوجوب طاعة أولي الأمر وكفر من يخرج عنها كفرًا سيُشوَى به هو والذين خلفوه في قعر جهنم.

على كل حال فإن دخول الميكروفون لكوم "أبو جامع" قد رمى فيه ثورةً من انفتاح تمثَّلت في دخول أول ماكينة موتوسيكل صيني للأسطى جمال النقَّاش، ثم تتابع دخول الصين للكوم من ماكينات موتوسيكل أنشأ لها بسيوني محلًا شِركًا مع عبُّودة من الباطن، وتبيع بالتقسيط والكمبيالات ولهفة الناس للغريب عنهم وخراب البيوت بالدَيْنِ وتكويمه، ثم تلفاز في قهوة القصر الملكي للمباريات بالوصلة بجنيه زائد المشروب أُتبِعَ بآخر في صالون صبحي، ثم تمت الثورة بمحل كرم المسيحي للأتاري وشرائط فيديو المصارعة وأفلام فاندام وبروس لي وأحيانًا إعادة شمس الزناتي، حتى يأتي جديد يستحق المشاهدة على الطريق بين شارع نخل السجر ونزلة الصعايدة، قبل أن يضطر في النهاية لنقله بعدما وقفت حاله بفعل شرائط "منطقة عمل" البلاستيكية الصفراء للحكومة التي ترتدي خوزات صفراء وحمراء مع الحفارات ومواد البناء واللوادر التي سدَّت سكة الحياة إليه وللكوم بأقاويل حول مشروع التنمية الذي سيزيل دمِّل (أبو جامع) وأهله من وجه العالم.

لا أحد من ركّاب مترو رمسيس، أو روَّاد مجمع التحرير، أو شَيَّالي محطة مصر، أو سائقي هيئة النقل العام، أو عساكر قسم مصر القديمة، أو ممرضات أم المصريين العام، أو تبَّاعي موقف العاشر، أو صُولات تجنيد الحلمية، أو قهوجية مقهى العَلَم المصري، أو بائعي المناديل في إشارة طلعت حرب، أو موظفي الدخول والخروج في قصر العيني الجديد، أو بائعي أكشاك شارع الفلكي، يعرف بالضبط أين يقع كوم "أبو جامع" من العالم، لا أحد منهم يعلم أنه معهم فيه من الأساس.

كوم (أبو جامع) الذي مثل العالم قبل الخلق وقبل القيامة كان حدثًا أكثر منه مكانًا، وهذا الحدث الذي قرر البيه وعبودة وعليوة البنا والشيخ عبد المولى وسنية السباعي والأستاذ سيد وخالد العسقلاني وآخرين مع الغريب القادم من الخارج بالقدرة والقصة والكرامة التدخلَ في طبيعة مصيره، لم يعلم قط إن كان يستحق كل ما حدث أم أن تركه يموت في هدوئه ومرضه وعدم عبء الدنيا به كان أكثر نبلًا له من هذا كله.. لا يعرف أحد، ولم يعرف أحد إلا الطبيبة التي لن تروي شيئًا، وتسمح بدخول الكشف التالي عليها حين تذكر، في هدوءٍ تام.

(٤)

أي محاولة أن تكون بخير هي كونٌ بخير في حد ذاتها. كان هذا أكثر ما يؤمن به الغريبُ القادم، ذو الحقيبة السوداء والنظرات الاستكشافية للمطارح والعَفَر والضوضاء وتكوُّم اللحم فوق المصاطب والمقابر والطرقات، النميمة وتهامس البيوت الطافح للخارج دون إرادة منه، وبصقات وبولات وطوب العيال الصغيرة التي تستقبل كل غريب يبدو غلبانًا، نظرات نسوان المصاطب المتوقفات عن أحاديثهن حول الغائبات منهن مؤقتًا يطالعنه بنظراتٍ من فوقِه لتحتِه، بين توجسٍ من كونه حكومة فينبهن الأزواج الذين ارتكبوا شيئًا أو لم يفعلوا ووجب الحرص لا التخوين، أو إعجاب بالطويل الوسيم الذي لا كرش له ولا نظرة مسطولة أو شقيانة مثل من عرفن ومشين وتزوجن وطُلِقن ورُمِّلن وتُرِكن إلى السجن، أو تأففٍ لأن غريبًا جاء، وربما رأى منهن ما تعودن ألا يراه غير رجال الكوم، وهم عائلة واحدة زيتها في دقيقها مثل الإخوة والأخوات، أو فرحة مطبوخة وفائحةٌ رائحتُها في قلوبهم بتمني زوجٍ لبناتهن اللائي فاتهن القطار وينتظرن طيارة غريبة لا تعرف من أصلهن وفصلهن وماضي أهاليهن والمصروف على خلطات التجميل الرخيصة لأجلهن شيئًا.

طالعُه الجيد –أو من أرسلَه ويحميه– قاده من شارع الأجزخانة فلم

يُلاقِ السلاح الأبيض ولا عروض الكِيف ولا الطبيخ والناموس والغبرة، ورغم أن أهل الكوم يتحسسون من الأغراب، وخاصة السِحْنات النظيفة منهم، فهم ما عادوا يبادرون بعدوان أو حركات تنم عن قلة أصل، بعدما أوقعهم حظهم البائس في طلبة جامعة جاءوا لعمل دراسةٍ خاصةٍ بهم لا يذكرونها، ويذكرون فقط حين تعرض بعض الأهالي بالتحرش اللفظي لفتاة من الغرباء، واتضح أنها بنت رجل واصل دهسَ منهم من دَهَس، وراح في رجليها خمسة شبان جُرجِروا للمحاكم وعُلَق الداخلية وخمس سنين سجن.

على كل حال فالغريب لم يُطِل التحديق وتبادُلَه معهم ومعهن، استنبط أنه ربما يعنُّ على مزاجهم فضول يدفعهم لحماقة تفسد مبكرًا ما جاء لأجله، عَبَرَ شارع الأجزخانة ونسوانه وفضلات بطِّهِ ودجاجِهِ أمام العتبات ووسطه، وبِلْي عياله وملابسه الداخلية فوق المناشر والسطوح، منجرفًا مع حواديت المصاطب، وروائح الطبيخ المتشاجرةِ بالنتانةِ عبرَ الشبابيك المتقابلة، والعطوف العشوائية الصغيرة إلى حيث الساحة التي يختلط فيها سب دين الأحياء ودعوات للأموات بالرحمة، طَوَّحَ خطواته مع رائحة المعسِّل وتكوّم البول والعرق والزعيق على الحيطان والأجساد والآذان، ولمعة العجوة على أرواح القوم في الأسفل. لما سأل عن حجرة للإيجار تصلح لشابٍ وحيد حاولت جماعة عيال صابرة أن تجره لحمُّودة وغرفه التي بناها في الناحية الغربية –بوضع اليد ومرضاة البهوات– مقابل عرقهم في جلبه، قبل أن يقطع عبُّودة الطريق بنظرةٍ ذات معنى وترحيب بالضيف وترشيح مكان يصلح لواحد ابن ناس محترمين مثله وقادم من منطقة بها عواميد نور وصناديق قمامة البلدية في الشوارع وليس زريبة كالتي كاد يُجَرُّ إليها، لكن عم خليل تدخَّلَ قبل انسكاب العَرَكَة وتخليص القديم والجديد بين الطرفين فيه وفي سكنه. أسكنه الأخيرُ في حجرة فارغة

كان خالد موسى العجلاتي قد بناها قديمًا لمذاكرة ابنه الذي قرَّر أن يغادر بعدما أفسده العلام وجعله يشوف نفسه فوق أهله وناسه، ولمَّا سأله عن أصله وفصله وأجابه الغريب بإجابات نمطية لم يصعب عليه إيجادها وتسكيت العجوز بها وأنه هنا بسبب مصائب العيشة ودوار الزمن، رقَّ له واعتبره مثل الأستاذ سيد الذي جاء قديمًا بسمعه وأذنه التي لم تحفظ كمولانا والظروف نفسها ليبول إلى جواره أثناء النشرة، ثم استقام منزل الغريب في حجرة خالد موسى بمقدَّم وأثاث هشٍّ وفَّره له عم خليل بما استطاع إليه سبيلًا.

(٥)

الجرارات والحفارات ومواد البناء جاءت مع الناس الذين تحت خوذات الإدارة الهندسية للمحافظة، والناس الذين تحت رُتَب الميري، وسقف بوكس الحماية للمعدَّات والأنفار الشغَّالين بالعقود المؤقتة وقروش تكفي بعض الحاجة. حمايةٌ من المتفرجين والفضول وكثرة السؤال عن لماذا يحفرون وماذا سيبنون وماذا ينتظرون من أرضٍ كتلك و"شغِّلوني معكم في أي حاجة".

تخمينات الأهالي التي تحوَّلت لتأكيدات لاحقًا بشكلٍ ما أن الحكومة تبحث عن آثار، وأن الإخبارية جاءت لهم من محسن شَكَل الذي أخذ وعدًا بمكافأة تُعَيّشُه ملكًا وتُبطِّله الحرام أو تضاعفه. القول بأن المبحوث عنه كان بترولًا جعل قائليه ومُروِّجيه يخططون لمرحلة ما بعد اللعب بالفلوس لعبًا كلعب عبد الغفار أتَّة، الذي عمل في الكويت عشر سنين وعاد ليأخذ أباه وأمه في شقة ملك في المنيب، بها حنفية حوض، وقاعدة حمام أفرنجي، ولمبات من الطويلة البيضاء التي لا تجبركَ أن توسِّعَ عينيك في بحثك عن غرض. الفئة القائلة بأنهم تصاحبوا على العمال وجرجروهم في الكلام فأُخبِروا أن الحكومة ومجموعة من كبار البلد سيقيمون مشروعًا قوميًا على نطاق كبير وصارفين عليه، قرية سياحية

وأجانب سيأتون ويغرقون الدنيا بالدولار واليورو وكاميرا التليفزيون، والكل يستنفع بمغانم من الفلوس والشهرة واللحم الأوروبي حسبما تيسَّر للتناول.

صبري أنابيب المُلقَّب بالكابتن حلف بالطلاق من أنثى غير موجودة أنهم سينشئون استادًا للجيش، وأن الفرصة قد حانت أخيرًا ليقدم في اختبارات نادي الطلائع. مدرسة لغات للأطفال الذين يأتي بهم آباؤهم أو سائقو آبائهم بالسيارات الأغلى من الكوم بمن فيه وما فيه، ولن يمانعوا لو زوَّدنا عليهم في الركنة في الشوارع المحيطة فضلًا عن البقشيش.. كان رأي عبُّودة الذي عدل عنه لتفسير آخر بكونها جامعة خاصة بها عيال أولاد ناس أكابر شغَّالين في أبو ظبي، ومنحلِّين لن يسترخصوا الكِيف، وسيدفعون ثلاثة أضعاف السعر دون فِصال كالذي يلقاه من الزبائن الرخيصة في المناطق المجاورة.. مجمع مطاعم أجنبية من التي في التلفيزيون وإعلانات المحور وشوارع المَنيْل، فندق أكبر من فندق سياج المريوطية ولا يقفل عليه كوبري، مطار دولي يخف الضغط عن مطار القاهرة الذي أهلكه الأجانب والذين معهم فلوس. قاعدة عسكرية سرية لا يعرف عنها الجن الأزرق ولا الإرهابيون ولا الأمريكان، خط مترو يروح لأكتوبر أو أي منطقة يعيش فيها أساتذة أولاد ناس ليسهل عليهم، تفريعة من الدائري أو نفق يلحم مع نفق الملك الصالح ويعلِّي سعر متر الأرض لحدٍ يعيش فيه الجميع عيشة حلوة فيها حنفيات وحمَّامات مستقلة وبلاط وتعريشات خرسانة وإمكانية صعبة، لكنها لا تصعب على ربنا بأن يكفي سُمْك الجدران لحفظ الأسرار وخاصة الليلية منها، سينما ومسرح يهيِّج الدنيا هنا ويتيح للجميع الاستنفاع من بيع أي شيء للناس التي جاءت خارجة لدفع المال والانبساط، مستشفى خاص بها قسم للعلاج المجاني للغلابة وحضَّانات ووحدة غسيل كلى وصيدلية فيها كل شيء ستخرب بيت مجدي الدكتور وتوقف حاله.

كل تخمينات وحكايات (أبو جامع) عن الحفارات والجرارات كانت أحلامًا شخصية، يحاول صاحب كل منها أن يفرض حلمه الخاص على الجميع ليحلموا به معه، لأنه لن يحققها وحده، هم لا يعرفون شيئًا بخصوص شيءٍ يُسمى حلمًا من الأساس، ولا يعرفون قواعد التعامل معه بعد. كلهم رأى أن هذه ربما تكون بداية جيدة للتعامل معه بطريقةٍ لا تقع فوق رأسٍ واحدٍ فتسحقه وتقع إن وقعت على رؤوس عدة فيعيش الجميع بعاهة خيرًا من أن يموت وحده. لكن فرقع الأستاذ سيد كل فقاعات توقعاتهم بالفلوس والأجانب والعيشة المرتاحة والحمَّامات التي بها ماء ينزل لوحده لا يُغرَف من دلوٍ وطست، وقال أن هذا بلوى وأي حركة غير محسوبة من الذين يحفرون بالخارج ربما تسبب انهيار الكوم الهش، وتدفنهم تحته. ولو لم يحدث؛ فإن الحكومة ستفعله عامدة ليخلو لها الجو في أرض المنطقة التي تُقدَّر بالذهب، الغريب أن الحفارات والجرارات وقفت بعدها يومًا لا يدري أحدٌ لماذا، تحاشى الجميع أستاذ سيد أيامًا لأنه أول من هدَّد بوقوع الحلم وسحق الرؤوس تحته والفأل النحس بوقوف العمل بعد قوله من ناحية، ولأن الحيطان لها آذان من ناحية أخرى أهم، ثم سرعان ما عاد كل منهم لحلمه الذي يبصقه في آذان الجميع كخبر مؤكد سمعه من "واحد هناك قال له" وسرعان ما عادت الحفارات والجرارات وزعيق المهندسين والعمَّال تجبرهم على إعلاء أصواتهم في الحديث والنداء كي يستطيعوا سما ع بعضهم البعض.

(٦)

قلبي من النوع الأصلي، القديم، القلب الراديو، الذي يحب أن يخفق دون استعجال، ولو كان خفقًا مُشوَّشًا تنقطع إشارته ويمرض إرساله ساعات ويسندون فيشته في الحائط بلوحٍ خشبي ليس له دور في المُلة، وأنا أكبر من السنوات، أقسى منها وأقوى، السنوات تُفتَقَد من عاشقٍ هُجِر، أو مسافرٍ ليس له حق العودة، أو دارس تاريخٍ حتى، السنوات تحيا بالافتقاد وتنضج بما وراءَه، وأنا حيٌّ بلا هذا كله، أنا حيٌّ بلا سنوات ولا عمر ولا كهولته، أنا ذهبتُ إلى الحب، وبحثتُ عن الثورة، وسعيتُ خلف السفر، أنا بدأتُ كل شيء وصنعتُ ذكرياتي ولم أنتظرها، صُنَّاع الذكرياتِ مثل المدن التي جِئتُ منها وتخفي وراءها مدنًا ليست في كتب تلاميذ الصف المخدوعين، ومثلُ خيطِ الجراحة الذي في جانبي الأيمن ويخفي وراءه كلى عاقر لا تتقن دفع البول إلا في الليالي الباردة أو في الركعة الأخيرة. وإني وحيد، ووحدتي مثل امرأة في الرابعة والثلاثين، مكتملةٌ وتُحفِّز، ويُخشَى منها.

الأمرُّ منه.. كان هذا ما رماني على المر وعلى هنا، لم أكن راغبًا في أن أورطهم بشيء، لكن الحكاية القادمة يلزمها مقابر جاهزة، وأرض مغمضة، وبشر منسيون لا يشعرون بشيء يعضُ قلوبهم حين يجيء

الموت، ولا حين يغادر بعدما يأخذ إتاوته من روح أحدهم وحسرة ذويه، بشرٌ مُتاحون، هؤلاء فقط من يستحقون السير إليهم بالمهمة والرسالة و "خذوا بالكم" ، أنا بريء من هذا كله، أنا لستُ الموت ذاته على الأقل، هذا مهم.

أنا أخلق الكلمات، أنا لستُ شاعرًا ولا ناثرًا يُنهَلُ منه وأعني بذلك استعارةً عن فصاحة، أنا أخلق الكلمات فعلًا، أخلقها بالمعنى الحرفي للخلق، أجعلها مخلوقاتٍ تسري وتسير ، لا أعلم إن كان هذا معجزةً أم من اللعنات، ولا أعلم إن كنتُ الوحيد في هذا العالم الذي يفعل أم أنني أنتمي لشيء ما، أعلم فقط أني رسولٌ لهؤلاء بالنجدة والإفاقة.

وأنا أُولد في كل عام، هذا أيضًا ليس من الكناية في شيء، في اليوم الأول من كل عام أستيقظ بذاكرةٍ جديدةٍ لا تحمل إلا حقيقةَ خلقي للكلمات، حتى اسمي لا أذكره، كل المرات التي حاولتُ أن أتذكر فيها شيئًا أُصابُ بدوارٍ قاتلٍ وصداع فتَّاك، تمر فقط بعض الصور عن لوحةٍ على ناصيةِ شارعٍ، أو غطاءَ رأسٍ حديدي، أو شجار ، أو وعاء فاكهة، أو دمٍ فوق تراب، كل التفاصيل التي من شأنها أن تربكك فقط دون أن تضيف جديدًا، الكثير من المدن، والكثير من اللهجات، والكثير من أصحاب رداءات الكراسي وأصحاب أكسية العامة، والكثير من الموت، الكل في النهاية لاقى ما كسبتهُ يداه وخضع للمصير الذي كُلِّفتُ بتغييره وتمكَّن في النهاية، لا أنكرُ أن هذا مرعبٌ جدًا.. بالتأكيد هناك سببٌ ما لنسيان كل شيء عدا الساعة الأخيرة من كل عام، الساعة الأخيرة من نهايات القصص التي فيها الدفن فقط، دفنُ ذاكرتي.

أنا إبراهيم، هذا اسمي هذه المرة، أشعر أن هذه الأرض بحاجةٍ شديدةٍ إلى إبراهيم يهدمُ صنمًا ويثبت خواء النار من سطوتها المزعومة بشكل ما، هكذا أوحيَ إليَّ.. لا أعلم كيف ولا لماذا، أنا لا أعلم أصلًا شيئًا عن

هذا كله، لا الماضي الذي عشته ويتوه عن يدِ ذاكرتي في برد اليوم الأول من كل عام، ولا الحاضر الذي وُضِعت به وبروائحه النتنة تلك في هذه البقعة الكئيبة من العالم، ولا إلامَ سينتهي هذا كله.. أنا إبراهيم فقط، هذا كل ما أعلمه، وأظنه كافيًا جدًا لأبدأ.

إبراهيم

الخلق الأول

حليفةُ النساء وما ارتفع به الرجال وهلكوا، سم العروش، وحساء المُشرَّدين، والرقم الوحيد الباهت بساعاتِ العامة بفعلِ الحكومة.

لمَّا حبوا يدوقوا قُوتنـــــا
شربوا م البارد سكوتنـــا
واللي حلَّى بحِلو موتنـــــا
مـــات بتخمة من الديدان
اعطوا للقضبان بـــــراءة
رُدُّواغـــيبة المزلقـــــان

لم يعد هناك وقتٌ يسمح بالتأخير أكثر، إنهم بشرٌ مساكين جدًا، بؤساء للحد الذي لا تقع موسيقى الليل على إيقاظ ذكرى نائمةٍ فيهم، قومٌ لا يشتاقون بقدرِ ما يفقدون، هؤلاء القوم وصل بؤسهم أنهم لا يحلمون بأكثر من غدٍ واحد، يحبون الخبز أكثر من العجين والموقد، والرئيس أكثر من الدولة، ولا ينتظرون بشغف خطاباتٍ من أحدٍ بعيدٍ تحوي ثرثرةً عن الحال والجديد وأخبار الصغار الرُضَّع الذين التحقوا بالمدارس، خطاباتٍ عن كل الأشياء غير المهمة ويتلهَّفُ لسماعِها المزاج، كل ما من شأنه أن يبقيك إنسانًا يبتسم وحيدًا مع غروبٍ وقهوةٍ في شرفة بعد سنوات لا يأتيهم ولا يعرف الطريق إلى هنا أصلًا، هؤلاء القوم في حالة مزرية للغاية.

الرغبة، هذا أكثر ما يفتقدونه، الرغبة في شيءٍ أو أشياء تجعلهم ناظرين لمكانٍ آخر غير موضع القدم، هذا أهم ما قد يحتاجه بشري في مثل حالهم يُطبَخُ الموت حوله على مهلٍ وينتظر أن يأكل فيؤكَل، الفاقد حين يرغب يبذل لاستعادة مفقودِه أو أن يليق به، وهم فاقدو غدِهم. والخائف حين يرغب يبذل لتعطيل خوفه عن السير أو أن يصل هو قبلَه على الأقل، وهم خائفون من غدِهم.

لا أذكر إن كنت قد استخدمتها قبلًا مع أقوامٍ غيرهم وإن كانت قد آتت أُكُلَها ضِعفَيْن أم لعنة، لكنني على يقين أن الرغبة ستحدث شيئًا في هؤلاء إذا سرت الأمور بمنطقها الطبيعي. كل راغبٍ قادرٌ على نَيْل شيءٍ ما ولو كان أمنية بلا تحقيق، حتى هذا سيكون كافيًا لهؤلاء بشكلٍ مؤقت،

اللعنة.. لا أستطيع تخيُّل أنني رأيت بشرًا كل مهمتي معهم أن أجعلهم يحلمون حتى لو لم يحققوا ما يحلمون به، هذا مرعب.

"ابنة الحلم، ربة الحصول وخليلة الاستعداد وما أوقِدَ تحت الإنجاز، ما فقده ميتُ الفراش، وما رافق ميتَ الحربِ رحلتَه فكُتِبَ في قصة، أذان الصائم عن الضَيْم، وآذان القائم في أناشيد احتفالات الظفر، ما أحزَنَ الحزن، وما أسكتَ السكوت، وما أجبرَ الإجبار، وما جعلَ للصبرِ سيفًا ودرعًا، القوَّالةُ التي أجبرَت قضاة المفروضِ على سماعِ آخر المرافعة وتأجيل الجلسة، والعمَّالةُ التي أجبرَت أكشاكَ العَلَمِ على إزالةِ الحواجز قبل موتِ المارة، ما زرعَه الإيمان فأثمر، وما طهاه الصبرُ فأطعَم، وما تلقتُه كل أيادي أبناء الأرصفةِ ورفاق الأزقة ففركتُه للتدفئة وأدفأ، حليفةُ النساء وما ارتفع به الرجال وهلكوا، سم العروش وحساء المُشرَّدين والرقم الوحيد الباهت بساعاتِ العامة بفعلِ الحكومة، أناشدُكِ بسُلطانِ نَيْلِك، وزهوِ إغوائك، وجلال كل تلك القرون التي لم تضع خطَ تجعيدٍ واحدٍ في جبهتك، أن تصلي هؤلاء القومَ بالحياة، وأن تردِّيهم من المسوخِ للبشر، ومن النُسخةِ للنُسَخ، وأن تُنبتيهم فيهم، وأن تُنبتيهم فيهم.. وأن تُنبتيهم فيهم"

قد حان موعد خَلقي الأول.

***

ثلاثُ دقاتٍ أعرفها، من الثوابت المعدودة الباقيةِ بذاكرتي الغريبة، دقة الوصول، ودقةُ القبول، ودقةُ الحصول، ليس سهلًا أن تُسمَعَ دقاتٌ على بابٍ بالكومِ في الثانيةِ صباحًا، لكن الحجرة التي استأجرتُها من خالد موسى وساعدني عم خليل في إقناعه على تخفيف الأجر كانت بعيدة نوعًا ما عن العَمار، إنهم يفعلون كلَ شيءٍ تمامًا كالجثث، أتمنى أن تشمل جُثثيتُهم نومَهم أيضًا، هذه الليلة فقط على الأقل، فتحتُ

الباب الصاج بعد الثالثة، العجوز المريحةُ ذات العكاز والحجابِ الخيش والجلباب الصوفي الأبيض بلا تطريز التي ظهرت أشعرتني أن الأمر كلَّه في طريقِه للفشل، ماذا يمكن أن تريده عجوزٌ في هذا الوقت من الليلِ من غريبٍ لم يأتِ بينهم إلا من شهرٍ واحد، ومتى تأتي؟ قبل وصول ضيفتي الأولى بدقائق! قبل أن أسألها حاجَتَها أزاحتني بعصاها وطَوَت خطواتٍ قصيرةٍ للمقعد الأقرب قائلةً:

– تعوَّد أن تستدعي ضيوفَك في وقتٍ يليق، ليس معنى أنك استدعيتَ الرغبةَ أنها ستجيء في الثانية بعد منتصف ليلٍ مطير، لن تفلحَ مادمتَ قليلَ الذوق.. حتى ولو كنت صاحب معجزة كالتي تملك.

– م.. من أنتِ؟

– من أنا؟

قالتها تنظر إليَّ استنكارًا وفي عينيها البُنيَّيْن –المُخلِّفَتَين وراءهما فتنةً لا تظهر إلا لقدير– تساؤلٌ عنيفٌ عن حماقتي ووقاحتي استطعتُ استنباطه فيهما قبل أن تستند على عكازها مجددًا وهي تقول:

– ليس لديَّ وقتٌ أضيعُه في مهماتٍ للمتخلفين، صحيحٌ أنه ليس لديَّ ما أقوم به أكثر من توزيع بضاعاتي المعتادة على أبناء آدم، لكن المكوث هنا يستثيرني للتقيؤ.

قالتها تستند على عكازها فأجلستُها توسلًا أتساءل:

– هل.. هل أنتِ الـ..

– الرغبة.

نظرتُ لطاولتي الصغيرة حيث ورقاتِ كتابةِ الاستدعاء قبل قليل فقالت:

– اطمئن.. لم تخطئ بشيء، أنا هي.

– هل مطلوبٌ مني حقًا تصديقُ أن ربةَ الغوايةِ وقتَّالةَ السلاطين ومقيمةَ الحروبِ ومدوِّلةِ الدول وما استقام في نفوسِ المهمشين فأحياهم؛

هي عجوزٌ وليست أنثى مُفعمة! وترتدي الخيش والصوف ولا تتلألأ فتحرق نصف بيوتِ هؤلاء المنسيين، وتستندُ لعكاز ليس من الذهب أو من قلوبِ ضحاياها على الأقل، ثمة خطأ ما وعليَّ تداركه، ليس لديَّ وقتٌ أُضيعه في محاولات.

– أوافقك الرأي، تدبَّر أمرَك وأَعِدْ حساباتك مجددًا إذن.

قامت مجددًا فاستفزني عدم عبئها بشيء، الراغب الذي لا يعبأ نسميه مُختلًا، فكيف تكون الرغبة نفسها؟ وكيف يكون شغفُها نحو الأشياء؟

– مساكين أبناء آدم.

قالتها استهزاءً بعد نظرةٍ لي ثم قالت وهي تفتح الباب:

– حين تُجسِّدُ معنى إنسانيًا آخر لا تحدث نفسك في حضرته لأنه يسمع كل شيء.

عجزتُ فجأة عن كل قدرة، الردُ ومواصلةُ التفكير والإنقطاع عنه وإيقافها قبل الذهاب، قلتُ بعد استجماعٍ مؤقت لبقايا ثبات:

– كيف؟

قالت دون أن تلتفتَ إليّ:

–لأن فكرَك وتخيلك وقناعاتك وثوابتك جزءٌ من الكون، والحقيقةُ هي الكون كله، لن يخضعَ الجزء للكل بأي حال، ولن تُشكَّلَ الحقيقة الواسعةُ في قالبك الضيق، هذا ما أنا عليه، هذه حقيقتي، وعلى قناعاتِك بشأني أن تخضع لهذا.. لحقيقتي.

– الرغبة زاهدة؟ هل هذا الهراء هو الحقيقة؟.. هذه الجملة لو قيلتْ في صفٍ مدرسيٍ سيُعدَمُ الطالب لما بها من حُمق.

– هذا لأن المدرس طاغية، فضلًا عن أنني لو علمتُ بهذا سأُحوِّل حياة المدرس لجحيمٍ انتقامًا للطالب المُحق.

– أي خبل؟ أي مُحِق؟

– لكلِ شيءٍ بادٍ حقيقةٌ غيرُ باديةٍ يا إبراهيم، البشر ضِعافٌ للحد الذي يعيشون أسلافًا خلفَ أسلافٍ خلفَ أسلافٍ دون أن يعوا حقيقةَ شيءٍ واحدٍ بلا كينونته المستورة، ولو علموا لاقتتلوا بشأنه حتى يفني بعضهم بعضًا، البشر كائناتٌ ميئوس منها.

– وهل هذا يفسِّر كونك على هذه الحال؟

– هذا لأنني مخلوقٌ سَوِيّ، معطاء، مخلوق يؤثر على نفسِه ولو كان به خصاصة، هكذا خلقني الله، وما هكذا تداولوني بينهم وتداولتُهم بينهم حِسِيًا عبر قرونٍ حتى جئتَ أنت، فجسَّدتَني.

صمتت حينًا وعادت لمقعدها تتلكأ قبل أن تستطرد:

– لقد خلقني الله مع البرقِ الأول في الكون، اللحظة الأولى التي "أراد" فيها الكون، اللحظة التي رغب في ضوءٍ مختلفٍ عن صباحات الشموس واكتمالات الأقمار، ضوءٌ تصحبه جلالة ويرغب في فرضِ نفسه كشيءٍ يُنتَظَر ولا يُنالُ بروتينية منتَظَرَة، حين خُلقتُ في هذه اللحظةِ قبل ملايين سنين كنتُ رحمَ التمني ومركزَ السعي والابنةُ الشرعيةُ للهدف، مني تفرَّعَ الجمالُ والحب والقوة والصراع والشهوة والصبر واليقين والانتظار واستأذن الموتُ الربَّ أن يتخذني عدوًا أول ففعل، وحين قررتُ أن أؤثرَ على جمالي وحبي وقوتي ويقيني وشهوتي وصراعي؛ نشرتُ بريقي كلَّه في ولدِ آدم عبر تناسلاتهم، وضعوني في قلوبهم موضعَ الخيرِ والشر فيهم، منهم من قُدتُه لهدفه ومنهم من قُدتُه لحتفه، لقد ضحيتُ لأجلِ ولدِ آدم بكل ما لي من بريقٍ دفعتُه ووضعوه في سعيهم وطمعهم وتحدياتِهم وخيالاتِهم وأشعارهم وحكاياهم للصغار السُذَّج، ثم ها أنا الآن كما تراني وجسَّدتَني.. سيدةُ السادةِ، الرغبة الزاهدة، العجوز صاحبة الصوف والخيش.

صُعِقتُ مجددًا فاستطردت:

– أرى أن نبدأ العملَ، لستُ راغبةً في سردِ المزيد، ولا طاقةَ عندي

لأحكي الحواديت لصغيرٍ أمامه عامٌ واحدٌ لإنجاز مهمةٍ ما.

شعرتُ أنها مصممة على تكرار "لا أرغب" لسببٍ ما، ربما سببٌ تأكيدي، لا بأس، هي محقةٌ بشأن ضرورةِ البدء على كل حال.

– كيف ستنشرين نفسَكِ فيهم؟

– الرغبةُ لا تُنتَظَر طويلًا، تُقذَفُ قذفًا وتبدأ العمل.

نظرتُ عبر النافذةِ ذات الضلفة الخشبية المكسورة تعرض حملةَ المطر العنيفة أقول:

– الآن؟

– رغم أني أكره ذلك.

– يصلني شعورك، لا بد من بعض التضحيات على كل حال، هؤلاء الناس يحتاجون ذلك.

– ليست تضحية كبيرةً عمومًا، نسيتَ أنني توأم البرق؟

– جيد، هذه عودة للمنطق إذن، الرغبة ترغب.

– لن ينقطع غباء الآدميين.

– يروقني أنكِ لجأتِ للسباب، هذا يعني انتصاري بشكلٍ ما، عدنا لنقطة البداية.. الرغبة راغبة.

اقتربت مني حتى كدنا أن نصبح كيانًا واحدًا تقول:

– الرغبة خاضعةٌ للمريد، وفي هؤلاء إرادةُ لشيءٍ ما لم أستكشفه بعد، أنا مأمورة بحلمِ البشر ولا أرفضه في أي ميقات، رغم علمي أنني أخرج بعد كل مهمةٍ فاقدةً جزءًا إضافيًا مما بقي من شغفي وأقتربُ من الزهد الذي أكرهه أكثر، لكن.. هكذا تسير الأمور.

لم تنتظر ردي، أدارت ظهرَها إليّ واستعدت للخروج قائلةً:

– في الصباح سيبدأ كل شيء، سأذوب الآن بطين وسط الكوم الذي زاده المطر، بعد ساعاتٍ سيطأونني حين تبدأ حركتهم، سيطأون رغبتهم،

هذه هي سُنَّةُ المُحَقِّق.. وحين أمتزج بجلدهم ستبدأ المهمة.

فتحت الباب ثم عادت تقول كأنها تذكرت شيئًا:

– أتمنى ألا تُكثر من الجدال الغبي مجددًا بشأن حجم خيالك بالنسبة لحقيقة العالم.

***

–عَرْكَة مُعتَبَرة. الله يسامحها، لكن تستأهل والله. شُفْتُها فأحسَسْتُ أنني أكَلْتُ يا عم خليل، لا تقُلْ دنيء وعيِّل بطنه سَوَّاقة، لا تستعجِلْ. أنا أقول لك قصدي، بلا مؤاخذة، أنا طوال عمري معدتي فاضية، أحبُ الأكلَ ولا أطوله، وألفٌ مثل عفرِ الخماسين على رائحة أي شيء فوقَ نارٍ أو في ثلاجة، شُفْتُها فشبعت، والله لا أكذب عليك.

كُنتُ ساحبًا آهة في يدي وألفٌ المولد، ربنا ما يقطع لي عادة، أنت تعرفُ أن الموالدَ حياتي، جِبْتُ عيني وأقعدتُها على "طقطوقة" وجعلتُها تتفرّج على الحكايات المدلوقة من عيون الخلق وخطاويهم. والله يا عم خليل لو خبَطَ اثنان في بعضِهما لوَقَعَت بينهما حكاية في التراب، مُقَشَّرة وجاهزة للسمع، أذناك ستبلعها بلعًا من حلاوتها، حتى لو حكاية مأتم ومزقوقةٌ في سمعِك بكراسي صِوان.

المهم، الحورية المصون كانت جالسة بفرشة حمص وحلاوة، شعرتُ أنهم رَشُّوني فوق أكلةٍ حلوة أول لمَّا عيني لمحَتْها، الصراحةُ فَكَّرْتُ أن أرمي بلائي عليها في الأول، تسالي الليالي الحلوة، أنت عارف قصدي بدون ما نُفَسِّر، لكن والله يا عم خليل أحسَسْتُ أن في عينيها حدوتة من النوع الذي أحبه، حدوتة بائتة في خلطة دموع وسقعة. لا تضحك يا عم خليل، عيب والله، أنا أتكلمُ بحقِّ ربنا. والله أحلف أن أقوم، أروح في داهية.

نهايته، كانت جالسة بفرشتها بجوار المُطاهر، رجالٌ عديمو النخوة،

الحياءُ نطَّ من عروقهم وجرى، يُقعِدونَ امرأةً بجوار دخلة مُطاهر العيال، الدمُ أزَفَ في عروقي، أنا أصلي تَرَبَيْتُ على طبلية ملآنة يا عم خليل، طبلية عليها شارب ملء هدومه، أكلنا الأصول في صحون وشربناها شُربًا، الله يرحمه الوالد. المهم، رُحْتُ لأكثر من صاحب فرشة أستسمحه يُبَدِّل مطرحه معها، بالذوق والرباية والله يا عم خليل، زَعَّقوا كأنني وَقَّفْتُ حياتهم في زورهم، وقامت العَرْكَة، أعدموني العافية يا عم خليل، الكثرة فلقت الشجاعة نصفين.

لكن –ربك والحق– أوَّل لمَّا قالت "سلامة المجدع" أحسستُ أنني قاعدٌ مع الصحة في الكوشة والله يا عم خليل، عظمي المدعوكُ نادى على بعضه بسرعةٍ لأجل أن يقف مصلوبًا في طوله أمامها ويَتَمَلَّى في الحلاوة.

اسمها عفاف يا عم خليل. خُذْ يا عم خليل، جِبْتُ لكَ الحُمُّص الذي تُحبُّه، لأجل أن تعرفَ أن شعراوي لا ينساكَ أبدًا، حُمُّص على كيفك، غير كل مَرَّة، حُمُّص من فرشتِها، ادعُ لنا بالستر حبيبك النبي، ادعُ لشعراوي الغلبان لَفَّاف الموالد، وادعُ لعفاف، وادعُ لنا نلاقي بعْضَنا حلوين يا عم خليل.

***

– وأنا في السادسة أهداني أبي لعبة سمعني أهذي بها في حلمي، هذا الموقف يُشبهُ طلَّتَها.

قالها خالد العسقلاني لعم خليل والأستاذ سيد، يُستِفُّها شاي النعناع في مزاجهم، فقال سيد:

– غربلتك البنية، كأنها تُنقِّي دقيقًا لخبز، وفي هزَّتك سقط منك كثير، أهمه صواميل ضبطك.

– تقول فيها؟ والله جبتَ المفيد بالضبط يا أستاذ سيد، العبارات ضيقة

عليها، من ساعة أن تركتها وأنا قلبي سابَ على باقي أعضاء جسمي، لم يعد هناك ما يُحصِّنُه ولا ما يميزه، استُبيح. أنا أفهمُك، تخيَّل أول شخصٍ غنَّى في تاريخ الناس، دَنْدَنَ وسط جماعة حوله، أترى إحساس هؤلاء وهم يدركون أن للكلامِ طُرقًا أحلى يُنطَقُ بها ويُرَقِّص شعورك؟ كان هذا إحساسي حين رأيتُها أول مرة، أردكتُ أن للبشرِ طرقًا أحلى ينطقون بها فيُرَقِّصون شعورَك، غير أن الغناء بدأ وتطوَّرَ ويسعى للكمال، وهي وُجِدَت في قمة كمالها، والموسيقى ألوانٌ كُثُر، وهي واحدة، إنها فنٌّ مضبوط السكر يا أستاذ سيد والله.

– حيلك حيلك! بالراحة علينا يا عم خالد.

– آخرة النسوان، ومنتظر ربنا يكرمك وأنت مضيِّع وقتك في الفارغ؟

قالها عم خليل يهزُّ قعر كوبه ليُطلِّعَ التِفْلَ الراقدَ لسطح رشفتي الماء الباقيتين ويعوزهما مزاجه.

– يا عم خليل الرجل نيته كانت خيرًا وبالمعروف.

– ولو، يبعد عن الشر ويغنِّي له.

– حتى هذه شر؟ نعتبرها كلامًا في السياسة هي الأخرى؟

– عز السياسة، مشورة المَرَة تخرب البيت سنةً لو صحَّت، ما بالك لو أخطأت؟ ثم أن الموضوع بسيط، خلِّ بالك، شُف أي بغل من بغال الكوم في رقبته زوجة وعيال، ليل نهار تمسك أذنه كأنها زرَّادية، هات الطفح، هات الشرب، هات العلاج، رُوحْ هات لنا جناحين من القصر الجمهوري وتعالْ، هات وهات وهات، وهو يدلق الكلام كله في سبِّ الحكومة والبلد، لا.. ويزيد طين بجاحته بلَّة ويتحسبن على البلد بحالها، عرفت أنها عزّ السياسة؟

– قل لي يا عم خليل، من البهيم الذي يقول لك هذه النظريات؟

– لمَّا تتعلم الأدب أقول لك.

ثم ملتفتًا لخالد:

– خذها مني كلمة أنت الآخر، إذا...

– استمع لعمك خليل يا خالد، سيقول لك المفيد الذي يجيب داغك وداغ حياتك كلها.

قالها الأستاذ سيد مقاطعًا عم خليل بينما يضحك خالد.

– تفضَّل يا عم خليل، أعطِه مما أعطاكَ الله من خبرة.

– خلِّك وراءه، خَلِّنا نشوف من سيخرِب بيته.

بكَّ الضحكُ في وجوههم فقال سيد لخالد:

– ساعة روقان، قُلْ لنا قصيدة تدلِّك مزاجنا يا عم خالد الله يبارك لك.

–أنا مِصْرِيّ
وهَوِيَّتي حُجَجٌ بإرثٍ مُحْضَرَة
حججٌ عن علاقةِ الجَنَّةِ بقلبِ الحِذاء
وعن عِشقِ الجِنِّ سُهَّارَ المساء
وعن تاريخِ الخريطةِ وقدسيةِ الأنباء
الواردةِ من مِذياعٍ يجيدُ البَعْثَرَة
ويُحبُّ أن يعلو بَدَوْسِ المحبرة
ويبثُّ أخبارَ المعونةِ والكِساء
وتقاريرَ عن النمو والأرقام والخطر والغِناء
أربعَتُهم جَمَعًا
نتلقَّاهم بخوفِنا لا سَمْعًا
كمُكَذِّبِ مُبْصَرَه
ويُكابِرُ الأوبَة
كناهلِ التوبة

بكأسٍ أسْكَرَه
وأنا مؤمنٌ بالفِطرة
كنَبْتٍ لم ينمُ إلا بمُمْطَرَة
خلقٌ ربّانيٌ يُسَبِحُ بالعَلَم
ويُزَنْدِقُ القَلَم
ويُقَدّسُ الكفاحَ في جبهاتِ المَسْخَرة
ويؤمنُ أن الدينَ حَسْبٌ أيْسَرَه
ويُقِرُّ القانونَ بالرَقْصِ
ويُعَيّرُ المبتورَ بالنقصِ
ويُقَيّمُ المزاجَ بالطَقْسِ
ويحبسُ السوءَ في دخانِ المَبْخَرة
وأنا عبقريٌ لأنني أولُ من بنى
وأولُ من جنى
وأولُ من حنى
ظَهرَا يشيلُ مُقَدّسًا ما كسَّرَه
أنا في الحكايا عبقريُّ المنظَرَة
يهَدّئُ الكَرْبَ بالمزاح
ويُبَلّعُ الضيقَ بالكفاح
ويدَّخِرُ الصراخَ للنواح
ويزهو بأنَّ بلاَده كالمَقْبَرَة
تحوي عساكرَ كل من قد أنذَرَه
تحوي خطاوي كلَّ من قد عثَّرَه
تحوي معابدَ كل من قد سَخَّرَه
ويُغَمّسُ الإذعانَ بأمرٍ قرَّرَه

وحنينُه وصلُ الجُفاة
وتراثُه موتُ الحُفاة
وثراؤه ما أهدَره
أنا المِصْريُّ سَجَّادٌ لسَبَّابي
أواجِهُ العلمَ والدنيا بأنسابي
أُحَصِّنُ الأمنَ بالسلطانِ والجابي
ويعلّقُ النجاةَ بإفكٍ بشَّره

– رغم أنني لا أفهم نصف الكلام، لكن أنا مصري هذه كيَّفتني يا ولد يا خالد، براوة عليك، لا بد أن تُعبِّئ شريطًا.

كتم الأستاذ سيد ضحكه في شرفة شاي قال خالد:

– لكن هذا ليس موَّالًا ولا أغنية يا عم خليل، إنه شعر.

– أحمد بك شوقي يعني يا روح أمك! خلاص، خلِّك فقري، وخَلِّه ينفعك.

– اكتب شيئًا عن عم خليل يا خالد، لو عجبته احتمال يكتب لك هذه الخرابة التي يسكن فيها بعد عمرٍ طويل.

قالها الأستاذ سيد ضاحكًا فلكزَه عم خليل يقول:

– بعينك، سأدفنكم كلكم وأصلي عليكم إن شاء الله.

***

الشمس تتزوَّق فوق شباك الهانم، تنظُر فيها وتطالع كمرآة، الخمسينية الشقراء التي يبكُّ منها الدم كأنها في الثالثة والعشرين. "ما داهية إلا أن تكون مخاوية" تقول رؤوفة أم حياة. "لكنها تقرأ في الختمة وصلَّت تراويح رمضان عام نوّل، أنا شُفتها" ترد على نفسها.

في المرة التي طلبت منها الهانم أن تضع لها قطرة العين وارتجفت

يدها كتيَّار كهرباء ضعيف، وحاولت أن تمسح ما سقط على الخد اللامع تحت النجف، "هذا جلد بني آدم أم سمن بلدي؟ ولماذا جلدي مثل سقف الفرن وكلنا أولاد تسعة؟" ولمَّا ابتسمت الهانم لارتجافها وفشل سقوط القطرات فوق إنسان العين الذي طالبتها بالنظر له جيدًا للتسهيل عليها أن تُقطِّر ، اعتذرت رؤوفة في تلعثم تقول:

– أنا يعني كنتُ دكتورة أنف وأذن يا هانم؟ أنا أفهم في الطواجن وتلميع السيراميكا مثل الجن الأزرق، لكن الطب له ناسه.

ضحكت الهانم وطالبت حياة أن تجرِّب، ففعلت الفتاة، رغم تحديق أمها لها تحذيرًا أنها ستعدمها العافية. "داهية البنت تعمي الولية، أروح أنا وهي في رجلين الأكابر؟ استرها مع الغلابة يا رب" وحينَ نجحت البنت زغردت رؤوفة واحتضنتها الهانم، ثم كافأتها بعلبة عصير تفاح من الثلاجة العمرانة ادَّخرتها الصغيرة لتشاركها عنزتها في الليل. منذ هذه اللحظة عزمت رؤوفة على إدخال حياة كلية الطب لأنها دكتورة بالفطرة، كانت قرَّرت قبل ذلك أن تعلمها "المَرجَلة" كي لا تسحقها الدنيا وأولاد الحرام وخدمة البيوت حين ترث الشغلانة، وبعد أن هدأت نشوتها بوضع قطرة الهانم، بدأت قصة حيرتها التي ستستمر حتى بعد انفصال حياة عنها للحياة الجديدة.. "هل تتعلم البنت الطب أم المرجلة؟".

– لماذا لا يُخرج عبُّودة أبي من التربة يا أمي؟

– أستغفر الله العظيم، سامحها يارب، عيِّلة وفهمها ضيق.

ثم توجَّهت للصغيرة تستنكر:

– ماذا تقولين يا حياة؟ هذا كفر يا ابنتي، استغفري ربنا بدلًا من أن يسخطنا قرودًا.

– سمعته يقول لعم عليوة "أطلَّع ميتينك يا عليوة يا بنَّا" لماذا لا نعرض عليه ويطلِّع ميتيننا معه؟ نحن جيران ولن يأخذ منا أي فلوس.

ابتسمت الأم محتضنة صغيرتها، قبل أن تنسرب دمعتان لم يلحظهما إلا خدَّاها، ثم قالت:

– استرها معانا يا رب، استرها مع قلوب الغلابة والمكسورين يا قادر يا كريم، ألهمنا الرغبة في الذي نقدر عليه والباقي لا يا رب.

"حياة" كانت مثل كل الحب الذي ليس متواجدًا في الكوم، تحكي لعنزتها –التي التقطتها تائهةً على مدخل الكوم وأعجبتها كصديقة– الحكاية نفسها في كل مرة، بينما تتناول رغيف الكبدة وتطعمها منه قسرًا، عن أن كل هذا القدر من الليل لا يوجد إلا بالكوم فقط، الليل بالخارج عند الهانم وفي الطريق إليها ومنها أقصر كثيرًا من الليل هنا ويمكن للجميع أن يحلم به، ليلٌ هدومُه فيها زركَشة حلوة على السواد، يدخل دكاكين يسمونها محلات، لأنها أكبر وبها كثير من الإضاءة والصور والناس المبسوطة، وأوراق فلوس أكبر من التي تمسكها أمها، والأكياس البلاستيكية التي يحملها الناس بألوان أجمل من الأسود الذي تحمله أمها بشكل دائم، ليلٌ لا ينامُ مبكرًا مثل بيوتُ الكوم.

ورؤوفة ليس لها دعوى بشيء لا يمسَّها وابنتها بشكلٍ مباشر، الأرملة التي في حالها وكافية غيرَها شرَّها تعيش في الكوم منذ عشرة أعوام قضت ثمانية منها مع الصغيرة اليتيمة، بعدما قرَّرت ماكينة الكرينة إنهاء الجزء الذكوري من القصة، وقالت لها أن أباها لم يمت، وأنه فقط غيَّرَ عنوانه لمكانٍ لا يصل إليه فيه الدائنون ووجع الكبد، الجميع يتجنبون لسانها السمَّاوي منذ تلك المرات القليلة التي ظهر فيها أن نابها أزرق، وتستطيع أن تُدوّخ الكوم كله، رغم حبهم لليتيمة حياة التي جابت ماكينة الكرينة أجَلَ أبيها بعد سنوات من التهامها ذراعه، تنشر البهجة باستمرار بتعليقاتها على الجميع وأحاديثها غير المتكلفة مع الجميع، خاصة زينب التي تحبها مثل أمها لأنها تجلب لها الحلوى الأرواح والمشبِّك باستمرار، حياة

تقول ما تريده لمن تريده دون خوف، تعلَّمت ذلك من حكايات محمد أبو الدهب عن علي الزيبق وأبو زيد الهلالي وحمادة إمام، ذلك أنه –محمد أبو الدهب– كان زملكاويًا متعصبًا، حتى أنها قالت مرة لعم خليل أنه في مشيته متكئًا على عصاه يشبه الكلبة البلدي الحامل في مدخل شارع نخل السجر والتي يطاردها العيال بالضحك والطوب، ولم تأبه بسبابه لها ولأمها وللضاحكين..

رؤوفة تخدم في البيوت لتكفل الصغيرة، ثم استقرت أخيرًا في خدمة الهانم الوحدانية التي أجزلت لها العطاء مقابل أن تأتيها كل يومٍ للتنظيف والطبخ وأعمال الخدمة، تعطيها بالمقابل ضعف ما كانت تُحصِّله بكل البيوت التي سبقتها، إضافةً لعطاياها للصغيرة التي تشاركها مشاهدة التلفاز المُلوَّن، الذي شاهدت واحدًا أصغر منه بكثير في محل كرم المسيحي لألعاب الفيديو في الطريق بين شارع نخل السجر ونزلة الصعايدة، وهي تعبر الطريق بيد أمها. تختار رؤوفة شارع الأجزخانة للخروج منه رغم أنه أبعد المخارج عن غرفتها، ترفع طرف عباءتها حين تمرِّق من حواداية المأذون، وتحمل حياة على كتفها، بيومي الكسحجي ضلالي ونصَّاب، الطرنشات أصبحت لا تأخذ غلوة شغل، وتطقُّ المواسير في أنوف الناس وخطاويهم وتذوقهم للقمة. توصي ناصر بتحضير رغيف كبدة صغير لحياة من عربته، بواقي الصاج بنصف الثمن، أي شيء تعضُّ فيه الصغيرة ويهشُّ من أنفها وتمنِّيها الروائحَ الزاعقة من مطعم أسماك البحرين التي تلمّ الأكِيلة، والحرفنة الجارية من شاورما مطعم المدهش تلحق مكانًا في أنوف الماشين، والشهوة النذَّاهة السائبة من عتبات عنتر الكبابجي تسحر المِعْدَات الشقيانة في المنيل الغربي، والتسالي اللمِّيعة في أيادي روَّاد سينما فاتن حمامة، في طريقها للهانم في شارع عمر لطفي بمنيل الروضة، حيث تكون الصغيرة قد أنهت بواقي الكبدة في الخبز البائت.

قالت لعبُّودة أنها لن تتزوج من "قَمَرْتِي" حين طلب منها الزواج ورعاية البنيَّة اليتيمة، استمع لنصيحة غانم النقَّاش في جلسة سَطَل حين قال أنها كَسِّيبة ويراها عائدةً كل ليلة بحقيبة مليئة من خيرات الله، غير الفلوس، وسيأكل من وراءها الشهد، ولمَّا قال –يردُّ عن نفسه– أنه لا يحب القمار ولا سيرته وأتبع ذلك بتقطيب حاجبيه ورفع كفَّيه إلى كتفيه و "أعوذ بالله، حد الله بيني وبين الحرام" .. خلعت حذاءها ونزلت فوق رأسه قائلةً أن لحمها مُر وممكن أن تُحضِر أهلها من البلد يقطعوه نسائر نسائر لو فكَّر أن يطمع في قرشين البنت اليتيمة".

وحين انفضَّت العركة بخلع رؤوفة لجلبابها وتلبيس عبُّودة بلوى، جرَّه الرجال لمندرة خميس أبو عزة قائلين له "خَفْ من العبيط" وأن زين ما فعلَه أنه رجل جدع وأنهى الموضوع وانصرف بالتي هي أحسن، ولمَّا أطلَّت ريسة من شباكها قائلة أنها "جِذر فقر" قالت رؤوفة أنها ما صدَّقت أن تلاقي جنازة تشبع فيها لطمًا إلا ظهرت كالضيف الثقيل، ثم أقسمت لأم جمعة أنها امرأة عينها مدوَّرة، تأكدت من ذلك حين عادت بورقة اللحمة المبقعة ولم يمر الليل إلا والبنت تطرش الدم، وعندما افترضت أم جمعة أن البنت ممكن أن تكون قد أكلت حاجة مشمومة؛ أقسمت رؤوفة بالخَتْمة الشريفة ورحمة زوجها ثلاثًا أنها لم تفعل، وأن ريِّسة هي السبب، فاقتنعت المرأة واستعاذت بالله ثم تفلت على عتبة ريسة متعمدة ألا تراها الأخيرة وإلا طيَّنت عيشتها.

***

رئاسة الجمهورية، هكذا يسمِّيها عبُّودة، الغرفة في آخر الطرف الجنوبي من الكوم، مدكوكة بالرطوبة، ومُعَرَّشَة بالفلوق، وتتونَّس بالهباب الشاري حوائطها كلها ويوقِّف فيها غفرَه من السواد والكتمة الباركة فوق الأعين المسطولة. الغرفة التي تزوَّجَت الكيف وفرَشَت له أرضها بموكيت

مسروق من الزاوية، وتسع شَلْتات مُعبَّأة بالقش وبقايا أكفان مسروقة، ورصَّات قواريص سجائر تم تسليكها من الشركة الشرقية للدخان بطريقةٍ أو بأخرى لقاء مصلحة.

بجدرانها من الخارج زفت كان عبُّودة قد دهنها به ليمنعَ صوت جيران السوء الذين يفركون الملح فوق سطله، ويُضَوْضِئون في أذن مزاجه؛ فيفسدون اللذة والسلطنة، مشورة غانم التي اكتشف أنها لم تجلب إلا الصهد الذي تبثه الشمسُ وديعةً عنده في الصيف كله، والبرودة التي تعطسُ سقعتَها في أبدانهم وفي ساعة الحظ. ما جعل عبُّودة يُكلِّف غانم بتصليح خطأه. "وحياة أمك لو وصلت أن تقشِّرها بأسنانك ستعملها، آخرة مشورة البهيم سلخه". فكسَّر الأخير ما استطاع وتوقَّف حين طرشَقَ الباب من خبطة أَجَنَة غشيمة، فبقيت بعض الآثار تذكره بفتواه وبالعلقة التي أخذها ساعتها.

– أرملة مصبوبة شر، لا تنفعك يا عمنا، بُصْ حولك واعرف مقامك، الكوم كله يقوم بإشارة منك، أنت يلزمك واحدة تشوفك كأنها شافَت فرج ربنا.

قالها غانم يرص تعميرة جديدة، ويسحب نفسًا من بوصة الجوزة يجرب قدرتها على تفكيك الدوشة التي في الدماغ، بينما يلسع الفحمَ بتهويةٍ تُهيّجُه وتدحرج الكآبة من الرأسِ عبر الزفير المقطرَن.

– كلامك الليلة حلو يا غانم، تقول حِكَمًا كأنك شغَّال في الإذاعة، أنت صدرَك شَدَّ نفسين مزاج أم شَدَّ مدرس عربي؟

– شَدَّ حيله.

علا ضحكهما، وكان السطلُ قد فَرَشَ في رأسيْهما وقَعَد.

– قُل لي رأيك في سنية السباعي.

انتبه عبُّودة للإسم ولم يُعَلِّق بشيءٍ يفيد، كان يحبُّ ألا يبدو عليه اهتمامٌ

بشيءٍ بين صبيانه مهما عَضَّ اندهاشه. قال باقتضابٍ وهو يسحبُ نفسًا:

– ما لها؟

– تليق بك، هانم من هوانم المسلسلات، تَحِسُّ أنهم خَمَّروها في منقوع حلاوة يوم ميلادها، وأنت –اللهم لا حسد– وجاهة وقيمة لا تقل عن ظابط، ناقص لك دبُّورتين ميري وتَجيء بالبوكس والتشريفة، يعني معمولة على قدَّك، عُمُولة.

كان عبُّودة نصف سَطَل، صمت حينًا ثم انفجر في الضحك والشخير وضَرْبِ فخذيه والميل على جنبِه أو ظهره، فاضطر غانم لمجاراته في ضحكه ومَيْلِه، وهو لم يفهم بعد إن كانت إشارة خير لأنه اقترح اسم صاحبة مال يشتريهم ويشتري الذين خلفوهم، أم إشارة شر لأنه رآه لائقًا بواحدة سمعتها تكركب سيرة أجدع جدع لو داست فيها، لكن ضربة عبُّودة الخفيفة على وجهه رغم صوتها الذي رنَّ بأذنِ كليهما سَيَّرَت له بعض الاطمئنان، لم يُعلِّق بأكثر من ضحكه وبصقةٍ تطرد بعض ما كوَّمه الدخان في صدره من بلغم وقطران، ثم حمد الله حين استعادت شفتا عبُّودة ليّ الشيشة وكركر ماؤها مجددًا، وبدا أنه لن يعاقبه بأي شيء.

وعبُّودة بدوره لم يُكذِّب خبرًا، أصبحت سنية السباعي هي فتاة أحلامه وإن لم يُصَرِّح، ركَّبها في صدره وجعل قلبَه يطوفُ حولها، وباتت السبب الأهم الذي يضع لأجله كمية أكبر من الفازلين وكولونيا الخمس خمسات ولا يبخل في شراء المسك المُعتَبْر من الفَرْشات أمام مسجد الاستقامة في ميدان الجيزة، كافئ نفسه بزجاجة ساقع لم يدفع ثمنها من كشك عبد الجَيِّد بن فرحات لأنها ابتسمت له حين قال "الله! طول عمرنا عارفين القمر في السماء يا عبد الجَيِّد، أخيرًا حظنا ضحك وعجبه الكوم أكثر من فوق؟" أثناء مرورها صدفة في واحدة من وقفات انتظاره طريقَها ونظرة،

اعتبر أن هذه بشرى خير وأن الصنارة غمزت صيدًا لن يغني من جوعٍ لكنه سيتركه نصفَ بطنٍ على الأقل.

– وجلال من جَّمعنا يا غانم أنها تحبني من زمن، شُفْ لما أحلف بجلال الله، سبحانه جمع مثلي بمثلك في قعدة واحدة، قادر على المعجزات.

سحب نفسًا ثم استطرد:

– كان المفروض آخذ بالي من سنين أني في بالها، لكن الحياة مشاغل.

لم يُعلِّق غانم فقال عبُّودة يردُّ على نفسه:

– العقل يقول أن سيدة مبسوطة وتحتكم على مال الدنيا والآخرة، لا تبقى في هذه الزريبة التي نعيش فيها، إلا لو قلبها جرى منها وراء رَجُل لا تستطيع البقاء بعيدًا عنه، وسيدة مثل سنية السباعي لا يملأ عينها إلا رجلٌ مثل عبُّودة.

قالها ومسح على رأسه وشاربه، فقال غانم وهو يبصق تحت الفرشة التي يجلسون عليها:

– رأيي أنك لا تستعجل، لا تَعِشْ في فيلم عربي يُطَيِّرُك وتلاقي نفسك في الآخر واقعًا ومكسورة رقبتك –بلا مؤاخذة يعني يا عمنا– لكن لازم أحذَّرك.

– هات ما في بطنك يا غانم، من غير لف ولا دوران، أنا دماغي مسنودة على الحجرين بالستر، وأي هزّة غباوة ستهدُّه وستكون ليلة حزن على دماغك.

– قصدي أن سنية السباعي تبتسم للرايح والجايئ وطوب الأرض، إنها تبتسم لعليوة البنا وهو شبه كعبي، وتقابل معاكسات الكل بنفس الدلال والتطميع، يعني لم تقدم لك جديدًا.

– ماذا قلتُ لك عن دماغي يا غانم؟

– مسـ.. مسنودة على الحجرين.
– بالستر يا غانم، بالستر.
– بالـ.. بالستر تمام.
– وهزَّات الغباوة يا غانم؟
– تهدُّه يا عمنا.
– وساعتها يا غانم؟
– ليلة حزن يا عمنا.
– يعني أنا أنام مستريح لأني أخليت الذمة قُدَّام ربنا.

أطاح عبُّودة بقطعتي فحمٍ أحرقتا فخذه ثم قال بينما غانم يقفز مبعدًا إياهما ومتأوهًا

– اخفَ من خلقتي يومين أو ثلاثة، لو شُفْتك ولو صدفة سأعمل منك ذبيحة وأخلِّي الناس بطونها تحلم بلحم فخذك كأنها ليلة العيد.

عبُّودة كان النبتة التي يمكنك أن تقول بملء فمك أنها الطرح الحقيقي لأرض (أبو جامع) بلا شوائب من سماد أو تقليب تربة أو حتى تسيير ماءٍ للسقاية، نبت خالصُ الانتماء للطين المشقَّق بجوع الغلابة، العرقان بدمع المسحوقين، يحب الشيشة المبقَّعة أكثر من حب الشيخ عبد المولى للعِمَّة والمسبحة، هكذا يقول ويخبره عم خليل أنه كافر ابن كَفَرَة وأنه سيُشوَى في جهنم لا محالة لأنه لا يتعظ بكل هذه القبور التي تزاحمهم النفس والوجود والسكن، فلا يرد عبَّودة بغير "قدِّم المشيئة يا عم خليل خَلِّك مؤمن" ثم يضحك ويلثم شيشته وسخريته وافتراءه على الكل، بينما يبقِّعها بالحشيش المغشوش الذي يسميه مُعتَبرًا ويُسَلطِنه، ندوب وجهه وفراغات لحيته التي "يفزلنها" ليجذب النسوان يضيفان عليه ملمحًا من "الزفارة" كما يقول عم خليل. في نهاية الأمر فعبَّودة هو فتوة الكوم بشكلٍ ما وإن كان هذا غير مُعلَنٍ بشكلٍ صريح. سائس السيَّارات اللقيط الذي

التقطه عم خليل من الرصيف وكلاب السكك وأولاد الحرام وربَّاه بما استطاع سبيلًا.

***

– يا ليت الداية خرجت من عند أمك بيدها فاضية.

كانت الجملة الافتتاحية المفضلة للصول كردي، قبل أن يبدأ وصلة سخريته وقلة قيمة من أمامه من العساكر أو صنايعية المشروع أو أهالي الكوم، في تجواله بينهم لفَكِّ الملل ولِفَكِّ حصرة لسانه الراغب في التفوه بأي شتم أو هزار ينال الأمهات ويكسر عيون أبنائهم، خاصة القلة منهم الذين يحملون كشكولًا أو قلمًا، أو ما يدل على تعليم ما يمكنهم من قراءة جريدة دون اللجوء مثله لصول زميل أو سماعة راديو أو نشرة أخبار مسموعة تغنيه السؤال، هؤلاء الذين بصقتهم حظوظهم أمامه للإختبار أو تخليص الذنب، أو إعادة ملء خزان كرامته الذي يفرغه الرائد حسام من وقت لآخر بمعرفته، ورغم أن معظم العساكر يعتبرونه أكثر الصولات تواضعًا، لأنه يكتفي بالشتم، وأخذ موضوع ضرب أقفيتهم وخدودهم بهزار، إضافةً إلى أنه لا يتحرَّج من الذهاب لجلب الإفطار المجاني له وللصول قرني وحسام باشا من صبَّاحي كل خمس أو ست إفطارات يرسل عسكريًا في بقيتها التي يكسل فيها، إلا أنه لا يحب أن ينزل من رتبة المتواضع للهُزُؤ أمام الكل.

– العسكري مثل كل واحد من أهل هذا البلد يا قرني.. مثل السوستة، طالما ضاغطٌ فوقه بالبيادة يظل تحت طُوعك، تشيل رجلك من فوق رقبته ينط في رقبتك أنت يفلقها نصفين.

أعجبه أن يُعرَف عنه تواضعه المزعوم، ولم يكن يعجبه قبل أن يسمع بالعسكري الذي فرَّغ خزنة سلاحه في صوله وضابطه ثم نفسه لمَّا أثقلا وأثقلَتْ عليه، حتى لو تواجد في هؤلاء العساكر تحت يده عيل من عينة

العسكري القاتل فهو –كردي– لن يكون الاختيار الأول لخزنة سلاحه على الأقل، وسيتمكن من أن يشوف صرفة ويعمل حسابه لو حدث هذا الأمر لقرني، الذي كان في مقارنة دائمة معه من العساكر، مع إجماعهم سرًا أن كليهما يستحقان الشنق.

على كل حال فكردي راق له أن يكون هذا تفسير عساكره لنوبات مللـه وذهابه لصبَّاحي، والترفيه عن لسانه في أمهات أهل الكوم وأصولهم الواطئة ومعاكساته الفجة لنسائهم ويتغافلون ويتغافلن عنها، لأنه حكومة، راق له أن يُفسَّر ذلك من التواضع وبياض الأصل ومشاركة الناس وعدم الكِبر عليهم، وأنه أول من يستحق أن "يعلِّق ظابطًا" في جيله وأجيال تسبقه، لن ينفعه لو سار بين العساكر بسمعة تقتله وتجعله شهيد واجب لا يعرفه، وفداء الوطن والبشوات كما يقسم دائمًا لكل من فوقه ولم يجرّب أن يفعل، لن ينفعهم أيٌ منهم علَّق كتَّافاته بالواسطة لو فقد عمره لأجله أو لأجل وطنه الذي يصدعون رؤوسهم به من أيام معهد ضباط الصف، وحتى كل زيارة رسمية لباشا ثقيل الكتف والكرش والموكب، وهو الذي لم يعِش شبابه بعد كما يردد دائمًا، إضافة لكَوْن خير ربنا كثير من العساكر الذين يتقنون دور الموت هذا أكثر منه ومن الباشوات ومن الوطن نفسه.

ينفعه فقط أن يعيش مطمئنًا للعيال الذين تحت يده وتحت كتَّافته، ثم ليعيش الوطن كما شاء ويعيش باشواته كيفما شاؤوا، ماداموا لم يمنعوه من أن يفطر مجانًا، ويعاكس نسوان الخلق مجانًا، ويضع أنوف المتعلمين منهم في التراب مجانًا –وإن كان قد نوى والنية لله أن يمتنع عن هذا حين يتوب عن السنين التي مرَّ فيها من الإبتدائيةِ برشاوٍ كان يمرّرُها أبوه الذي من بيتِ العموديةِ لتجلبَ له الشهادةَ عامًا بعد آخر، قرَّرَ التوبةَ وأن يتعلَّم فكَّ الخطِ بعيدًا عن الوساطة ويتمكن من قراءة الجريدة وحده بعد عمرٍ طويل– ويأتيه الكيف مجانًا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن

شماله دون حساب من أحد، ما دام الميري على جسمه ومقاسه، والكارنيه في الحافظة الجلد التي أعجبته فوق فرشة في ميدان الجيزة فطواها في جيبه يومها قبل أن يلمُّوا باقي البضاعة وصاحبها في طلعة للإشغالات على خارقي القانون.

في الصبح الذي طُيِّنَ فيه الكوم بالمطر والزائرة الخفية؛ لم يُفسِّر طاقته المفاجئة التي دفعته لتمديد سرحانه بالنواحي الممتدة من شارع القصر وشارع الأجزخانة، وما تدحرج بينهما من المخاليق وطفح الدم، وما استقر من البيوت وحكايات الحريم وتجواله بين المطارح وكرامة الأهالي ولحم نسائهم، سبابه بلا داعٍ لصبَّاحي كان بلا ابتسامة سخرية معتادة تنبئ عن أنه آخذٌ للموضوع بهزار، صبَّاحي الذي كان يحب الشتم منه وينزل على قلبه مثل العسل، ويعتبر كل سبةٍ هي واسطة من الحكومة، فهم أن أمرًا ما ليس طبيعيًا هذا الصباح، وأن غزالة مزاج الصول كردي مربوطة في الضِيقَة، فزوَّد في المخلل وعدد الأرغفة البلدي والطحينة والباذنجان من نفسه، ودون طلب من الصول كردي الذي طاح لسانه في الجميع وزحمة الكل المتكومين على جانب تاركينَه يخلِّص اختياراته من الأصناف خلف الزجاج المبقَّع وصاحبه الذي يعبِّئ القراطيس الورق بعين ويلحظ الصول المتجهم بأخرى، مترقبًا ردة فعل ملامحه فيلحق نفسه ويزيد من المطلوب لو لحظ بادرة امتعاض أو استعداد لسانه ب"يا ابن" أو "يا ابن ميتين" حسبما يتيسر.

كردي الذي شعر بشهوة دوس فجائية على وجوه أهل الكوم، ورغبة قاتلة في وضع أنوفهم في التراب وذِبل الحمام وبولات صغارهم أمام البيوت وأواسط الشوارع، مدَّ يده لأقفية رجالية وأكتاف نسائية بلا مواراة أو بسمة هازرة تخفي ما وراءها كالسابق، ويتقبلها من يتقبلها منهم مبادلًا بالضحك و"باشا" وتحية عسكرية عليلة بانحناءة جزع أو رقبة أو كليهما،

الأمر كان أشبه بكبسة حكومية من التي يختبئ فيها الرجال فاعلهم وبريئهم "بالمرَّة" وتجلس النساء على العتبات للمراقبة والتضليل بالسكوت أو كشف شيءٍ ما يفهمه العسكر ويحبونه ويخضعون عنده ويكملون السير، ولمَّا أنهى بعض ما أنهك الثلاثين كيلو غرامًا الزيادة في وزنه ولم يُشبِع مثلها الزيادة في رغبته في التنطيط على كرامتهم ووجودهم كله والتي جدَّت عليه هذا الصباح؛ قرر أن يعود ليأكل لقمة يرمُّ بها عظامه وكوبًا من شاي يعدلُ مزاجه ويساعده على التسالي عليهم، وعلى رجولة من استرجل فيهم، وأنوثة من عُوقبت بأنوثتها والتقاط عينيه.

***

عليَّة أم أحمد كانت تأتي بالخضار من بني سويف، أسبوع بأسبوعه، وأحيانًا تستسهل أو تُضطرّ للجوء لفلَّاحي أبي صير أو غيطان طمُّوه المرمية في ظهر طريق مصر–أسيوط. تؤجر كارو متولي العربجي شِركًا مع بيَّاعات أخريات من ساقية مكي والمنيب ونواحي جامع عمرو، يحملن بضائعهن عليه، ثم يتنقَّلنَ من سوق السبت في مزغونة، إلى سوق الأحد في "أبو لاشين" ،إلى سوق الثلاثاء في ساقية مكي، إلى سوق الأربعاء في المنوات، ويختمن الأسبوع بسوق الخميس الممتد من منى الأمير عبرَ عزبة "أبو حسن" إلى مدخل أم خنان، يُسَتِّفنَ الأجولة فوق الكارُو قبل الفجر، ويكون الحصان ومتولي قد وصلا بهنَّ لكوبري المنيب مع الأذان، حيث يلحقن كل سوقٍ من أولِّه، كانت قد بدأت فكرتها الخاصة التي شَيَّلت قلب رفيقاتها غِلًّا منها، تُخرّطُ الكُرَّات وتضعه في أكياسٍ تُسهِّل على النسوان الكسلانة جزءًا من إطعام الطيور، قبل أن تتوسَّع حين راجت الفكرة بنتف أعواد الجرجير والبقدونس، وقلوَظة الفجل وتقشير رؤوس الخس المكيَّسَة التي يشبط فيها العيال، وغير ذلك مما يُسهِّل عمل الشابات اللائي تمصمص حمواتهن شفاههن منهن. قبل أن تشنكلها عيون صاحباتها وتبخُّ فيها السكري وشكشكته.

والسُكريُ أحبَّ القعدَةَ فيها، نهب ما نهب منها وادَّخرَ لصحته ومشاويره الطويلةَ في صحتها، خنق مثانتها ببولات الليل خاصة، رأسها المصدَّع بذكرياتِ الكَفْر، وجسدها المترهل بالدهن والعَوَز والهم والطلاق القديم، قد دكَّهما بالغيبوبة، ودقَّ مساميره بالأطراف التي هلكت أعصابها حتى لم تعد تملأ كوب الشاي بأكثر من ثلثه كي لا ينسكب باهتزازه ويحرق ما يناله من جلد ذراعها أو فخذها حسبما تيسَّر له، القدم لم تعد تتحمَّل تغيير الجلسة اتقاءً فاشلًا للنمل الذي يسري فيها ولا يوقفه أن تُمَدَّ القدم وتُثنى في محاولات تفريق جموع سيره وانتظامه في المشي حافي الأقدام الشوَّاكة في أرضِ عروقِها والعصب، مستشفى المبرَّة باتت تصرف الإنسولين بالقطَّارة وطلوع الروح، والدكتورة أمينة مديرةُ الصيدلية تقسم بالله العظيم للطوابير أن العيب في مستودع الوزارة.

– اربطي يَدَك يا ولية، وَفِّري في الزجاجة بدلًا من أن تخلصِّيها في يومين أو ثلاثة، حتى جلدك يرتاح من الشكشكة، أصبح شبه المنخل.

– يعني أنا كنت وزيرة العلاج يا ريِّسة؟ الدكتور قال الإبر استخدميها كذا كذا، وأنا أستخدمها كذا كذا، بدون فَتْي.

– مثل البهيمة بالتمام.

– الله يسامحك، نخترع دَكْتَرة بدل الدَكْتَرة يعني؟

– خلاص، خَلِه –اسم النبي حارسه– يوفر لكِ العلاج، أو يدفع من جيب أبيه، أو أقول لكِ.. خَلّيكِ مفرودة على سريرك مثل كومة التبن.

صمتَتْ ترشفُ شايًا ثم استطردت:

– الإنسان طبيب نفسه، وفِّري لوقت عَوَز.

قالَت ثم انتبَهَت لمجدي الدكتور، المار أمام الشبَّاك المفتوح:

– ولد يا مجدي، يا دكتور مجدي.

– نعم يا خالة ريِّسة؟ بسرعة الله لا يُسيئكِ، مستعجل ومتأخِّر على الصيدلية.

– يعني ناديت على مأمور قسم الدقّي يا خَيّ، عندك حل لخالتَك عَلِيَّة؟ السكري خلّى لحمها مثل لحمة السِليق، والثقوب في جلدها يمر منها موكب حكومة، شُفْ لها صِرْفة ينَوّلَك ثواب.

– تشوف طبيب يا حاجة أحسن لها، لكن عمومًا السكري بلاويه كثيرة، الحاصل لها شيء طبيعي.

– أفادكم الله يا سي الدكتور، أنا كنت قلتُ لك هات لها جلدًا جديدًا يكون شغَّال؟ عارفين أنه السكري وبلاويه، شُفْ لها علاجًا بدلًا من علاج الحكومة، شَحَّ عندهم، يمنعونه، ويوم ما يعطونه كأنهم أعطوها عيِّل من عيالهم.

دُلِقَت البهجة في قلب مجدي، اتسعت عيناه فرحًا كأنه يتفرَّج على نجدته، ثم رفع حاجبيه وكانت إشارته لإبداء الاهتمام، وقال:

– عيوني لخالتي عليَّة، والله رزقها واسع والسماء تحبها، عندي علاج ينفع، ولأجل الجيرة وأني أعتبرها مثل أمي الله يرحمها، تأخذه وتسدِّد على مهلها، لمَّا ربنا يفرجها، بعد شهرٍ يعني.

– ربنا ينجّيك من الشر يا بني، أصيل ابن أصول.

– عشر دقائق، أجيبه لكِ يا حاجة.

قالتها عليَّة وردَّ مجدي، بينما أخفَتْ ريِّسَة نظرةَ شكّها إليه برفعِ كوب الشاي قائلةً بعدما انصرف:

– آخر الزمن مجدي يعمل المعروف؟ القيامة شكلها قُدَّامها أسبوع.

– الدنيا بخير، ربنا عالم ورحمن ورحيم.

قالت عليَّة دون أن تُعلِّق ريِّسَة، وحين جاء مجدي بشرائط العلاج المُفَرَّغة من علبها الكرتونية، لم يُدقِّق أحدٌ في تاريخ الصلاحية المنقوش بخطٍ لا يقرأه إلا خبير علاج.

ولمَّا زادت غيبوبات السكري على عليَّة أم أحمد، وزادت بولاتها على

فراشها الذي كانت تغسله زينب من باب الرحمة والإنسانية ولم تعد تفعل مؤخرًا فتراكمت عليه، وبعدما فشل علاج مجدي في أن يسدِّ الثقب في صحتها الذي تسيل منه مقاومتها، لم يعد بدٌ من الاستدانة لزيارة طبيبٍ يشوف حلًا ويجعلها تموت بأسرع وقتٍ، وبشكل لا حرمانية فيه لترتاح من هذا كله. هكذا قادتها رغبتها وسؤالها للدَيْن والمسامحة فيه من عم خليل وسؤال الأستاذ سيد:

– تعرف دكتور معرفتك يكون ابن حلال شبهك ويده خفيفة في الموت يا أستاذ سيد؟ لكن وصِّه بموتة حلال، وتكون مريحة، أنا ست كبيرة.

***

عفرتة الطيور على الحبوب المنثورة لها، واقتتالها مع صياحٍ لا يقف، كان مثارًا للعجب، تمسُّح القطط في كل الجدر حتى الصفيحية التي تعبُّ من جلدها الدم كأن أكلانًا سُكِب في فَروِها، وهياجُ الكلابِ على بعضها وعلى ما تطوله من لحم السائرين وعلى عربة كبدة ناصر حتى قلبتها وأحرقت ذراعه وبطنه، ما جعل عبُّودة وجماعته يطلعون بالسلاح على كل ما ظهر من كلاب الكوم يطخُّونها ويحملونها في أجولةٍ حملوها على كارو متولي ورموها في الجيزاوية.

وعم خليل بعد الدوشة قد أخذ بعضه التعبان وفرَدَه على مصطبته المُعرَّشة بالبوص المُعشَّق في بعضه، وفي كراتين وأجولة خيش قديمة. يروح ويجيء في ذكرياته وسنينه التي عدَّت ويرجو الله ألا يلحق المسيخ الدجَّال ويكون من أهل اللعنة.

– أنا غلبان يا رب وأنت عارف، نجِّني بمعرفتك، هم شباب يتحمَّلون البهدلة، أنا عظمة كبيرة.

– البيه يريدك يا عم خليل، وحذرني أن أرجع إلا ورجلي على رجلك.

اعتدلَ يحمي إليته العظمية من صلب المصطبة بشلتةٍ من جهازٍ قديم

لا يُعرَف صاحبه، يُضيّقُ عينيه يتفحَّصُ الواقف ويقول:

– عيوننا للبيه، لكن كان أولى أن يأتي هو، صحته مثل البغل ما شاء الله وأنا رِجل هنا ورِجل عند أمك.. في الآخرة يعني، أصلي أعرف أن أمك الله يرحمها.

– يأتي؟ أين يا عم خليل؟ هنا في الكوم؟

– أصبح الكوم لا يعجبك الآن يا سعودي يا ابن مجيدة، أمك كانت تغمس قُرَص القرافة بالتراب هنا وأبوك كان يسير في الكوم بدون.. لا مؤاخذة، اللهم احفظنا، بدون ما نفسَّر، أنا من توسطت للبيه لكي تعمل عنده فلا تنسَ أصلك قبل أن أعيدك لقُرَص القرافة ومشي أبيك المهزَّأ.

– الـ.. العفو يا عم خليل، كل الحكاية أن..

– خلاص انتهينا، سآتي معك من غير صداع.

قام يستند على عصاه ثم جذب سعودي من قفاه هامسًا في أذنه سرًا بحنوٍ بالغ:

– ولد يا سعودي إياك تقول للبيه أنني قلت عنه مثل البغل.

– عيب يا عم خليل، أنت بتشتمني؟

– نعم.

– الله يسامحك، لكن عمومًا لا تقلق، سرك في بئر.

– الله يكرم أصلك يا أمير يا ابن الأمراء ومجيدة، واعتَبِر موضوع أبيك هذا كأن لم يكن، لن أحكي لأحد عن أسرار مراهقته.

ركب عم خليل سيارة من سيارات البيه عضو البرلمان التي يقودها سعودي، صوت عبد الباسط عبد الصمد واندماج عم خليل بهزّ رأسه معه، دائمًا ما كان يُقرّع سعودي على وجود تسجيلات طارق الشيخ وعبد الباسط حمودة، وينقش غضبه بيده على قفاه مطالبًا إياه بإبعاد النجاسة لأجل ربنا يبارك له، وحين ملَّ الشاب من التقريع بات يخفيها ويظهر

فقط تسجيلات المنشاوي وعبد الباسط عبد الصمد التي يحبها عم خليل، وتكون ليلته سوداء لو نسي إخفاء طارق أو عبد الباسط من طريق عين العجوز الذي يُطيّن معاشه لأنه يستغفله.

مكتب البيه في برج الصفا بشارع مصدَّق، وعم خليل لا يترك ذراع سعودي والشهادتين و"آمنت بك يا رب" من فمه طوال ركوبه المصعد، لم يعد يبهره الرخام ولا زروع المدخل ولا موكيت مكتب البيه ولا أُبَّهَة العاملين، حتى الطراوة المبخوخةُ من التكييف المركزي وعصير الفراولة لم يعد لهما البريق ذاته ولا "سبحانه في ملكه" الاستغرابية ذاتها، قال للبيه مرة أنه يشعر بالاختناق في هذا المكان النتن، ثم اعتذر أنه صريح والذي في قلبه على لسانه، فضحك البيه ثم وضع السجائر في درج مكتبه احترامًا للعجوز والمصلحة من خلفه.

– قل لي يا عم خليل، الدعاء أبرُّ بالميت أم البكاء؟

صمت الرجل وقد شعر أن في سؤال مخاطبه ما لا يريح ثم لملم نفسه وقال:

– والله يا بيه محروق الميت على أصحابه، راح في داهية وخلاص، يعني يشيّلنا الحزن دنيا وآخرة؟

أعاد النائب ضحكه بتخلٍّ بعض الشيء عن وقاره، ثم قام من مقعده يتمشَّى حول العجوز ويُفَسِّحُ كرشَه في الهواء ويقول:

– تعرف يا عم خليل.. فكرة أن كل منَّا بعد كل هذه الحياة المزدحمة بالنَيْل والفقد والحب والكره والفشل والنجاح والهتاف والحسرة والمتعة والذهاب والقعود والحقد والتسامح مصيره لن يتعدَّى فنجان قهوة سادة وثلاثة أيام عزاء ومُقرئ هي فكرة مرعبة بشكل بشع.. تعرف أن هذا الموضوع يضايقني جدًا؟

– سُنة الحياة يا بيه، خلقنا من التراب ولا بد راجعين له.

– سنة الحياة.. سنة الحياة.

قالها بمسرحيةٍ يفرك ذقنه ثم قال عائدًا إلى العجوز:

– هذه الجملة مُهلكة جدًا رغم أنها مريحة في الظاهر، مبرر قوي وحلو للفشل.

صمت الرجل مجددًا وقد انشغل بمسبحته يدفن فيها استغرابه، لم يكن يحب البيه ولم يكن يظهر ذلك، استطرد الأخير:

– قل لي يا عم خليل صحيح، أخبار الكوم؟ تنقصكم حاجة؟

لم يكن العجوز متابعًا لمواعيد الانتخابات، لكن السؤال يعني أنها على الأبواب، كان دائمًا ما يقول أن البيه مثل قعر مراحيض الكوم، استحالة تكون نظيفة إلا لو جاء ضيوف، وأهل الكوم هم ضيوف انتخاباته بطبيعة الحال، لكنه لم يطلب شيئًا قط رغم ذلك، بعض الوسائط معدودة على أصابع يدٍ واحدة لعيّل يتيم وفي حاله أو ما شابه، وكان البيه يعلم إجابة سؤاله المعتاد مسبقًا ب "مستورة فضل وعدل" لكنه لم يسقطه يومًا دلالةً على أنه ابن بلد ويعرف الأصول ويده على الدوام ممدودة.

– مستورة فضل وعدل، ماشي بكرمك يا بيه، لكن الكهرباء جننت الخَلق، النسوان أصبحن يُرِدن خَلَّاطًا لضرب القوطة بدلًا من استخدام اليد التي مثل حافر الجاموسة، البيوت كلها تأمرَكت، وهل كنا سنفلح أو نرى خيرًا والرجال ليل نهار أمام كراسي الدخان والمصارعة والأفلام والبلاء الأزرق وتاركين المَرة تتفرج على "الكيتشمّشيم" وتعمل فيها زوجة نائب العمرانية؟ حتى العيال يا بيه.. العيال كل كلامهم عن لاعبي كرة مثل الكارتون في الشاشة ويحركونهم بمعرفتهم، ويتناوشون عن بلادهم وأصلهم وفصلهم، العيال يتكلمون عن بلاد برَّا وهم طعم اللبن على لسانهم، القيامة قرَّبت يا بيه، اعطِنا ثلاث سنوات مثلًا ونكون كلنا في الآخرة، وربنا يفصل بيننا في كل هذا الحِزن الثقيل بمعرفته سبحانه وتعالى.

ابتسم البيه ثم قال:

– لم أفهم طلبك بعد يا عم خليل.

"لأنك بغل"

حدَّث بها العجوز نفسه ثم استطرد:

– نريد توصيل الكهرباء يا بيه، سرقة الوصلات قطعت نفس الخَلائق، كل يومين الكابل المسروق يمص دم عيِّل من العيال، حجرة الأستاذ سيد أصبحت في يوم وليلة فحمة مثل كعب ريِّسة، النار جعلته مشقفًا وبلون الجِلَّة الله يحفظك، كشك كهرباء صغير سيحل المسألة، وكل شيء يكون قانونيًا ونمنع سرقة وصلات من كابلات الحكومة، وبالنسبة لموضوع الخلَّاط ولعب العيال أنا قادر بعون الله أوقف كل واحد عند حده، لكن نمنع موت العيال وبعدها نمدِّهم على.. على أرجلهم، اسم الله على مقامك.

– عينينا يا عم خليل، أي طلبات أخرى؟

– بلا مؤاخذة يا بيه، لو وصَّلتم الماء مع الكهرباء، ولو حتى حنفيتين على باب الكوم، النسوان تطفح الدم في المشاوير لملء الجراكن من الطريق العمومي، وكل يومين أو ثلاثة سواق لوري بهيم يدهس عيل من العيال الشبطانين في أمهاتهم.

ابتسم البيه مجددًا وكأن "يدهس" لم ترد بسرد الرجل، ثم أشار بيده أن أكمِل قائلًا:

– لك طلبات أخرى يا عم خليل؟

تململ الرجل في جلسته مبتسمًا ابتسامةَ تودد يقول:

– لا مؤاخذة يا بيه، سمعت أنكم ستعطون الأهالي الذين في مدخل شارع نخل السجر شققًا مفروشة، بدلًا من البيوت التي ستهدمونها فوق رؤوسهم ورؤوس أهاليهم لأجل المشروع، وأنا كما تعرف بيتي قريب

منهم، صحيح هو أقرب لشارع القصر لكن كلك نظر يا بيه، أنا كما ترى رجل كبير في السن وصحتي على مقاسي، كنت أقول يعني لو.. يعني لو تعتبروني منهم، وتعطوني شقة معهم أقضي فيها اليومين الباقيين لي، لكن ضروري تكون دورًا أرضيًا لأنني لا أقدر على طلوع السلالم.

عاد البيه لابتسامته الهادئة قبل أن يجيب برأسه أن نعم قائلًا يشير له نحو الباب:

– حاضر يا عم خليل، طلباتك أوامر، نشوف هذا الموضوع، تقدر تتفضل لصلاة العصر.

فهم العجوز الإشارة فقام ينعته في رأسه بأنه ابن كلبة وضلالي ويستخسر فيه بجنيه عصير قبل أن ينتبه لسؤال البيه:

– الكوم فيه كَم واحد من غير رقم قومي تقريبًا يا عم خليل؟

***

زينب كانت نَيِّئة في نظر الرجال، وكانت هادئة مثل نوم العُمَّال وبسمات المُمتنِّين في كسوف، وكان قلبها مُطِلًّا على عثرةٍ تُهيِّجُ عليها الذباب وتعثِّرها في كل مرةٍ تخرج فيها للدنيا، تمامًا كحجرتها المُطلَّة على طرنش من طرنشات عطفة "أبو العيدان" جنوب الكوم.

– الحزن يطبخ المرأة، أكثري منه، لتصبحي صالحةً للزواج والخَلَف، وينصلح حالك.

قالت لها ريِّسة مرة، ردَّت مترددة:

– سَـ.. سَمعتُ النسوان عند عتبة أم سهام يقُلْنَ أن الحب.. أن الحب يمكنه أن يساعد في هذا الطبخ أيضًا.

– الحب من الحزن أيضًا.

ثم وبَّختها لأنها تستمع لعديمي التربية وطالبتها أن تتحشَّم. زينب تحكي عن كل بلل ماضيها، وتجففه أم جمال الثكلى بحديثها عن بلل

البحر الكبير الذي تمدَّد حتى ابتلع وحيدها، جمال، وكانت البنت تنسى كل شيءٍ حين يأتيها البحر –الذي لم تره– في نومها يجري، وقد صار له أنيابٌ تنهش جمال وأم جمالوهي، في الأخير زينب كانت النحيفة العدمانة، التي تعيش وحيدةً في حجرةٍ خشبية بجوار قبر المرحوم المجهول عتمان عبد القادر أبو تابت، الذي تتحدث إليه أحيانًا وتقرأ له الفاتحة لجلب الوَنَس، ولتفريغ بعض حمولتها من الحب الفائض فيها وينسكب على كل من يمرُّون بها، يُبَقِّعُهم، حتى لو لميتٍ لا تعرفه.

تزور ريّسة وأم جمال من حين لآخر بعد فراغها من مسح دَرَج برج الزهور وبرج الأمانة في الطالبية ومعمل "الصفا والمروة" للتحاليل الطبية وعيادة دكتور مأمون الجابري في برج الأطباء، وهروبها المعتاد من أجرة أتوبيس ٦١٩.

– صابرة كان مشيُها بطَّالًا، هربت من الكوم من عشر سنين لمَّا رائحتها فاحت، وكله من المخروب المحمول، يقولون كانت تُكلِّم صبيانًا على النت، حتى سحبتها المصيبة وأولاد الحرام في الوحل والجُرسَة، اتعظي منها بدلًا أن يسخطك ربنا، وخلِّي عندك نظر.

قالت ريّسَة لزينب بينما تخيط كَفنَيْن في بعضهما وتصنعُ ثوبَ زفاف، أم جمال تُغَمِّسُ لقمةَ لبن جميد أخيرة في الطبق بقيت من ثلاثتهن، بينما زينب تُلَقِّم أكوابًا ثلاثة بالسكر والشاي وتقول:

– الله يسامحك يا خالة ريّسة، كنتُ أحسبُ تفكيرك عني أحسن، خيَّبتِ عشمي فيكِ.

– الشيطان له سلطان على المحتاج، وله دلال على المحروم، أنا أوَعّيكِ.

– لكن شريفة كلامها يُطمئِن، شغَّالة في سنترال تحت برج الزهور،

البرج الذي أعمل فيه، قالت أنه كان فاتحة خير عليها، تكلم منه عماد، سوَّاق على خط المريوطية– أول فيصل، ووعدها أنه سيأتي البيت من بابه لمَّا ربنا يفرجها، شريفة جاء لها نصيبها من المحمول يا جماعة، لولا أنها لم تصُدُّ عماد لمَّا طلب رقمها بالخطأ، ومكالمة والثانية والثالثة، لم يكن يكتشف أنها هدية من ربنا كما يقول كل ساعة. يعني السعد كله جاء من مكالمة بالخطأ، تدابير ربنا.

لم تعلِّق ريسة ولا أم جمال، كأنهما لم تسمعا، فاستطردت زينب وهي تضع أمام كل منهما كوب الشاي خاصتها وتأخذ مكانًا على الكنبة الوحيدة قرب الباب:

– ثم أن شريفة قالت أنها ستعمل معي الواجب، المحمول المُستَعمَل بثلاثمائة جنيه، استعمال نظيف من زبون هي تعرفه، والخط مجانًا، و.. وستكمل واجبها وتجيب لي خطًا مميزًا يكثر عليه الطلب من الأرقام الخطأ، بل أنها ستتعمَّد أن تكتبه لأحد زبائنها أولاد الناس على ورقة لتسرِّع التوفيق بين رأسين في الحلال، ثلاثمائة جنيه كثير على الستر والنصيب يا عالم؟

قالت زينب تخبط بظهر كفَّيْها على فخذيها، فقالت ريِّسة المتوقفة عن حياكة الثوب الذي ضاعفت أجرته كما ضاعفت أجرة غيره بشكلٍ مفاجئ في الآونة الأخيرة. وتفرد كِسْوَة الكنبة التي تكوَّمَت تحت قعدتها وتقول:

– اسكتي يا حزينة يا بنت الحزين، ربنا يولِّع فيكِ، أو أقله تفرمك سيَّارة وأنتِ نازلة من المعمل، هو يرزقك ويسترك وأنتِ تعصينه وتستعجلين قَدَره؟ يا رحمتك بالعباد يا رب، شريفة ربنا سيشوي جثتها في نار جهنم مع المشركين الذين رموا على سيدنا النبي الطوب، وعماد سيُشوى معها في سيخ واحد، ابعدي عن الشر وغنِّي له، بلاها سكة بطَّالة، وأنتِ بنت غلبانة وعلى نيَّاتك، اسمعي كلام خالتك ريسة ربنا يكمِّلك بعقلك، الصبر طيب.

"النهار عِزوة، الليل رمى قل بهلَمَّا ربنا خلقه وكمِّل من غيره بصدر فاضٍ يملؤه بخوف المخاليق، عمرِك شُفْتِ خوف قلبِك بالليل مفتِّح عينه لمَّا النهار طلع؟ " أم جمال –التي باتت تسألها عن الحلوى مؤخرًا بشكلٍ مُلِحّ عكس السابق– قالتها ذات بعد عشاء لزينب التي صارحتها بخوفها من النوم وحيدة، حين حذرتها ريّسة من شريفة والهاتف الجوَّال في مساء الأربعاء الممطر، خافت، ثم تذكَّرَت كلمات أم جمال وذاب خوفها وصمت كبئر حين دبَّت روح الخميس في الشوارع وفيها وفي الطريق لبرج الزهور، ورأت في كل خلق الله حتى الكلاب التي تخاف منها "عِزوة". عزمت في ذلك اليوم أن تقطع عرقًا للخوف وتسيح دمه وألا يمر النهار إلا والمحمول في جيبها، راحت لشريفة قبل موعد عملها في عيادة مأمون الجابري بنصف ساعة وهي تُنَمِّقُ في خيالها ردودًا على المكالمات التي ستأتيها لاحقًا.

– معي مائة وعشرون جنيهًا، وكتاب الله كل الذي أحتكم عليه، لو تصبرين عليَّ في باقي الفلوس يكون جَمِيل لا أنساه يا شريفة، أنتِ تعرفين الحكاية وما فيها.

قالتها وهي تضم حقيبةَ ذراعها إلى صدرها وتمدُّ يدها بالمبلغ مزيجًا من ورقِ فئة العشرة جنيهاتٍ والخمسة والجنيه الواحد، رزمةٌ صغيرةٌ مُكَوَّرَةٌ على نفسها ومربوطةٌ بخيطٍ أبيض رفيع.

– لو كان ملكي كنتُ أعطيتهُ لكِ مجانًا يا زينب، أنتِ مثل أختي بالتمام وربنا العالم، لكن أنا موظفة هنا وعلى باب الله شغَّالة بمرتب ولستُ صاحبة مال.

تنهَّدَت زينب بيأسٍ خبطَ فرحَتَها برؤية الهاتف المحمول في يدِ شريفة وتخيل الآتي منه، سحبت يدها ببطءٍ من يرجو معجزةً تدفعه ألا يفعل، ثم أعطت ظهرها وهمَّت أن تغادر.

– انتظري يا زينب، لا يرضيني زعلك، عندي حل وربنا يستر، نمشِّيها تقسيط على شهرين، لكن السعر سيزيد.

– يا كريم يا رب، موافقة.. موافقة.

– مائة وثلاثون في كل أول شهر.

هبطت يد زينب على السطح الخشبي بينهما كأنهما شُدَّتا شدًّا وقالت:

– لكن الزيادة في السعر الكلي كثيرة عليَّ يا شريفة، ستون جنيهًا دفعة واحدة، أنت عارفة الحال والعيشة.

– كان بودِّي خدمتك أكثر يا زينب، لكن قلتُ لكِ، أنا بيَّاعة الحُمُّص، ولستُ صاحبة المولد.

قالتها وفتحت دُرجًا أمامها تضع فيه الجهاز فمنعتها زينب تقول:

– أمري لله، خذي.

أخذت زينب الهاتف المحمول وقلبها الجديد الذي فيه، أمعَنَت فيه النظر كأنه زائرٌ مؤقتٌ من الجنة وتريد أن تلحق حظَّها فيه بالنظرِ والمنالِ بما استطاعت إليه سبيلًا، مسحت شاشته بطرفِ كُمِّها ثم رفعت رأسها إلى شريفة تقول:

– يعني، يعني إن شاء الله نتائجه مضمونة يا شريفة؟

فغمزت الأخيرةُ بعينها وابتسامة، ولم تَزِدْ، وكان كافيًا.

قضت زينب يومها مع المحمول كأنها مع نسخةٍ جديدةٍ منها لها شاشةٌ وأزرار، كان ينقصها شحنٌ يوصل قلبَها بتيَّار الناس الذين ينتظرون شيئًا ما، لتمشي معهم وترغب. كأنها فوجئت أنها حية.

عدَّى بها يومها في التنقل المعتاد بين العيادة والمعمل ومسح سلالم العمارة، وزاد عليهم أنها عدَّت في أيامٍ من مستقبلها القريب وعادت منه، وعندما وبَّخَها عمرو بيه المحامي لأنها لا تراعي الله في مسح السلم، وأن الماء وصل لطرف بنطاله أثناء نزوله، وأنها ستقضي أيامًا سوداء في

الليمان بسبب فسادها، انهارت تُقبِّل حذاءه، وتمسح طرف البنطال بكم الجلباب، وتلعن في سرِّها شريفة والقسط والجوَّال وريِّسة، قبل أن يدفعها عنه ويكمل سيره، بينما هي تدكُّ باب عم سليم البوَّاب دكًّا طالبة منه أن يتوسَّط لها عند عمرو بيه.

– قال لي أيامًا سوداء في الليمان بسبب الفساد يا عم سليم، ما داهية إلا أن يكون الفساد هذا جناية يأخذون فيها إعدامًا ولن ينفعني مُحامٍ على قد حاله وعلى مقاس فلوسي للبراءة.. صحيح ما معنى فساد التي قالها يا عم سليم؟ جناية؟ طيب فيها حبس؟

***

الهانم لم ترَ القصة كاملة، لا أحد يعرف لماذا ادَّخرَت منها الجزء الأهم، لا أحد يعلم أن هناك جزءًا أهم على كل حال، أموال رفقي بك التي جُلُّها من أعمال المقاولات التي ازدهرت بثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، وما جاورها من أعمال مشبوهة ضاعفتها وفتحت لها وله الطريق، لم تسمن قلب ابنته الوحيدة ولم تُغنِهِ من محبة، فريدة ذات العِرق المغربي من أمها التي ماتت أثناء وضعها، ورأتها بصورٍ تجمعها بجدها عدنان التطواني شريك أبيها، وتملأ الصالون العثمانلي القادم رأسًا من اسطنبول شأن كل أساس القصر، رفقي ناصف أخبرها أنهم من أصل عثماني، وكم من مرة شغل أحد أفراد العائلة منصب الصدر الأعظم لمجد بلاط الباب العالي، قبل أن ينتهي كل شيء مع دولة أتاتورك، ويقرر من تبقى من نسل العائلة التفرق بين مصر والشام وأوروبا.

لمَّا قُتِلَ رفقي بك في قضية قُيِّدَت ضد مجهول، وكان قد زوَّج ابنته بفايز ابن عثمان القطَّان رجل مصانع النسيج الأول بمصر، لم تجد فريدة أيَ سلوى إلا في زوجها وحيد أبيه وشريك أبيها، سلوى مؤقتة سرعان ما تفحَّمَت حين أشعلَ فيها الأخير النار بزواجه من أخرى، بعد تيقنه

من أنها عاقر وأنه لن يستطيع مع ذلك صبرًا، الأمر الذي تطور لاحقًا لانفصال تام لم تنجُ منه إلا بشقةٍ ومصنعٍ صغير لمنتجات الألبان بعدما ساومها زوجها السابق على طريقة التجار فاختارت حريتها على الثروة، "اللي ما جا بالمحبة ما يجي بحزارة" .. كانت تحفظ الحكمة من مربيتها المغربية ابنة فاس، خادمة أمها، كما تحفظ عنها الكثير من طفولة أمها في كازابلانكا وتطوان وعواصم التجارة بالعالم لاحقًا، قد مضى على فريدة هانم وقتٌ طويل منذ هذه الأحداث، لم تحدِّث بها أحدًا بعد وفاة مربيتها خادمة أمها واستعانتها بعد ذلك برؤوفة على أعمال المنزل، واستعانتها بحياة.. على الحياة.

في الصباح التالي لليلةِ الكوم المطيرة، زارت الكوم بعدما رأت حياة بحلمها يحيطها فايز وشخصٌ لم تعرفه وخافت منه وعلمت بعد ذلك بسنوات وبعد انتهاء الحكاية أن اسمه عبُّودة، علمت أن الفتاة بها أذىً ما؛ فقررت المجيء بالحلوى وعصير التفاح ودمية العنزة والحب. من حسن حظها أنها أتت بعد انقضاء عراك بسيوني وصبري الكابتن بائع أنابيب الغاز، بعدما حاول الأول سرقة أنبوبة أثناء انشغال صاحب الكارو والأنابيب بتركيب أنبوبة سنية السباعي والتمعُّن فيما أظهرته منها، لأخذ الأنبوبة بالعزومة والمجان ويمين ثلاثًا بعدم أخذ فلوس، لولا تدخل عم خليل لأتمَّ صبري الأمر وأحرقَ بسيوني بولاعة الغاز خاصته، غير أن الأخير اعتذر وقال أنه لم ينتوِ السرقة، وأن الولية لحست مخ صبري وأحبَّ أن يداري غنيمته من لحمها باتهامه.

ألسنة النسوة على المصاطب أمام أشباه البيوت في شارع الباشا مَضَغن الهانم مضغًا، ولولا الحراسة التي جاءت معها لفكَّكَها الشباب إلى قِطَع غيار، ريّسة لوت شفتيها مستعيذة بالله من الخبث والخبائث، وزينب لم تُعلِّق واكتفت بحسدٍ يكفي لحرق الهانم حية لو أصاب، لماذا

لم تُفلح كل خلطات البشرة التي وصفها مجدي الدكتور لها بتفتيح وتلميع بشرتها ولو بجزءٍ من هذا؟ من المؤكد أنها ستخرب بيته، مجدي اعتقد نفسه طبيب جلدية وهو لم يكمل بعد الدبلوم الصناعي ولم يقضِ يومًا في فصل أو مدرَّج، ثلاثة أشهر تدريب بصيدلية دكتور محمد عماد في شارع الأجزخانة كانت كافية ليصف دواء نزلات الانفلونزا والإمساك وحموضة التخديعة وطعمية صبَّاحي الكبابجي، بالإضافة للمنشطات التي يلعق رجال الكوم التراب وراءها، ثم جاء حظ زينب "دكر" حين قرر أن يغزو مجال الجلدية والتجميل وتحضير الخلطات وكانت أول زبائنه.

الشيخ عبد المولى استعاذ بالله من عذاب أهل النار حين رأى ركبتَي الهانم لم تُستَرا، بينما عم خليل اكتفى بـ"النسوان تكبر عقلها يِوَنْوِنْ" في حين أن ريسة اكتفت بـ" ما جمَّع إلا لمَّا وفَّق" حين رأتها تطرق باب رؤوفة، قبل أن تستطرد تلوي شفتيها " شِيلي يا جهنم شِيلي، الله يكون في عونك".

العكاز رجلٌ انتظر كثيرًا، اعتلاه الطير المنتظرُ رزقَ يومٍ جافٍ أو سماءً أوسع للتحليق وحلمه، الرجلُ –العكاز– كان أكثر نبلًا من أن يتحرك أو يغادر أو يتركهم بلا برجٍ لمراقبة الحلم، انتظرهم طويلًا فطاروا و"اعتكز" هو، العكاز لم يُخلَق لكبار السن، هم فقط استغلوا الفرصة.

كانت تحب العكاز لهذا السبب، الحكاية التي حكتها مربيتها عن نشأة العكاز الذي كان في الأصل رجلًا وفيًا، استعانت به منذ أوائل ثلاثينياتها، مع قسمٍ أنها لن تكون مستغلةً وتستعين به في شيخوخةٍ قادمة، حين عادت من زيارة حياة لم تشعر قط أنها عادت كما ذهبت، شيءٌ ما سقط فيها أو منها، تقديسها للانتظار لم يكن بالنفوذ ذاته، الهانم فقدت شيئًا أو اكتسبت شيئًا، شيء ما أخذه منها كوم (أبو جامع) أو منحها إياه، لم تستطع تحديد ذلك بدقة، كل ما علمته أنها راغبة بشدة

في العودة إلى هناك، مع استعداد لسماع تعليقات النسوة وريسة والشيخ عبد المولى بشأن انتظار جهنم للحمها "المخلَّط أفرنجي" حسب قول أم جمال، أو أن الفضل في هذا كله يعود "للقرشينات" كما تؤكد زينب، كانت تشغلها فقط رغبة مفاجِئة في قول "ألف سلامة لست الحلوات" مجددًا لحياة، مع دمية إضافية واحتضانٍ يستمر أطول، يستمر كثيرًا، يستمر كثيرًا جدًا في حقيقة الأمر.

***

عليوة البنَّا رجل على قد حاله واحتياجه وحنينه لأيام السقَّالة، التي أسقطته يلتقط سواد عيشته من على مدخل بناية الباشا زوج ألفت هانم، رجلٌ محطوطٌ في ظرف حكومي لصْقَتُه تعبانة، فسقطَ من بريد العيشة في التراب، ودحرَجَه العَفَر والركلُ للكوم، جار عليه الزمن ولم تعجب أحدًا رقدتُه، هذا لا يمنع أن البعض يراها رقدةً مستحقَّة ودلالة على أن ربنا كبير، ريّسة تُجزم أن هذه الإعاقة التي أصابته هي انتقام الذي لا يغفل ولا ينام جزاءً لدونيته، القصعة الملأى بالمونة التي وقعت فوق ركبته من سقَّالة الدور الثاني بعدما بصقته واتزانه كانت اختبارًا من ربنا لعبده الصالح كما قال الشيخ عبد المولى، بينما في نظر عم خليل لم تكن إلا رسالةً من خالق الخلق أن يكفَّ عليوة عن سرقة قوت الغلابة من اليومية التي يتولى توزيعها على العُمَّال، وأن هذا أفضل له أن يُعاقَب في الدنيا بدلًا من سلخ جثته أمام أمة لا إله إلا الله يوم القيامة، في نهاية الأمر فقد أوصت الوحدة الصحية بضرورة أن يطلعوا به على قصر العيني، وهناك أخبرهم الطبيب الذي كشف عليه بعد أن حشروه وسط تكومات الخلق والنواح وانتظار الزيارة وإذن الطبيب بالخروج أو الدفن في العنبر الضخم أن إصابته لا علاج منها وأنه قدر الله، وأنه ربما يجد له حلًا في عيادته الخاصة. عليوة الآن مكتفٍ ببيع الأكفان على

مدخل شارع الباشا، بعدما اكتشف أن كشف الطبيب بالشيء الفلاني وأنه سيحتاج لواسطة لا تقل عن أمين شرطة بقسم مصر القديمة أو موظف أمن في مستشفى المبرَّة لتخفيض قيمة الكشف، بناقص جَميل، فضلًا عن أجرة التُمنايَة التي ستحمله إلى الطبيب "رايح جاي". بيع الأكفان أقل مشقةً من السير مجددًا.. هكذا قال.

والشهادة لله –كما يُجمع أغلب الأهالي– عليوة لم يكن ضلاليًا ولا رضعته نجسة كما قال عم خليل ذات بعد ظُهْرِية بعد شجارٍ كان عليوة طرفًا فيه، هو فقط مخه فَوّت بعض الشيء من طول اللف في بلاد الله، ثم القعدة وبيع الموت في الأكفان بعد بيع الحيوات في بناءاته، لكن داخله ناصع كالبفتة البيضاء تمامًا، وهو ما ظهر حين فضَّ العِراك بين صبَّاحي "الكبابجي" و صبري أنابيب بعد شجارِهما الغريب حول أحقية صبري في بعض المخلل الزيادة مبررًا لعم خليل لاحقًا.

– نفسي راحت له، وطول عمرنا نأخذه فوق البيعة.

– كان زمان وجَبَر أيام القثاء المحلولة عديمة الصاحب والحساب، ومن يحلم بتكرار هذه الأيام وشفط عرقي بالسُحت سأسوّيه على الجنبين، ولن أمانع في ذبحه، لأنه ليس مالًا حرامًا.

قالها صبَّاحي ثم التفت لعم خليل يقول:

– وخالق الخلق يا عم خليل صبري حَشَّ أكثر من نصف وعاء المخلل. بجح وعينه فارغة. لكن خلاص، قُدَّامكم كلكم، أي لقمة تخرج من المحل فلوسها تدخل جيبي قبل أن تشمَّ رائحتها حتى، ويا دار ما دخلك شر.

التساؤلات حول منطقية تعامل صبَّاحي مع ذلك بالتهديد بتشويهه بالزيت المغلي إن لم يدفع صبري ثمن المخلل المأخوذ كان مُلحًّا، وبدا

الأمر غريبًا للجميع الذين قضوا السنوات الفائتة في علاقة تسامح فريدة مع المخلل الخاص به، فضلًا عن تركه للصول كردي يحمل ما شاء وكيف شاء بلا مقابلٍ إلا مسحَ تراب الكوم بكرامته وكرامة سلالته.

يقول عليوة لربِّسة التي تُمَرِّغه في تراب الكوم أنها معذورة، لم تَرَه في شبابه، وأنه لو كان بصحته كان سيعرِّفها مركزها. لكن على كل حال عليوة البنا ما زال صالحًا لاستخدام الحياة، حتى ولو كانت تستخدمه استخدامًا غشيمًا لم تنظر فيه لكتالوج آدميته، ما زالت به بعض قدرة على البقاء تتمثل في تجهيز الفَرشة وصفع العيال على مؤخراتهم بالعصا الخرزانية حين يسخرون منه ويكلمونه بأنوفهم مثل عبُّودة.

لمَّا نصَحَته زينب بإقامة نصبة "سُخن" بروَّاد القرافة، وأنها تعرف تاجر جملة يمكنها أن تتوسط عنده على ضمانتها لشراء الشاي والينسون والسكر والكركَديه و"المسكوفيه" وما اتفق من أي شيء غريبٍ يشربه أولاد الذوات أو أولاد البلد بالتقسيط المريح، تدخَّلَ عم خليل المار إلى جوارهما وجوار همهما المفروش بينهما:

– مشورة غَبرة من بنت نصَّابة، زمن لا يعلم به إلا خالقه ولم يعد فيه حتى من يقسم خمسين جنيهًا على أقساط إلا لو بضاعة فاسدة والعفن آكلها، ويلبِّسها للخلق المغفلين والذين لن يسأل عليهم أحد لو راحوا في داهية، القطة لم تأكل عيالها بعد. وأنت يا عليوة، عمرك وصل خمسين وما زلتَ بغلًا، عيِّلة تعلَّمت النطق من يومين وتقول لكْ أي كلام وتصدقها؟

– الله يسامحك يا عم خليل، أنا كل مصلحتي من الموضوع مساعدة عم عليوة وربنا يعلم، واسطة خير ولن آخذ مليمًا في جيبي، تعدموني لو فعلتها.

قالت زينب ترفع سبَّابتها للسماء وتستغل الفرصة لضبط طرحتها،

فقال عليوة يدفع عنها ويخاطب العجوز :

– أنت لو متعلم يا عم خليل كنت فتحتَ شركة لتوقيف المراكب السائرة، يعني عاجبك بيع الأكفان وسفّ التراب وتغمسيه باللقمة لسد الجوع؟ ربك يبارك في السعي يا سيدي، خلِّك محضر خير .

– رغم أنك لم ترَ تربية في حياتك، وأبوك كان مشغولًا، لكن أنا سأراعي العِشرة وأكون أحسن منك.

قالها عم خليل وأخرج من سيَّالة جلبابه حافظتَه الجلدية التي ربما أكبر سنًّا من معظم الأهالي، أخرجَ منها مائة وسبعةً وثلاثين جنيهًا، هي كل ما تبقَّى من معاشه بعد قضاء حوائجه وحوائج قاصديه بالسلف، ثم ناول بهم يده لعليوة واستطرد:

– الشاطرة تغزل برجل حمار ، كفِّ نفسك بهذا المبلغ واشترِ بضاعة صابحة، اتقِّ الله في الناس بدلًا من أن تُسلخ في جهنم. لكن اعمل حسابك، هذا على سبيل الدَيْن، وسآخذهم من عين أمك لمَّا ربنا يفرجها.

ثم التفت إلى زينب يقول:

– وأنتِ شوفي أي مصيبة تعمليها، عسى ربنا يرزقك بابن الحلال يلمُّكِ من كلاب السكك، صحيح أنا متأكد أنه سيكون شبه مداسي، لكن أهو، بغل يلمِّك والسلام، بدلًا من حالتك التي تصعب على الكفَّار والمشركين والعيال المعارضة، لكن أقول لمَن؟ تسمعينني وترمين كل كلامي في التراب، على راحتك، أعملي كل بلوى تخطر على بالك ونفِّذي كل الذي في دماغك مثل البهيمة، اتفلي على قبري لو فلحتِ.

ثم مشى يكمل ذكره "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"

***

ومدكور الذي كان يحتكم على خميرة فلوس مُعتَبَرة من مصدر لا يعلمه أحد، ثلاثة آلاف جنيهًا ويزيد، لمَّا سمع حديث زينب وعليوة وعم خليل قرَّر أن يناله من الحب جانب، لو جاءت المصلحة من وراء البنا القعيد يبقى خيرًا وبركة، ولو لم تجيء يبقى يا دار ما دخلك شر، لن يخسر شيئًا وعليوة ابن بلد ولن يرد له خاطرَه، بالإضافة أنه فهم اللعبة وبإمكانه القيام بها وحده، لكنه ليس واطئًا ليخطف لقمة من خلق الله، والصراحة أنه لا صبر لديه على العمل والجلوس والمفاصلة مع فلان، والحساب مع فلان، والخناق مع كل أولاد الحرام الذين سيلمزونه في كل خطوة ونظرة وفصال، سيكون هو برأس المال وعليوة بالمجهود، هذه دراسة "جدول" كافية ومقنعة لعليوة ليتم المراد بإذن واحد أحد.

عليوة لم يعجبه الحال، جرى على حجرته وحمل بَستِلَّة مملوءةً كانت مُعدَّةً لاستحمامه الأسبوعي، ثم دلقها في التراب وسط الجمع فطَيَّنَهُ واحتشد رزازُ الطين في أطراف ملابس المتفرجين، يتفرج معهم. بينما دهسَت قدما أحدهم بطةً سارحة من بط أم أسماء الذي كان سائبًا، وجرَّاه ذعر دلْقِ الماء فجأةً وهياج التراب حوله والزعيق، في الدقيقةِ ذاتها التي خبطت الأقدامُ بعضها تبتعد عن الطين الطائر من التراب، ما شبَّطَ في الشجار شجارًا آخر سحب بزئيطه بعض الأعين، بينما عليوة يرمي نفسه في الطين ويتمرَّغ لدقائق انسربت فيها ثقوب ثوبه في الأرض وباتت هيئته كلها بلونٍ واحدٍ مطيَّن، يعمل مجنونًا.

– نمرّغ أنفسنا في الوحل ولا نعطي رقابنا لناقص، تريد أن تأخذ لباسي بالمرَّة؟ طيب، أهو.

قالها ثم خلع جلبابه وتمرَّغ عاريًا إلا من لباسه البفتة ذي الحبل، الذي يبقيه على مقاس وسطه ويستر نصفه الأسفل حتى ركبتيه.. قبل أن يخلعه هو الآخر ويلقي على مدكور بملابسه كلها مُغمَّسَةً في الطين

ويقف عاريًا.

–حلال عليك الوحل.

يلحقه أحمد زينهم بقميصه يلفُّه حول وسطه، فاستطرد:

– حسود وحقود وتارك صلاة ولو كان الإمام النبي محمد. يا أخي اتَّعظ من القبور حولك، تبصُّ للناس في لقمة عيشها وأنت تحتكم على فلوس تشترينا وتشتري أهالينا، أنت أبوك لقاكَ في عبِّ شيطان؟

قالها وهو ينفض منخاريه كوابور على سبيل الترهيب الزيادة.

– كنسَ به وبكرامة من جابوه الأرض، الاثنان يستأهلان الحرق، ربنا يضرب الظالمين بالظالمين. أحسن.

قالتها ريِّسة وهي تتابع من شرفتها، بينما يستطرد عليوة:

– قولوا الحق يا جماعة، قُلْ الحق يا صبري أنت والشيخ عبد المولى، أنا عمري بصِّيت لأحد في لقمته أو ضربته في ظهره؟ قُلْ الحق يا صبري، يا رب أبوك يزور النبي، ويا رب يقصم ظهرك ويعيِّشك بعاهة لو كذبت، أنا ظلمت حتى ولو زرزورة واقفة على قبر؟

ثم دون أن ينتظر إجابة التفتَ إلى جهةٍ أخرى على عكَّازه برشاقةٍ تعمَّدَ إظهارها لكسر أي نظرة استضعافٍ له:

– حُطْ في معلومك يا مدكور، تيجي ناحية لقمتي أدفنك مكانك، حتى لو أخذتُ إعدامًا بعدها ورحَّلوني على طره، أقلُّه أموت وسط البشوات والروائح النظيفة وأسيبك مدفونًا وسط الرمامة، آخذ حقي دنيا وآخرة.

انقسمَتْ نظرات الحضور بين إشفاقٍ على عليوة وإعجابٍ به، مدكور يُخافُ من سحره وشياطينه كما تُبجَّل كرامتُه:

– أصبحَ لك سعرٌ في سوق الحَنَكيين يا بنَّا الزرائب؟ عجبك حَنَكَك وشغله؟ طيب خلِّه ينفعك لو قدر، أنت تحسبني حيطة مائلة من التي كنتَ تبنيها ويدفن هددها الرجال والنسوان بعدها بأسبوع؟ أنا مدكور أبو

تربة تهددني بالدفن؟ كأنك تهدد جوعانًا بالأكل.

قال الجملةَ الأخيرة وهو يعنيها ثم تفرَّس بوجوه المحيطين وأولهم عليوة، واستطرد حين وجد أيادٍ مشبوكةً في بعضها قد فُكَّتْ، ووقفاتِ مشاهدةٍ مرتخية تحوَّلت لوقفاتٍ خوفٍ منتصبة.

– أنا أعرف كيف سأعرِّفك مقامك، أنت والذين يتشدَّدون لك، سأريكم أيامًا تندمون فيها على اليوم الذي توحَّمَت فيه أمهاتكم على التخديعة الزِفرة ورائحة القطط.

التخديعة الزِفرة لأنهم ناسٌ جوعانة عمرهم ما شافوها، والقطط لأنهم تربية مقالب الزبالة، هكذا كان يفسِّر للفراغِ حوله في جلساتِ المزاج الذي كان يحضرها وحدها.

كل الذين توهموا أنهم تشدَّدوا لعليوة ومنهم ريسة تراجعوا أمام التهديد، مدكور غريب الأطوار وقضى أيامًا كثيرة مع الأموات والجن وهو صاحب الحكاية والكرامة ومبيت القبور.

– أهل الكوم وأمواته من الخارج والداخل كلهم في جهنم الحمراء، شيء أكيد بدون فصال، أكيد رأى أشياء تشيِّب لما قعد وسطهم ولبسته العفاريت، ممكن يحرقنا كلنا بتَفْلة شيطاني، وأكيد شياطينه قالوا له من فرحَ فينا بقلة قيمته، ولن نفلت منه.

قالت ريّسة لنفسها بعدما انتصب ميلها على قاعدةِ النافذة فجأة بسبب ردّه.

– مدكور أمير وفي حاله، عليوة عيَّاب وضروري يشنقوه.

قالت للحضور بصوتٍ عال.

***

كرم فاتح بيومي الكسحجي في موضوع السُّلفة، الرجل المصنوع من الأرقام والشاشات السوني والتوشيبا التي تسحب عيون العيال والشباب

وما في جيوبهم، لم يجد أحدًا عليه عين الاعتبار في الكوم كله ويمكن الاستدانة منه غيره.

– لو فتح فوقك حكيم عيون سيكسب ذهبًا يا كرم، ربنا يكفينا شرك ويحرقك بجاز، قادر يا كريم.

كانت قولات عم خليل كلما لاقاه واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وتفل، ولمَّا لم يجد من بيومي ريقًا حلوٌ كلامه وتلقَّى فقط قراءة المعوذتين اللتين لا يعرفهما، واستعاذة من الحسد، وأن الناس لا تعرف شيئًا عن الحالة الكَرب، ومجاهرة بعد ذلك كله –تعمَّد بيومي أن يُسمعها للكوم أجمعه– أنه مديون وعليه كمبيالات وبيته سيخرب قريبًا، قرَّر أن يبحث عن مسلك آخر يتيح له توسيع محل الفيديو والأتاري، وإضافة قسم للبلياردو والبنج، وفئة روَّاد جديدة لا تستهويها الشاشات، وتستهويها تحديات من يشيل حساب الحجز وما فوقه من زجاجات الساقع التي لم يُفَوِّت كرم أن يكون لها وجود في التوسعة بثلاجة ومفتاح وعدة صناديق وكشكول ستين ورقة للحساب. تعصَّب في البداية على صبري أنابيب حين قال له أن يرجع لمكانه القديم بجوار المشروع.

– العيال عرفت مكانك، وأصبح لك اسمك، والمكان مغناطيس شغل، اللهم صلِّ على النبي، لن يضرَّكَ لو فتح قصادك فرع رئاسة جمهورية حتى.

– تريد أن تتفرَّج على نهايتي بقفا وقلة قيمة وجرِّ للبوكس قدام الخلق؟ لا يا سيدي، بلا نكد ونقضي أيامنا، ربنا يديمنا غلابة، أقضي عمري كله في البيت أخدم العيال وأمهم ولا أقضي ساعةً واحدة في التخشيبة.

– التخشيبة وقلة القيمة لتجَّار الممنوع يا عم كرم.

مالت شفتا كرم سخريةً يقول:

– يا رجل قلبك أبيض، الممنوع أوصافه تغيَّرت، انزل ميدان الجيزة،

جنبنا، وشُفْ البلدية تمسك مَن، والمحاضر معمولة لمَن، أم الساعات والحافظات الجلدية أصبحوا يشمُّونها وتجيب السطل؟ طيب أنت تفهم في الأخبار أحسن مني، واكلة دماغك وتصدِّعنا بها، سمعت عن القطن الذي منعوا زراعته؟ ناقص يحبسوا أبو قردان لأنه صديق الفلاح والغلابة، أو يُعَيِّنُونَه مخبرًا في الغيطان، أقله لن يكلفهم شيئًا، يراضونه بدودتين، همٌّ يضحِّك، خلِّنا في حالنا يا صبري الله لا يسيئك.

– ولو.. أنت تشتغل في الفارغ وأبو دماغ فاضية، اعذرني يعني، تُفرِّج العيال على المصارعة والأتاري والهلس، يعني لا عامل إشغال طريق ولا إشغال غيط ولا إشغال بطن من وراء الحكومة، أنت تشتغل في عز الطلب، الكيف الذي لا يمسكه عليك أحد. يا عم كرم أقول لك، اعتبر نفسك ساعة، أي والله، تعدِّي الوقت للشباب والعيال، طيب والله تكون عملت معهم الواجب، هم يطولون أحدًا يعدِّي بهم سنين الحزن الثقيل؟

– أنت شيطان يا ولد يا صبري، كبَّرتها في دماغي الله يحبَّر أيامك.

– أقطع ذراعي إذا لم يأتِكَ بهوات المشروع ويكونون زبائنك، وساعتها لن تلاحق على السعد، وسائط تخلِّيك ابن سفير خواجة، لا تنسنا ساعتها أهم شيء.

ورغم كون كلام صبري به من المنطقية ما به، لكن كرم كان قد أغلق الباب كله بحزمٍ شديد ألا يفتح معه هذه السيرة مجددًا، ولو عنده حل بعيدًا عن الميري يلحقه به، وصبري الذي كان يراقب المشروع كل ساعة ويرى تطوراته من بعيد استبد به القلق لأنه حتى الآن لم يجد مُدرَّجًا أُنشِئ، ولا عشبًا أخضر وشَبَكًا جيء بهما تمهيدًا لتصميم الملعب، ولا حتى شخصًا يُشرِف من بعيد يقال له كابتن أو كوتش، ولا لاعبًا نجمًا جاء لتصوره الكاميرات وتضع الإعلان على قناة النيل للرياضة قبل مباريات المنتخب ولوحات إعلانات الملك الصالح والمحور، ثم طمأن نفسه بأن

هذه الأشياء تأخذ وقتًا لأنه مشروع على كبير وليس مركز شباب، وأن كل ما عليه الآن أن يكمل تدريبه وحيدًا بالكرة الجُلَّة في الأرض الفضاء بعد شارع القصر والخرابة التي يقيمون فيها صلاة العيد وليلة القدر وأفراح الكوم وليالي حنته التي تتحنَّى فيها الصغيرة حياة أكثر من العروس.

قرر أن يساعد كرم ويسترزق من ورائه بمصلحة في الوقت ذاته، هو يطفح الدم ليطلع بخبر واحد عن المشروع وتطوره من العمال والصنايعية وعساكر التأمين، والكل يفتي على كيفه، لكن صداقة واحد له مركزه مثل الصول كردي ستجلب له الخبر اليقين ولو على مراحل بكل تأكيد، ناهيك عن الجميل الذي سيشيِّله لكرم ويتيح له لاحقًا زجاجة ساقع أو شريط مصارعة أو "جِيم" بلياردو في المحل الجديد دون حساب، فأشار عليه أن يفاتح الصول كردي في أمر تسهيل الدنيا له في العودة للمحل القديم، إلى جانب التوسط له عند بيومي في أمر السُلفة بشكلٍ ظاهره أن بيومي يعمل له وللحكومة خاطرًا، وباطنه أنه لا يملك رفضًا للميري ولسان الصول ويده الطائلة، وفي المقابل يكون للصول كردي من الحب جانبٌ يعتبره كرم فلوس تأمين وشغل براحة بال "تمرَّغْ في تراب الحكومة وحُطْ في بطنك كل بطيخ الصيف بعدها".

مناسب ويرضي جميع الأطراف التي يمكن لصبري الاستفادة منها، في ظل أن بيومي لا يهمه أمره كثيرًا.

***

ريِّسة لم تعد تضع الميير والإبر والخيوط في الطاقة المُرَبَّعَة الملطوطة في الحائط، منذ مدَّت يدها لتتناولهم منها في شغلانة، وكهرَبَها الجلد الناعم لثعبان صغير متكوِّم فيها، ركَّبَت تدويرة اسفنجية سميكة في كل سنٍ تجنُّبًا لوخزاتِ تناولها من مخابئها الجديدة في كيسٍ كبير داخل تجويف الكنبة الوحيدة عندها، فوق الهلاهيل التي لا تُلبَس، والكراكيب

التي لا وظيفة لها إلا تخبئة تحويش عمرها. عليها طوابير بالدور في الأعياد ودخول الشتاء وليالي الدخلة، المرأة الخمسينية الخيَّاطة التي يقصدها كل من أراد أن يُفرِح العيال بهدمة جديدة في المواسم، أو يستر ما كُشِفَ من جسدٍ بإمكانه أن يُطمّع فيه كل من هبَّ ودبّ، الجميع يعلم أنها تسرق من أكفان الموتى وتغسلها بالكلور والصابونة الحجر وتضيف الجاز إن كان الميت من أهل النار الذين تدعو الله أن ينتقم منهم بعدلِه، وأن ترها فوق الأرض وتحت الأرض، على يقينٍ أنها فقط النقي الذي يستحق الجنة هنا وأن هذه المقابر مليئة بنُسَخِ الثعبان الأقرع الذي لا يمنعه عن الفتك بأهل الكوم الأحياء إلا كراماتها بينهم، الجاز يغسل الذنوب واللعنات التي علقت بالكفن أثناء التصاقه بالجسد النجس ابن الأنجاس، تؤمن بذلك إيمانها بوجودها.

تضيف الألوان الاصطناعية التي لا يعلم أحد من أين تجلبها بما يليق بالمناسبة وصاحب الثوب، ثم بعض الزركشات على الأكمام والصدر والذيل إن كانت امرأة، وتقلل منها إن كانت بكرًا أو عيّلة لم تطلع من البيضة بعد وتحب أن تفرح دون أن تستحي، الرجال لا يُضافُ لقمصانهم وجلابيبهم شيء باستثناء بعض اللمّيع لعبُّودة، لكي يعجب النسوان، تحصل على عشرة جنيهات في القطعة تُقبّلهم وتلصقهم بجبهتها ثلاث مرات ثم تقول رضا وتتركّع.

– الأموات لا يشعرون بالبرد ولا الحر، إنهم في جهنم الحمراء، الدور والباقي علينا.

حكمتها الوحيدة التي ترددها دومًا على مسمع من عم خليل والشيخ عبد المولى الخيَّال –الذي تقسم أنه يقضي الفترة بين العشاء والفجر في بيت سنيّة السباعي– حتى لو لم يجمعها معهما حديث، هذا يشعرها براحةٍ أكبر لأنها تثبت حلال ما تفعل أمام رمزَيْ "قال

الله وقال الرسول" في الكوم.

رغم كل هذا الانشغال فهي لا تنشغل أبدًا عن أمر زينب، التي تراها ابنةً لها وهي التي لم يشأ القدر لها زواجًا ولا خلفًا.

– العقربة تأكل بعقل البنت حلاوة، والشملولة فالحة فقط تقول آمين، عيِّلة زيَّاطة تعرق في السكة الفارغة.

قالتها لأم جمال عن شريفة وزينب، حين خانت الأخيرةَ الذاكرةُ ونسيت أن تكتم صوت الهاتف قبل دخول الكوم كان حظها أن الرنة الأولى كانت بحجر ريِّسة. استطردت:

– لم تضع بعينها حصوة ملح حتى وتستحي على دمها وتداري مصائبها، تتحدَّاني المفعوصة، وأنا ما لي؟ إن شاء الله تتحرق مثل القوالح في ولعة الشاي، داهية تسمِّها.

– سيبيها تفرح وتعيش يومين يا ريسة، أيامهم أيام غبرة والدنيا باركة فوق قلوبهم، نبقى مع الزمن والعيشة عليهم؟ مسيرها تعقل.

– أنا قلتُ لها اطلعي الجبل وتَرَهْبَني وعيشي هناك؟ تعيش على مزاجها، لكن كله بالأصول، يا ولية الدنيا تغيَّرت عن زمان، كل واحد همُّه نفسه حتى لو ولَّع في باقي خلق الله، اسمعي راديو الأستاذ سيد، أو اسمعي الولد خالد العسقلاني وهو يقرأ البلاوي في صفحة الحوادث في الجريدة لخليل، ربنا ينجينا، دنيا ثانية غير الدنيا، والبنت شريفة أنا أعرفها، حَيَّة سكتها كلها شر، آخرة المتمَّة البنت الغلبانة هي التي ستبكي بدل الدموع دمًا وتبكينا معها وعليها.

– اذكري الله يا ريسة، القلق والعصبية على السن الكبيرة يقصف عمرها.

– قصفوا عمرك يا بعيدة، تكلَّمي عن نفسك، أنا في عزِّي وعزِّ صحتي، قبر يلمّك معها.

كتمت أم جمال ضحكتها، بينما استطردت ريِّسة تضرب فخذيها قبل أن تنظر من شباكها نحو شبَّاك زينب الذي لم يُغلَق نوره بعد عكس العادة.

– إذا لم تلمِّي جثتك الناس عليها في جهنم الحمراء من الصريخ يا زينب، اتفلي على قبري.

***

– طول عمره غسيلي يشرب من كُمِّه اليمام يا ست هانم، كانوا يسمونني في البلد الأوتوماتو، على اسم الغسالة التي تشتغل بالكهرباء وتغسل بنفسها من غير فرك وهرك اسم الله على مقامك.

قالت رؤوفة للهانم التي تُجلِس حياة فوق فخذها، وتمشط شعرها، بينما تأكل البنت كرات الشوكولاتة الباردة التي أعطتها لها قبل قليل.

– تسلم يدك يا أم حياة.

ردَّت الهانم تنظر مجاملةً لمناديل السفرة التي غسلتها رؤوفة وتريها النتيجة بشغفٍ مبالغٍ فيه تداري به مسبقًا وبأمانتها الظاهرة فيه أي نقصٍ قد تلاحظه الهانم في البيض والجبن الأبيض الذي بدأت تقتطع منه مؤخرًا بكمياتٍ لا تُلحَظ.

– قولي لي يا رؤوفة، من سمَّى حياة بهذا الاسم؟

ابتسمت المرأة وضمَّت الكوب الذي كان بيدها لصدرها بتلقائيةٍ تقول:

– أبوها يا ست هانم، الله يرحمه.

ثم ضحكت واستطردت:

– على اسم أمه.

– واضح من ضحكتك أن الاسم له حكاية.

– الهانم كلها نظر، أبو حماتي الله يرحمه ويرحمها كان متعلمًا، شيخًا في الأزهر، ولمَّا سمَّاها حياة قالوا عنه في البلد أن الأزهر نزّل نسخًا

جديدة من المشايخ، مشايخ انجليز .

ضحكت الهانم فاستطردت رؤوفة:

– أمه كانت تقول "موتة تأخذها" أي حياة في البنات؟ ستروح للغريب تخدمه لما يجيء أوان نصيبها وخيرها كله رائح لغيرك، بلا وكسة، شُفْ لك زوجة تجيب لك الولد.

سكتت ثوانٍ تتنهَّد ثم استطردت:

– الله يرحمهم كانوا ناسًا طيبين ويعرفون ربنا، لكن بهائم.

علا ضحكُ الهانم من تلقائية المرأة التي ابتسمت انتشاءً لأنها أضحكت وليةَ نعمتها ولو كان دون قصد، فقالت السيدة:

– حياة عمرها كم يا رؤوفة؟

تلعثمت المرأة تنظر للأعلى بضيق عينين لا يعلم أحدٌ إن كانت تطلب وحيًا أم تتذكر بحادثةٍ ما صادفت الميلاد.

– ست سنين تقريبًا يا ست هانم.

– تقريبًا؟ لا تعلمين عمر ابنتك الوحيدة؟ هي في أي مدرسة؟

– مدرسة؟ أي مدرسة يا هانم؟ المدارس مصاريفها تقصم الظهر، الشيخ عبد المولى يعلمها الكتابة والقراءة وجزء عم مع بقية العيال، تفك الخط ورضا.

احتضنت الهانم حياة بشكل مفاجئ استغربته البنت وأمها قبل أن تقوم لرؤوفة والشرر يتطاير من عينيها قائلة:

– بنت مثل الوردة حرام عليكِ تدفنينها بالحياة، اتقي الله.. غدًا تحضرين لي كل أوراقها من شهادة ميلاد وغيره، سأُقدِّم لها بنفسي في مدرسة لغات أعرفها وأعرف أصحابها.

– لكن يا ست هانم..

– لا لكن ولا يحزنون، كلامي نهائي.

صمت الجميع بينما لمعة عينَي حياة بذرت في ثغر الهانم وقلبها شيئًا من حبٍ سريعِ الري والإنبات، احتضنتها الهانم قبل أن تطلب رؤوفةَ لحديث منفردٍ لبَّته الأرملة ناظرةً بهلعٍ لابنتها وللثلاجة ناقصة الجبن والبيض.

– امسكي يا رؤوفة.

قالتها الهانم تعطيها حقيبةً بحجم نصف "حياة" فنظرت المرأة مستغربةً حتى أتتها جملة الهانم:

– نصف مليون جنيه.

ضربت المرأة صدرها مصعوقة، بينما "يا حزني ومنيِّل" تضرب أذن الهانم التي أمسكت يديها بعنفٍ ناظرةً مباشرةً في عينيها تقول:

– أنا سأتبنَّى حياة.

***

عبُّودة كبرت في دماغه قراءة الفاتحة على سنية السباعي، خير البر عاجله كما قال غانم، ولن يلاحظ أحد أنه لا يحفظ الفاتحة لأن الجميع يقرأها في السر، يكفيه أن يقول آمين بالنهاية بصوت مسموع وربك ستَّار ورب قلوب، وهو ذو كفين عريضتين ستخفيان فمه وتمتمته بالكامل، خصوصًا لو أغمض عينيه في خشوع مثل الشيخ عوض السني، كل هذه أمور يمكن تجاوزها شأنها شأن سمعة سنية في الكوم وخارجه، وفارق السن بينهما وما سيترتب على هذا من لمزات رؤوفة التي ستسمُّ بدنه كل ساعة، وتكلفة الفرح على من فيهما، وأشياء كثيرة أخرى سيفرجها ربنا، بقيت مشكلة واحدة فقط، هي علم سنية السباعي بكل هذا أصلًا وطلب يدها على سنة الله ورسوله ومن ثم يُكتَب الكتاب ويعلو بعون الله الجواب. ليس خوفًا طبيعيًا دافعه شهامة أولاد البلد كما

قال الشيخ عبد المولى حين طلب منه المشورة على اعتبار أنها مشورة مبروكة من أهل الله، ولا هي وكسة كوكسة أمه حين أنجبته كما قال عم خليل، تردده بشأن مفاتحة سنية في الأمر كان أبعد من ذلك، "تطول وزيادة" كان رد عقله الباطن حين سأله غانم بعد سحبة نفس غشيمة و قَوْلَة استنكار "هي تطول؟".

عبُّودة معجون بتراب العالم السفلي الحِرِك من القاهرة، ومغسول بماء مواسيرها المكسورة على مرأى السماء ومسمع العالم. رجل المنطقة وعميد مزجانجية مصر كما يحب أن يسمي نفسه، يعرف أي حدوتة من طقطق لسلامه عليكم، ويفهمها وهي طائرة، بل قبل أن تطير، لن تخدعه مظاهر قد تهلكه وهو الذي فهم سابقًا ملعوب طارق بيه نقيب قسم الوايلي، الذي أراد أن يُشيِّله قضية تجارة في حِرز الحشيش في قعدة المزاج بكشك بطرس المسيحي أو بطرس ساويرس كما ينادونه، لكن ربنا ستر والموضوع خلص تعاطي، قدَّر ولطف.

هو على كل حال لن ينخدع في ضحكة سنية السباعي له، وإن كان قد سوَّد أيام غانم لأنه حذَّره من هذا، سنية امرأة طابَت في جهنم، لم يُسَوِّها الزمن على نار هادئة وسيخ شواء أسفله حطب النظرة والفِعلَة، ويلتقط الرجال الجوعى حول النار مما ينضج من لحمها على مراحل كبقية النساء، إنها امرأة تسمن في كل مرة تؤكل فيها، وتنضج دون احتراق في كل مرة يُدارُ بها ومعها السيخ، سنية السباعي آكلة آكليها والمرأة التي تنضج النار تحتها لن تكون لقمةً سهلةً لعبُّودة، حتى لو صنعته القاهرة ذاتها من نفسها المفتَّحة كالذئاب وجزءها البليد كالسم قبل ولوج الفم وبدء المهمة.. لكن لم يعدْ هناك مفر، إنه الآن رجلٌ راغب، وكل راغبٍ لا بد له من دهس، إما أن يفعله أو يُفعَلَ به.

***

– فات شهران على زيارة البيه ولم يجدْ جديد، النقل كل يومين يفرم لحم العيال الذين يتشعبطون في ذيول أمهاتهم الذاهبات لملء الجراكن من صنبور نزلة الصعيدي، عدد الأطفال الميتين زاد كأنهم حَبْ تخطفه الزرازير، والعيال يُصِرُّون على الخروج مع أمهاتهم ورؤية الدنيا خارج الكوم أكثر من الأول بشكلٍ عجيب، كأنهم داسوا في لعنة وعوَّرتهم وجَرَت في عروقهم، آخرة الجيل الراضع صناعيًا، يحبون الموت ولا يتعظون منه، الولد تقول له ستموت؛ يرد يقول لك المهم أشوف الشارع والدنيا ونور ربنا، عيال لا بد تسيح في نار الآخرة مثل أهاليهم.

قال عم خليل فوق مصطبته للأستاذ سيد بينما يصبُّ لهما خالد العسقلاني شايًا ويشاركهما الجلسة، ثم استطرد كأنه تذكر منسيًا:

– البيه مخه غليظ مثل فخذه، الحكومة لا بد تختار رجالها ملء هدومهم وليس ملء هدومنا، سيفهم المشكلة فقط لو سائق بهيم عفي دهس سيارته "المرشيدس" وهو فيها وخلَّى لحمه يأخذ عظمه بالحضن، وبالمرة دهس معهما الولد سعودي، سيعرف ساعتها أن الله حق وأن دم الخَلَق الذين يعطونه أصواتهم في أكياس السكر ليس عصير فراولة من الذي يطفحه ويُطفِّحه لضيوفه.. ما داهية إلا أن يكون قد اعتبره هكذا فعلًا.

– الحمد لله، أخيرًا فهمت أي شيء مفيد يا عم خليل.

قالها الأستاذ سيد يغمز لخالد فردَّ العجوز يضربه بعصاه:

– أنا أفهم أحسن من سلالتك، خلِّك عايش دورَ وزير المعارف وأنت أصلك بغل.

ثم استطرد وهو يميل على سيد بينما جليساه يضحكان:

– لكن الحق يُقَال.. البيه قال لي –كلام في سرك يعني– أنه يفعل كل ما بوسعه لأبناء الدائرة الذين هو منهم.

– أول مرة أتفق معك يا عم خليل، البيه ابن دائرة قطعًا، لا بد أن يكون ابن دائرة، ابن دائرة مُعتَبَر .. هو يفعل كل ما بوسعه لكن المنع يأتي من فوق، أنا عارف، الحكومة عندها هم يكفي العالمين ولا أحد يحس على دمه، الكل ينظر فقط للسيارات والمكاتب والتكييفات والملابس والساعات الذهبية وبنات السكرتارية والدوشة اللمَّاعة، ولا يعلمون ما وراء ذلك من جهد لأجل كل أبناء الدوائر في الجمهورية، الحكومة كلها منا وعلينا، من طينتنا، كلهم أبناء دوائر، عارف عارف.

– تسخر مني يا سيد؟ طيب، متشكرين يا محترم.

ثم سكت ثانيتين وقال عندما لم يرد الأخير متعمدًا:

– قل لي يا سيد، هل كل بلدكم لم ترَ ساعةَ تربية وتستأهل الحرق مثلك؟

انفجر الشابان ضاحكَيْن قبل أن يقول أستاذ سيد بجدية مفاجئة:

–أنا أقول لك يا عم خليل ملخص الحكاية، البيه يريدك أن تصبر حتى يأتي دور الكوم وأبنائه في الموت الطبيعي البعيد عن فرم اللحم تحت عجل النقل وغشم السائقين، الحكومة بالتأكيد وممثلها البيه لم ينسوا وضعنا في القائمة، الرجل يُشْكَر، سيوفر لنا ميتةً هنيئة، ولكن كل شيء بأوانه واستعجال ساعة يخرب سنة، والدنيا لن تطير، حتى لو أرواح العيال طارت، وأرواحهم هي دنيا أهاليهم الوحيدة، لكن دنيا البيه والحكومة كما هي، إذن المثل ماشي صح، الدنيا لن تطير.

– لا فائدة، أكلم جاموسة، يا ابني خلِّ عندك رحمة، البلد فيها مشاغل تسد عين الشمس، مشاريع وحروب ودنيا بحالها، وعساكر تموت مثل الورد، الحكومة لن تترك كل هذا وتلتفت لصنبور وكشك كهرباء.

–ولماذا يجب أن نختار بين مَوْتَيْن يا ناس؟

–هات باثنين جنيه فلسفة.

قالها العجوز يمد يديه له ويضحك ثم يقبضها ويقول:

–منكم لله، شِلَّة عواطلية أولاد هرمة، تريدون جنازة لتشبعوا فيها لطمًا.

–نحن من نجعل الحقيقة قاسية، والكذب مريحًا، والصوت العالي بطولة، والخوف تقدير ربنا، والرئاسة فرع ألوهية "أرضي". هنا أساس البلوى، نحن. مشكلة السفن أن حمولات الأوباش والبهائم دائمًا أكبر من حمولات الفهِّيمة الذين يكتفون بحقائب يد صغيرة لأغراضهم، المصيبة أن هذه الحمولة الزائدة تهلك الكل، حاول أن تسافر في هذه الحياة وهذا البلد خصيصًا بحمولة خفيفة من الغباوة يا عم خليل.. نحن فينا ما يكفينا من الهم وأكتافنا لا تنقصها حمولات غباوة.

صمت يرشفُ رشفةً من شايه ثم وضعَ الكوب الفارغ على المصطبة وقام يقول:

–هات خمسين جنيهًا لأول الشهر.

قالها فتفل عم خليل ثم علا صوت تسبيحه ودعوته الكيَّادة للحكومة، قرَّر ألا يُفاتح البيه –الله يكون في عونه– مجددًا في أمر الصنبور والكشك، ريثما تنتهي الدولة من حربها ومؤامراتها، أعطاه الفلوس، وكل حي راح لحاله.

***

عليوة سهل الاسترضاء، يسهل احتواؤه بعدة جنيهات أو سيجارة أو شقة طعمية و "ولاش" باذنجان، هدأت ثورته تمامًا بعدما أعطاه مدكور عشرين جنيهًا خارج تكلفة البضاعة كفتح رزق وبشرى خير، ولمَّا رمى له سيجارة اصطباحة في اليوم الأول لعمل الفرشة أصبح لا يناديه إلا بالمعلِّم مدكور، ثم سرعان ما تخفَّفَت للمعلم فقط وحذف ما بعدها للعلم به، هو على كل حال صاحب حياة مكتوبة بخط واضح، عريض، حياة مكتوبة بأسلوب صحفي تسهل قراءته وتفسيره ولا تحمل في سطورها

كنايةً عن شيء ولا استعارة لشيء ولا مجازًا حول شيء، كل تعقيدات حياته مفكوكة بكلمة طيبة ولقمة، ولما فهم مدكور اللعبة وأضاف لها بعضًا من حكايات حول الجن والأرواح والحساب في المقبرة، وبعضًا من خصوصية محبة يحملها لعليوة دفعته لسرد كل تلك الأسرار فضلًا عن شراكته، باتت فرشة السخن في حوزته تمامًا، يكفيه فقط أن يأتيه عليوة بالإيراد يوميًا دون أن يخفي منه شيئًا –لأنه لا يقدر بفعل الجن الذي سيكشف كل خبيئة ويسوِّد معاشه لو حاول التلاعب– فيعطيه مدكور الربع الذي يكفيه وابنتيه خبزًا وجبنًا وفولًا وما تيسَّر من عدس، على أن يمنحه كل خميس زيادة تكفي لوجبة مرق هياكل الدجاج ترمُّ عظامه.. وهو ما قدَّره عليوة وقدَّرتهُ رغبته وآماله حق التقدير.

***

حياة كانت أول من أحسَّ بالبلوى، وبالبيوت التي بَرَكَت فوق طبيخ الخميس، ومعسِّل السهرة المحفوظ في أركان الغُرف وداخل الكَنَب البلدي، وقيلولات الظهيرة في الطراوة في رِيح أبواب المطارح، وما هاج من الطيور قبل الهزة بلحظات ومنعته الأقفاص من الهرب لفراغ الشارع والنجدة. عنزتها وما أحدثته من ضجةٍ شاركت نباحًا ومواءً وهياجًا حيوانيًا جعل عم خليل يرمي أقرب الكلاب إليه بمداسه وما تلاه من حجرٍ وقع تحته في منذرات الزلزال، كانت مؤشراتٍ لم ينتبه لها أحدٌ إلا حين سابَت رُكَب البيوت ودَرْقَعَتْ مفاصل الدكاكين وانهارت المطارح على ما فيها ومن فيها، العفرة التي جعلتها قيامةً وحسابًا ومرسالَ جهنم، وسحبةُ الطوب اللبِن والأسقف المُعرَّشة وأبواب الخشب والصفيح للأسفل حيث الترابِ والموت، ساحبةً معها قلوب من شاهدَ في دخلة شارع القصر وساحة التُرَب، الصراخ والـ"يا لهوي" والنداءاتِ كلٌ على من يخصُّه من عيالٍ تشاهد، وكل منطوقٍ فَزِعٍ شق سماء مصر القديمة، وإحجام كل

من شاهد الانهيار عن الاقتراب من موقع الحدث ريثما ينهي الزلزال عمله حتى لا يُدفَنوا مع من دُفِن وسيُنسى بعد صلاة الجنازة والدفنة وأيام العزاء والقهوة السادة وقرآن الراديو وال"لا حول ولا قوة إلا بالله" وخبر النشرة وحزن السيد المحافظ إن فعل. فراغ البيوت التي لم تطلها الهزة من أهلها وتجمعهم في مكانٍ لا يطاله هددٌ ولا أجلٌ مُسمَّى بالتهلكة بعدما جمعوا ما يمكن جمعه من هلاهيل تُلبَس، أو بقايا طيورٍ تبيض وتؤكلُ في المواسم، أو الجوزات والمعسل وعِدد الكِيف، أو كل ما تيسَّر حمله من أكوابٍ وأوانٍ وأطباقٍ وصابون غسيل، التجمع في ساحة التُرب للعيال والنساء ومن لم يجرؤ من الرجال على الاقتراب من الجانب الشمالي من الكوم حيث الأنقاض والجثث والمصيبة، حتى بعد انقضاء الأمر والتأكد من عدم وجود شيءٍ آخر قائمًا ليُهدَم، وحتى من أحجم منهم في هذه المرحلة الأخيرة حرَّكه التهامس السائر بأن الأنقاض والموتى يخفون تحتهم ما يمكن نهبه خفيةً في الزحام من جنيهاتٍ في تحويشِ عمرٍ أو راديو لم يقع فوقه حجرٌ يقسمه نصفين أو سبرتاية أو وابور أو جوزة أو بطانية انجليزي جاءت من حجٍ أو عمرة أو سفرٍ للعراق أيام العز، الكل ساهم في النهبِ الخفي أول الأمر ثم لم يخجل أحدٌ من الجهر حين وجد الجميع يفعلون ويتسابقون ومن يخفي أمره لن ينال شيئًا لأنه لا يبحث بذمة، العركة التي نشبت بين صبري أنابيب وعليوة البنا في نزاعهم حول أحقية الحصول على طبلية جمعة العجلاتي "الله يرحمه" كانت أبرز العراكات حول أشياء تماثلها، ذلك أن عليوة سبَّ الدين لصبري الذي أخذته الكرامة وفلق رأسه بحجرٍ من الهدد، قبل أن ينتهي الأمر بغرزتين عند مجدي الدكتور وتغيير على الجرح دفع ثمنهم صبري مقابل حصوله على الغنيمة والعودة لساحة التُرَب مع العائدين الشيَّالين من خيرات الزلزال، الجثث لها حكومة تشيلها والأهالي آخرهم هو أن يقرأوا عليهم

الفاتحة ويشربون السادة ويقولون البقاء لله وحده، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.. لكن ساعة النَيْل لن ترجع لمُغفلٍ فوَّت الفرصة.

الخلق الثاني

"الحاكم الأشرس بلا عسكر حوله، والقاضي الأظلم بلا منصة إعدامٍ عن يساره، والصبَّار الوحيد الذي ينبت في عضلةٍ لا رمل"

هات لقمة يا بيه بلوى تشيلك
اشْرَبْ أيامنا وهات شَفْطَـــــة
طب نَظرة كجـــاز لترومبيلك
أو حتى دواير في اليافطـــــة

ليس مفهومًا إن كان ظُرف القهوة في طلبها، أم انتظارها، أم تقديمها، أم رشفتها الأولى، أم هزة الفنجان بأيدينا مع رشفتها الأخيرة، عِيشَة كوم (أبو جامع) كانت قهوة العالم، والعالم شاربٌ ذو مزاج مكَّار وشاذ، لا أحد مِن مَن بقي من رواة القصة يدري إن كانت لذَّته أكثر ببعث الكوم أم بموته أم بصراعه مع نفسه والحياة والحكومة والمشروع بين هذا وذاك، هم على كل حال قد تعاملوا مع الرغبة بشكلٍ لا أظنني رأيته قبل الآن في حيواتي السابقة التي لا أذكر منها شيئًا، لقد داسوها وداسوا أنفسهم فيها بطريقة سادية تُرعب، لم يخطر ببالي إطلاقًا أن الرغبة التي قادت لعروشٍ وقبورٍ وحبٍ وسلطة وتاريخٍ مذكورٍ ومنسيٍ وثورةٍ ومذابح وبعثٍ جديد قد سخروها فقط لطلب لقمة إضافية أو حفنة مال أو نظرة عري أو دخان مزاج أو بغية تناسل أو إرضاء شهوة السلطة بالإهانة والتحرش أو شراء طفلةٍ بالمال أو سكنٍ مرميٍ من الدولة ولو كان على حساب مستحِق أو قرضٍ يدفع به فاتورة كهرباء يطلبه بتبجحٍ أكبر، حتى من حلم منهم براحة الآخرين أوقفته أكاذيب الحكومة التي هي الخصم الذي سحقهم ووضعْتُ فيهم الرغبة لأجل صراعه واستعادة حيواتهم الحبيسة عنده، لقد رغب أحدهم بجنيهات لقاء بيع دواءٍ بلا صلاحية ويقتل، لقد رغبت واحدةٌ منهم بالموت وسرق البقية أغراض الميتين حواليهم وحول الحاجيات ولم يمسحوا التراب عن جثث من سرقوهم حتى.. هذا مخيف.

– داخلهم ليس أسودًا كراغبي السلطة والحرب والاستعمار وراسمي الحدود، ولا ناصعًا كراغبي الثورة والجهاد والإطعام والسلام وخير الشعوب، إنهم أناسٌ بلا لون، لم أَرَهُمْ قط طوال مشواري مع أبناء آدم حتى جسَّدتني أنت، كل قنوات سيري المعتادة نحو القلب والعقل كانت مغلقة لديهم، لم يكن ممهدًا لي فيهم غير قنوات المِعْدَة والعين والتناسل، وكلما حاولتُ فتح طرقاتي المعتادة قاومني شيءٌ فيهم، حتى هربت منه أخيرًا قبل قتلي للأبد وحلول كارثة بمستقبل الكون، ورغم كوني مغادرتُهم أكبر بمئات السنوات، لكنني مازلتُ حيةً على الأقل.

– أي شيءٍ هذا؟

– الخوف.. هؤلاء قومٌ خوَّافون، لا شيء يذبح الرغبة ويُذلُّ كبرياءها ويقوِّضها في لقمةٍ ونظرةٍ وحزمةِ مال هكذا إلا الخوف.

– أصبتِ، لا أحد يرغب في لقمةٍ تُهضَم في ساعة ويسرقها من ميتٍ والآلات تخيط الموت له على بعد أمتارٍ دون أن يهتم إلا إذا كان مقتولًا بالخوف.

– وهو عين الداء.

– أخلق قوة؟

– ليس الآن.. بحالتهم هذه سيقتلون أنفسهم قبل أن تسمع بهم نشرة أخبارٍ حتى، ناهيك عن الحكومة.

– ماذا إذن؟

– حب.. اخلق حبًا.

قالتها الرغبة ثم قامت تتَّكئ على عصاها وما بقي منها فيها، وقد بدت خطواتها أبطأ بشكلٍ ملحوظ، ظهرٌ أكثر انحناءً ونظرٌ لم يفلح في إيجاد مقبض الباب من المحاولة الأولى، كيف جعل هؤلاء

الناس توأمَ البرقِ بهذا الإنطفاء؟ كيَ هدَّدوا مُستقبَلَ الأرضِ كلِّه على هذا النحو دون أن يعوا؟

***

"كاهن التيه، أرض الضياعات والخلاصات وما لم يعرفه نائم هدوء، السليل الشيطاني لتزاوج اللاشيء والـ"كل شيء"، ما لم يُهزَم بجيشٍ أو يُنَلْ بمالٍ أو يُرّوَّع بعصا، الحاكم الأشرس بلا عسكرٍ حوله، والقاضي الأظلم بلا منصة إعدامٍ عن يساره، والصبَّار الوحيد الذي ينبت بعضلةٍ لا صحراء، أدعوكَ بكل قسوتك في قصص المخلدين بالفقد، وكل رحمتك بقصص المُهَمَّشين بالمنال، وبكل ما استعمرتَهُ من أراضٍ بقلوبِ الأمهات والذاهبين للحرب والعائدين من غربة، أن تسري في هؤلاء سيرَك في أوفياء شعر الغزل ومخلصي نثر المناجاة، وأن تُخضِّرَ اصفرارَهم، وتجعل تحت حجاراتهم ماءً تتشقق عنه، وأن تُنبِتهم فيهم، وأن تُنبتهم فيهم، وأن تنبتهم فيهم"

– أجدتَّ الوصف، أحببتُ ذلك، شيء مؤسف أن تؤتى هذه البلاغة لصاحب ذاكرةٍ تُفقَدُ كل عام، هذه الحياة لا تعطي شيئًا كاملًا أبدًا.

ما ظهر كان بشعًا، هذا المخلوق الذي يزن حمولةً أعجزُ عن حسابها، أو تخيل حسابها حتى، يشغل ثلثَ الغرفةِ على الأقل ويشعل سيجارة تداولت كلماته لي مع فمه الواسع بشكلٍ مقزز، ستكون صدمة عصبية لو كان هو، ستكون كارثة عصبيةً في الواقع.

– لن أعتذر عن دخولي بلا استئذان، أو.. دخولي بلا شعورٍ منك لو أردنا دقة الوصف، هذا يفرقُ معك، كونَك أديب.

صمت قليلًا ثم قام يتجول بخفةٍ وسرعةٍ لم تلحظها عيني، ولا تتناسب مع حجمه بأي حال، قائلًا دون أن ينظر إليّ:

– الرغبة مُؤذَبَة، تستأذن وقد تنصرف لو رُفضَ استقبالها، وتعطي حد الموت لو استضِيفَت بشكلٍ لائق، أنا مختلف.. أنا من يقرر كل شيء بشأني وشأن مستضيفي.

– لص..

– مممم.. ربما.. ليكن، وصفٌ ليس ببعيدٍ على كل حال، أحببته منك.

لم أعلِّق، ما زلتُ أتأمله فاستطرد:

– سمين بعض الشيء؟ لا داعٍ للتعجب، القلوب الآدمية كثيرة الدهن، خاصة ما يفقِدُ أو يخلص منها، هذا تراكم قلوب العشَّاق ودهون فقدهم عبر تاريخ العالم، أستمتع بمضغهم بشكلٍ لا يمكن لك ولا لقلمك ولا لقريحتك تخيله بأي شكل.

– ماذا عن من نال حبه؟

– هذا فقدٌ بطبيعة الحال، ربما شيئًا من نفسه أو حريته أو قوته أو صعلكته، أو أي شيءٍ وُلِدَ به أو استولَدَه من رحم الشارع والحياة.. الأصل في الحب الفقد، هو موجود في كل وجوهه نيلًا وخسارة.

– رغبةٌ عجوزٌ متهالكة تفشل وحب سمين يقرفني غروره وهيئته، هذا ما استطعنا فعله في النهاية إذن، لو كانت كل مهماتي السابقة وكل خلقي السابق بمثل هذا الهراء وهذه العبثية فلا أدري أأحمدُ الله لأنني أفقدُ ذاكرتي مطلعَ كل عام، أم أحمدُه لأنني مازلتُ حيًا رغم هذا كله.. كل ما أنا على يقين منه أنني لم أنجح بأي مهمةٍ منها.

– لو حدث هذا لما كنتَ هنا الآن، فشلك بالمهمة لا يجعلك قادرًا على الاستيقاظ من النومة الأخيرة التي تفقد فيها ذاكرتَك.. تُبعَثُ لعقابٍ لن تتحمله، الرُسل مثلُك لا يحق لهم الإخفاق بأي حال.

– هذا يعني أن هذه آخر مهمة لي.

– سريع اليأس.

– بل واقعي، لا أظن شيئًا يصلح لجعل هؤلاء أناسًا يحيون لأجل شيءٍ كبير.

– لم تعرف الحب وما يمكنه فعله بعد إذن.

ابتسمتُ سخريةً أقول:

– لن يمر كثيرٌ من الوقتِ لنعرف.

سكتُّ أنظر لابتسامته المستهينة ثم قلت:

– ستبدأ الآن؟

– صباحًا.

– بداية كسولة لا تبشر بخير.

– حب الليل لا صدق فيه، الهدوء يجبرك على حب شيءٍ ما ولو كان حشرةً مرَّت إلى جوارك وكتابة الشعر فيها، حب النهار صادق، تلتفتُ لما تحبه ومن تحبه وسط كل الضجيج والصخب والزحام.. علاوةً على أنني من يقرر كما قلتُ سابقًا.

– سمعتُ كثيرًا عن الليل وحب الليل وما يرويه الليل من بذرات العشق التي لا تجد ماءها نهارًا.

– ما أكثر ما أفسده أبناء آدم من هوياتنا، استغل السفلةُ أننا لا نملكُ حق الرد.

ابتسمتُ مجددًا أشير إلى لحمِه أقول:

– لا أظنك قصَّرتَ في الانتقام منهم.

– بعض الشيء، لم أكتفِ بعد، هم مدينون لي بالكثير على كل حال، ومنهم هؤلاء الأشباه بالخارج.

– ستجعلهم يدوسونك أنت أيضًا؟

– الحب لا يُداس وإن تظاهر صاحبه بقوته وقدرته على ذلك، يبقي جزءٌ مني فيه يدوسه بلا رحمة مع كل حلم أو وحدة أو غربة أو لقاء بلا

ترتيب، لا تريدني أن أقتل هؤلاء الناس خاصتك بكل تأكيد.

– كيف تدخلهم إذن؟

– مع كل شيء يرون فيه الجانب الحُلو المفقود من أنفسهم، من آذانهم عبر دعاء أو مرجلٍ طبخٍ فوق النار أو صوت حبيب، من أنوفهم عبر زهرةٍ أو وجبةِ عاملٍ أو ما علق بملابس راحلٍ أو مسافر، من أعينهم عبر فراشٍ يرونه آخر يومهم المُهلِك أو وجه يطمئنون إليه، أستطيع تدبُّر أمري.. لا تقلق.

– جيد، هيا للنوم إذن، أحتاجه بشدة.

– وأنا كذلك.

قالها وقام يفتح الباب.

– تنام بالعراء في هذا الشتاء؟ المكان يسع كلينا.

– هل حسبتني صاحب ذوق تهمُّني راحتك؟ قلتَ أنني لص، تذكر ذلك جيدًا.. كل ما هنالك أنني أبحث عن مكانٍ أرتاح فيه.

– مثل؟

– أي قلبٍ فاقدٍ في الأنحاء سيفي بالغرض.

***

لا ربيعَ يأتي للكوم.. الصيف دخل، وبدأ الناموس يزعق في جلود الناس، والبَق الهربان من صهد الشقوق يتشعبط في سطوح الحيطان المشققة كالخريطة وسير الغلابة حواليها، تتضاعف قوة رائحة طبيخ البصل وعصير القوطة والفلفل الأخضر وما تيسر من لحم أو دهن يتوه في خليط "النيء في نيء" ويعطيه مسحةً من زفر وإحساس بالشبع، العيال يسرقون خرطوم الجامع ويركبونه في الصنبور الجديد الذي وصَّله بيومي الكسحجي بماسورة مسروقة من خزان المشروع لخدمة الجامع وطراوة المقابر، يرشُّون به بعضهم عرايا في الدقائق القليلة التي يستغرقها

عم خليل ليعلم بالأمر ويطين عيشة من يمسك به منهم قبل الهرب، البطيخة الشِرك بين كل بيتين متجاورين يقسمها فردٌ من بيت ثالث بحق الله وتدهن صدورهم العرقانة ببردٍ مَلوكٍ مع الجبن القديم والسهرايات في الليل الحرَّان، ويرطِّبه الشاي والضحك المدلوق بينهم، نوم المصاطب والسطوح ودهون التسلخات التي يبيعها مجدي الدكتور بالقسط ودَيْن الكشكول، وما تشتغل به مراوح قلوبهم من سهر الفجرية وتعافي العظام المسوَّسة من برد الشتاء المنقضي من مهلة.

صيف (أبو جامع) كان شيئًا حلوًا في مجمله ويحبونه رغم الزهق المعمول على أيديهم وبها من قلة الشغل وطول النهار وغلاء أثمان مبيدات الناموس والبعوض والأبراص وكل ما يمكنه أن يمر على الأفواه النائمة غير المغسولة ويعلِّقها في النجاسة، وهم كما هم على الدوام.. يعيشون.

الكل يصلي تراويح أول ليلة بعد إعلان الرؤية في صالون صبحي الحلاق، الكوم ينقلب فانوسًا كبيرًا تلعب فيه الفوانيس الصغيرة من الجَريد والجلَّاد المُلوَّن الذي تشتريه زينب، بتوصية عم خليل وريسة وأستاذ سيد وفلوسهم كل سنة، خيوط الزينة من ورق الجرائد والمجلات التي يستلقطها الفتيان سرِّيحة جمع الزبالة من شوارع القاهرة ويضعونها في جِوال شِرك بينهم على مدار العام لتكفي الكوم كله، بعدما تقصها الشابَّات والنسوان والأطفال ومن له صبرٌ من الرجال على المصاطب جماعاتٍ، يقصونها مثلثاتٍ كبيرةٍ ويلصقونها بالنشا فوق شِلل الخيط المفرودة التي تُدبِّرها ريسة بسعر جملة من أحبابها، يستبعدون الصور النسائية من الزينة المبروكة بفتوى عم خليل والشيخ عوض السني، ويعطفون بفروعها على كل شبرٍ مأهولٍ في الكوم، لعب الكرة قبل المغرب في الحوش وتوبيخ عم خليل لأنهم لا يحترمون حُرمةَ الموتى ويجعلون المقابر عارضات مرمى

وخطوط تماس، فضلًا على أنهم لا يستغلون الوقت في الذكر والصلاة.

– انتفوا ذقني شعرةً شعرة لو لم تدخلوا جهنم بصاروخ، ابقوا قابلوني.

– يعني على كلامك ستدخل معنا النار يا عم خليل؟

– لا يا روح أمك، سأكون مسبِّح لربنا في الجنة وأدعوه يهري جلودكم وجلود أهاليكم.

الرضا المنثور في قلوب الجميع، والمفروش على موائدهم التي لا تذوق اللحم إلا عطيَّةً أو تحويشًا، رغم سخطهم بقية العام لا يجرؤون على ذلك في الليالي المفترجة، خاصةً مع زئيط الروح ببعض الزبيب وأعطيات الناس الطيبين بأكياس التمر هندي والعصائر المعلبة والبلح في إشارات المرور القريبة من الكوم في المنيل ومحيط قصر العيني ومصر القديمة، رمضان كان ضيفًا يربت على قلب "أبو جامع" ويحقنه بمسكِّنٍ من بسمةٍ ويقينٍ من "لا تحزن إن الله معنا" .. وربما كان هذا شيئًا من أشياءَ أبقته كل هذا دون أن يتورمَ بهمِّه ويموت به.

***

الفلوس عضَّت قلب خالد العسقلاني كالعادة، طول عمره مُصنَّف من المتاعيس والذين وقعت منهم أحلامهم الفاتحة في السكة المطيَّنة، وزغدتهم العيشة في جنب آمالهم، يتمضمض بأحلامه حينًا ويبصقها مكتفيًا منها أنها تنعشه بعض الوقت وتنظف ما علق من وسخ المعاش حتى لو لم يبلعها وترويه أو تُقَوِّته.

دار النشر التي أرسل لها ديوانه وانتظر الترحاب وعزومة شاي توقيع العقد قالت أنه تمت الموافقة على النشر لقاء أربعة آلاف جنيهًا، يدفعها لزوم تكاليف النشر والتوزيع والدعايا التي تقصم ظهور دور النشر، ولا بد من تقاسمها، السوق يحب شعر الحفلات المسموعة والمخلوطة بألحان تُرَقِّصه في آذان السَمِّيعة، وهو ليس صاحب جمهور ليتشرَّط ويستطيعوا

مع شروطه صبرًا، إنه ابن شغل العتَّالين وصهد الظهرية واليوم بيومه، وهو إذ يحب الشعر ومازال مقدسًا ذكريات الفن مضبوط السكر، فهو لا يملك أن يلحمهما وهما ينقِّطان من أحلامه على الأرض والوهم والعودة بالورق لتحت وسادته وأذن الأستاذ سيد ومزاج عم خليل أحيانًا. سرَّب همه لسيد وسبَّ النشر وذوق الجمهور الذي منع نشر خبر عنه في أخبار الأدب أو أهرام الجمعة حتى.

– تقع من أول مطب، عيب على موهبتك حتى، كنت تظنُّ أنهم سيقولون أهلًا بسعادة حافظ إبراهيم؟ أنت غريب يا خالد، صحتك ما شاء الله تشيل الهم وتجري به في سباق وتكسبه، ولسانك وقلبك غلابة وأكتافهم ورق، طيب.

قام إلى السبرتاية يولّع تحت الشاي، ثم استطرد لخالد فارد قدميه في وضع اتِّكاءٍ ودماغه مرصوصةٌ فوق كفه:

– قُلْ لي يا خالد، ما الكتابة الجيدة؟

انتبه الأخير وضم قدمَيْه كأنه لم يسمع كل الكلام الفائت وبدأ سمعه من هنا فقط، اكتفى بالنظر وسكت، فاستطرد سيد:

– أنا أقول لك، الكتابة الجيدة تجبرك أن تفيق، تقول لك خلِّ روحك تمد رجليها في النص وتستريح فيه من مشيها الكثير. هل جرَّبتَ أن تشعر شعورًا "كاملًا" بقول عاشق "علِّقي المسافة بيننا في طرف فستانكِ ثم ابتعدي كيف شئتِ؟" أو قول أمٍ "كلُ هذه التجاعيد في وجهي قد ادَّخرتُها في قلبك أنت، فشِلْهم للزمن ينفعونك" أو قول سجَّانٍ "أبيعُكَ رغيفًا بلسانَكَ وتنجيدٍ جديدٍ لكرسي العرش" أو قول صديقٍ "اسكبْ ما بقي من اللبن عندي هنا ثم ابكِ عليه كما شئتَ وليحترق العالم وحِكماته".. هل جرَّبت؟

الكتابة الجيدةُ تجرُّكُ على ضعفٍ فيك، وتسحبك على لياقةٍ فيها، وتجبرك أن تبتسم خفيفًا أو تقول حتى "يا ولد يا لعيب" دون تخطيطٍ

مسبقٍ للسانك، الكتابة الدبوس التي تشكُّ قلبك، أو قلب عدوٍ خيالي في عقلك، أو قلبَ حبيبٍ علاجه عندك وعلاجك فيه، الكتابة الحلوة التي تضيف نقطةً بيضاء في لوحة الواقع المُهبَّب، وتسقيكَ شربةَ ماء في عفار سكة المعاش، الكتابة التي تجبرك أن تفيق. فهمت؟

ابتسم خالد يتناول كوب الشاي مع الممدود إليه مع السؤال الأخير وقال:

– ما منعك من الوصول يا أستاذ سيد؟

– لأنني لما أجد أحدًا يناولني شايًا ويقول لي ما الكتابة حين يئستُ مثلك.

ثم استطرد سريعًا كأنه لا يود الخوض في كثير:

– عمومًا لا تقلق، سِبْها لله، أنا سأتصرف وربنا يحلها.

– والله العظيم لا آخذ مليمًا يا أستاذ سيد، أنا أحكي لك من باب الفضفضة ليس إلا، لا تجعلني أندم أنني

قلتُ لك.

– على سبيل السلف وتردُّهم لمَّا ربنا يفرجها، أنت العشم قتلك لدرجة ظننتَ أنني سأعطيهم لك هبة؟ نحن نغمِّسُ اللقمة برائحة الزَفَر في خيالنا يا عم خالد، سآخذهم منك بالمحاكم حتى لمَّا تُفرَج.

قبل أن يبتسم واقفًا بمواجهته يرفع رأسه المُنَكَّس خجلًا:

– أنت تحقق حلمًا قديمًا لي، وأنا لن أسمح أن يضيع حلمي مرتين، المهم أن تشد حيلك وتعمل ما عليك، أنت الذي ستحكي هذا المكان في يوم من الأيام يا خالد، هؤلاء الناس ليس لهم غيرك ليشدَّ العالمَ من هدومه إلى هنا ويُفرِّجه على كوم (أبو جامع).. اكتبنا، فهمت؟

***

عبد الجَيِّد كان يواري أرنبةَ أنفه التي يعايرونه بها كلما سنحت فرصة، ويرمي نفسَه في الشغل كي يُفَتِّتَ ذكرياتِ الجدارِ الذي علَّقَتهُ عليه إحداهن قبل سنين طالَت.

كان يعمل الشاي ويسوّي الأكل في الكنيف المخنوق في طرف غرفته، الغرفة يعتبرها سكنَهُ ومحل أكل عيشه حيث البقالة المسكوك في وجهها الرزق الواسع. هو لا يخاطر بتوليع النار بجوار الأكياس والكراتين، حتى لو أكله وشربه مطبوخان بالصنان، المِعدَة منَّا وعلينا، ستفهم الوضع، هكذا يقول.

كان يبيع السكر وهم يطلبون التحلية، والشاي وهم يطلبون المزاج، والملح وهم يطلبون جودة الطهي، هو لم يرَ نفسه مذنبًا قط أن كل الأشياء تخلَّت عن أدوارها في دكانه كما تخلى الناس عن ناسيَّتهم في الكوم، أولى بهم أن يلوموا أنفسهم بدلًا من لوم الجمادات المغشوشة حسب وصفهم دكانه ونمته وبضاعته. الإنجاز الوحيد الذي استطاعه عبد الجَيِّد بن فرحات هو أن يظل، ليس مهمًا ما سيظل عليه، المهم أنه ما زال فوق الأرض ولم يُسقَّف وجوده بتراب وقطعة رخام عليها اسمه وآيات فاتحة، كافٍ غيرَه شرَّه، ومكتفٍ بالدكان ورائحة أبيه المرحوم فيه والمصحف وصورة آية الكرسي لجلب البركة وراحة الضمير أنه عمل ما عليه واستوفى أسباب الرزق الحلال كاملة، حياته مثل الجُبن القديم كما قال له صبري أنابيب حين حدَّثه عبد الجَيِّد أن نقمته على الأشياء تقل بمرور الوقت وأنه يخشى أن يموت كصفيحة زبالة.. لا يشعر بشيء ولا يذكر المارة منه إلا الوَسَخ الذي لا ذنب له فيه.

الجبن القديم تزداد حلاوته بطول التخزين، لكن ملحها المتغلغل في هذه الإثناء مؤذٍ لأعضاء عدة، هو الذي خزَّن حياته بهذا الدكان لا يدري إن كان قد ازداد حلاوة أم مِلحًا، لم تعد به رغبة في التذوق والمقارنة ودهان

زعله على قلبه كل ليلة كالأيام الخوالي التي شبك فيها بؤسَه في ذيل روحه وسيرها خلف كل ما لا يُطال، يكفيه أن الحكومة تحارب الإرهابيين على الحدود وهو ليس على الحدود، والأستاذ الإعلامي يشتم معارضي الخارج وهو ليس في الخارج، وصاحب محل الجملة الذي يبيعه بضائعه ويبيعه لبضائِعه يسبُّ محصل الكهرباء والإيصال وهو ليس إيصالًا ولا يعمل في وزارة الكهرباء، والأهالي في أتوبيس النقل العام يلعنون الزحام والحر وراكبي السيارات المكيفة وهو لا يملك سيارة ولا يتواجد في زحام إلا في مرات جلب البضاعة، حتى مع الحائط الذي يحمل "الأهلي أسياد الكون" مشطوبةً ومُبدَّلةً ب"الزمالك نادي القرن الحقيقي" مشطوبةً بدورها، فيحمد الله لأنه ليس حائطًا يمكن للجميع الصراع حول هويَّته، هو لا طاقة له ولا رغبة بالرد على تقريع عم خليل وتعييره بأنه كأبيه الحرامي يأكل مال النبي لو أتاه، ولا إتاوات عبُّودة من سجائر ومشروبات بدافع العشم أو الإجبار حسبما اتفق، ولا اتهامات النسوة بتطفيف الكيل والميزان حتى مع عبوات السكر والأرز المغلَّفة الجاهزة، هو خارج دائرة الضوء والحياة والصراع بشكلٍ ما، وهذا يكفيه ليكمل حياة الجبن القديم في هدوء.

لمَّا أراد مدكور توسيع تجارَتَه كان عبد الجَيِّد خيارَه الأول، الشيخ عبد المولى نقل عن الرسول الكريم أن تسعة أعشار الرزق في التجارة، وهو يعرف أن عبد الجَيِّد غلبان وفي حاله وبريء من كافة تهم أهل الكوم وشكوكهم حول ذمته، حتى وإن لم يكن كذلك فحكاياه –مدكور– عن العفاريت وليالي مرافقة الجثث كفيلة بتعديل الوجهة بطريقةٍ ما ترضيه، لا أحد يرفض شراكة مدكور صاحب الكرامة والحكاية وعِشرة العفاريت، يكون عفيًا ومستبيعًا وقلبه أسمنتيٌ من يفعل، حتى عليوة صاحب اللسان الأطول من شارع التحرير خضع بالنهاية ولم تكمل ريِّسة اعتراضها

كاملًا بشأن سطوته لأول مرة، أحمق من يظن أن عبد الجَبّد الغلبان سيعزم على ذلك.

مدكور أبو تربة هو صاحب الكرامة والحدوتة والتحاشي في كوم (أبو جامع)، مكوثه أسبوعًا كاملًا في القبر وعودته بعد يأس الجميع من العثور عليه جعلا منه حكاية، فراره ساعتها لأنه أكل رغيفين من وجبة الأسرة المُكوَّنة من أربعة أرغفة و "ولاش" المِش، كان على يقين أن أباه سيعدمه العافية لأنه تسبَّب في تجويع أخويه وأمه لأربعة وعشرين ساعةً إضافية، ففضَّل الفرار، ولمّا لم يكن أمامه إلا مقبرةً مفتوحة يلجأ إليها لجهله بالعالم خارج الكوم، فقد فعل ومكث هناك أسبوعًا كاملًا، وطيفَ ما تبقى من حياته.

يفرُّ ليلًا ليسرقَ قرصة أو رغيفًا يتقوَّت بها أو به، ثم يعود للنوم إلى جوار الأكفان المُحاسَبَة، وجدوه بعدما قرَّر أبوه أخيرًا تفتيش المقابر من الداخل بعدما لم يعد أمامه غيرها، التراب الذي غطَّاه بالكامل واحمرار عينيه من غياب الضوء وكثرة التراب وعطن البيئة التي أحاطته أسبوعًا كاملًا جعل الجميع يُجزم أنه ملبوس بالجن، وباركوا للأسرة من على الباب ثم تحاشوه طيلة ما بقي من عمره إلا بسلامٍ من بعيدٍ يشعره أن المُسلِّمَ من أحبابه وأحباب أبيه القدامى، أو استعاذة بالله من الشيطان وشر ما خلق حين يمشي عنه، أبوه أصبح يضع أمامه الأرغفة كلها ثم يسرق له ولباقي الأسرة قُرَص القرافة ويسأل أم عجمية ملعقتَي مِش فتعطيه دون تباطؤ خوفًا من الجن صديق ابنه، ظل كذلك حتى مات ودفنوه على مقربة من البيت، قضى مدكور أسبوعًا كاملًا معه في التربة فعاوده الرمد والتراب ويقين أهل الكوم أنه ملبوس وعطايا مِش أم عجمية لأمه دون حساب ودون طلب. استقر له الأمر لاحقًا حين عرف من أين تؤكل كتف المصالح من جسد خوف الآخرين، وكيف يعيش عيشة

ملوكي بحدوتة يكوّرها بخشونة صوته ويلفها برعب من يسمع ويبعثها للدحرجة في حواديت الأهالي، وكوابيس من فاتته صلاة العشاء منهم، وتخويف من لم ينم من العيال.

***

– انتَحَرَتْ فسِبتَها ومَشَيْت، النحسُ مُعَشَّق في سَيْري، حتى في اليوم الذي نجحتُ فيه في الهروب من سعر تذكرة المترو، رَمَتْ فتاةٌ نفسَها وتوَقَّفَت حركة السير. المرحومة التي لا أعرفها ضبَطَتْ حزنها مع حظ شعراوي. كُنتُ أُخَلِّص ورق الكشك من مُجَمَّع التحرير، الصول كردي هدَّه فوق نافوخي لمَّا شافَه، وقال أنه غير قانوني، كأن الكوم وزارة الدفاع والمتر فيه يمشي بالورقة والقلم، لكن الله يبارك له على كل حال، أرسلني لصول معرفته في المُجَمَّع خلَّصَ لي كل حاجة عُزْتُها، صحيح أن كلَّه بثمنِه، وأن الثمن كان تحويشَ عمري، لكن أقلُّه وفَّرَ عليَّ دوشةَ المشاوير وورق الحكومة، لكن الغريب أن الورق ليس فيه أي شيء إلا دمغة وختمَ نسر يا عم خليل، لا يوجد أي إمضاء لبيه كبير أو غيره، الحكومة أصبحَت أسهل من الأول.

لم يعُد ممكنًا أن أتركَ "عفاف" على فرشتِها في الموالد، عفاف تستأهل أن تطلع في التليفيزيون كل ليلةٍ لتفرحَ الناس وتشيلَ عنهم الهم، فقط تقول "يسعد مساؤكم" التي تقولها لي، وكتاب الله لن يبقى أحدٌ في مصر كلها يشيلُ الحزن. لولا أن اليد قصيرة كنتُ جِبْتُ لها عشرةً يخدمونها، تفاحةٌ مقطوفةٌ في ميعادها جالسةً على الأرضِ معي يا عم خليل، ألا تستأهل أن ألِفَّ الدنيا لأحافظَ على حلاوتها؟ أنت بنفسِكَ جرَّبتَ الحمص الذي كانت تبيعه، الحمص قبلها كان ترابًا صلبًا مَدَوَّرًا وأصفر.

لا تستغرِب أنني أصبحتُ أنشَط يا عم خليل، شعراوي الذي تعرفُه تَغَيَّر. الحكاية وما فيها أن ربَّنا استجاب، ستَّفَ نومًا حلوًا في عيني،

ورصَّ روقانًا مضبوطًا في دماغي، وحطَّ "عفاف" في قلبي فنوَّر كأنَّ ليلة العيد كُبَّت فيه، والله يا عم خليل من اندماجي ساعتَها مَيَّلْتُ على قلبي ونظرتُ له وقلتُ "آنستينا". هههههه.

عفاف معمولة من جمال حَرِّيف يا عم خليل، الحلاوة تحرفَنَتْ فيها وفَضَّت جوال ألاعيبها كلَّه في تقاطيعها، أكيد وقَعَتْ بعد ذلك في ورطة مع بقية الحريم. يا عم خليل لا تضحك، عيب، والله أزعل، يا عمِّي لا أحمد بك شوقي ولا سأكتبُ غنِّيوات لعبد الحليم حافظ ولا يحزنون، أنا أفضفِض معك، أقلُّه أعمل معك واجبًا وأعطيكَ بعض السُكِّر الزيادة الذي طَقَّ في دمي منها، ألحق شراييني منه وألحقُكَ من الملحِ الذي فَرَكَ عظمك، هههه، خلاص خلاص، لا تَضرِب.

نهايته، ربنا سهَّل الأمور وعملنا الكُشك، عملتُه في آخر دحديرة الشوادفي قُربَ نزلة الصعايدة، بعيدًا عن دكَّانة عبد الجَبِّد حتى لا نقطع رزقه، عفاف طلبَت ذلك وقالت نبدأها بالطبطبة على قلوبِ الناس كي تُطبطبَ على قلوبنا رحمةُ الله. ناقص فقط أن تكلِّم لي عبدون على غرفة تلمُّنا، سيعمل لكَ خاطرًا ويرضى بتقسيطِ الشهرية في الأول، الجيب مفكوكٌ مِنَّا يا عم خليل، طول عمرنا نربطُهُ في حوائجنا بالعافية، بالمذَلَّةِ وكسرةِ النفس. وأنا لا أريدُ أن أدخلَ على عفاف وبنَفْسِي شَرْخٌ يُعَوِّرها، هي لا تستأهل ذلك، شُفْ لي صِرفةً معه ولكَ الحلاوة من شعراوي أحسن من حمص الموالد، سأجعلُ "عفاف" تقول اسمك فيحلو، هههههه، أستَأذِن يا عم خليل، لا تَنْسَنا، وادعُ أن تفضل أرواحنا واقفة على حيلها.

***

أما زينب فقد ركَّبتها كثرة الشغل في قبقاب الدنيا الذي لا يكفُّ عن الخبط في كل طريق، وفوَّتَت عظمها اللين في الحديد والعَوَز و "نفسي راحت لكذا". خبزتها حياة خارج الكوم، وجعلت العجين الطري للبنت

القادمة من مركز الواسطى خُبزًا يابسًا لا يُهضَم إلا بتكسير، أو تسقيتُه في شيءٍ يحبه فيذوبَ فيه. أصلًا لم تعد تعبأ بالكوم ولا ناسه كالسابق، حياتها مع سعيد الجندي باتت موضوعة في حقيبةٍ ملونة. زينب التي قضت حياتها تتنقَّل مُغلَّفَةً في الأكياس المسحوقة بيد رجال النقل العام ومدخل الكوم ومعمل الصفا والمروة، والأكياس البرَّاقة بلا روحٍ ولا فتحة عريضةٍ تطل على العالم بيد الناس العائشة حياتها في عيادة دكتور مأمون الجابري، والأكياس المقطوعة مفرودةً كفرشٍ لنظراتِ نسوة الكوم شفقةً تارةً لأنها عيلة يتيمة وعانس، وحسد تارةً لأنها كسِّيبة وبطولها، ونفور تارةً لأنها تعود وقتما تشاء دون أن يعلم أحد ما تقضيه وفيمَ تقضيه، كل تلك الأكياس التي تعفَّنت فيها قد بدَّلها سعيد الجندي سائق الميكروباص على خط المريوطية–أول فيصل بحقيبةٍ ملونة تصلح للسفر وحمل الهدايا، لا التخزين والسحق والفرش لطعامِ العمَّال على مسلَّح المقاولين والبهوات، حين خطا خطوته الأولى وطلب رقمها بالخطأ كما أقسم بكل أيمان المسلمين استقبلته ب"لا يهمّك" فتحت له كل السكك والمنافذ للاستطراد ب"لا مؤاخذة كمان مرة" و "أنا كان قصدي أطلب فلانًا" ثم الاستطراد عن سبب طلب فلان وحكايته معه وانتهاءً ب"أنا ارتحت معكِ في الكلام" ، لاحقًا أكَّدَت لها شريفة من فوق كرسيها الخيزران وشلتته الجافة المزيّتة أنها تحرَّت عنه وأتت بأصله وفصله.

– ابن ناس طيبين وعنده أخوات بنات ولا يمكن يؤذي ولايا، جدع على ضمانتي وجِبْتُ قرارَه بمعرفتي، ومعرفة العيال الذين أسرِّحْهم لعمل اللازم في مثل هذه الأمور.

– الله يبرَّدْ قلبك يا شريفة، كأنكِ دلقتِ ماءً بصابون على روحي ونظفتِها من القلق والربكة. الله يبارك لكِ.

قالتها زينب ثم صمتت ثوانٍ واستطردت:

– يعني، يعني أكمِّل يا شريفة على ضمانتك؟

– نعيده من جديد يا زينب؟ أنتِ عارفة لساني، مطلوق في سكة المختصر المفيد، أعرف كيف أقول الكلمة التي تجيب من آخر القصد وتنهي حواديت الحوارات التي لا تجلب إلا الصداع وتخريب المزاج. أنتِ أول مرة تعرفين شريفة؟ يا عبيطة أنتِ أختي.

– ما داهية إلا أن تكوني زعلتِ، أنتِ يعني يا شريفة غريبة عني وعن الحدوتة؟ كله على يدِّك.

– اسمعي كلامي، ومقطوعة اليد التي تلبسك فستان فرحك غيري.

شبَّ قلب زينب منها لينظرَ فرحتَه في جملة شريفة الأخيرة، شربت كوب الماء أمامها دفعةً واحدةً ومازالت تبتسم وتُجَرِّي نظرها بين شريفة والشارع والأرض، وقد أخذت كلامها عن سعيد مصدقًا كما هو، ولقَّته بدوبارة من انتظارها الأنثوي الطويل ثم خبأته فيها بعدما انتزعت بملقط حبه كل زجاج الماضي المكسور في قلبها من تتالي الفقد.

***

يشك الكثيرون في خبل أم جمال، ويعطفون عليها بالعجوة والعرقسوس وما تيسَّر. كانت من اللائي يشاركن عليَّة أم أحمد في طلعات أسواق جنوب الجيزة، قبل أن يُولِّع وجعُ الركبة في سيرها وسفرياتها وسهولة التنقل، فأخمدته سنواتٍ بكريم "أبو فاس" الذي نصح به مجدي الدكتور ويُحضِّره في معمل الصيدلية، مع تزييت المفاصل بزيت تموين ونصف ليمونة ولفِّه للصبح بفرخِ جريدةٍ حبرُه قليل يشفطُ العرقَ الناضح بالوجيعة. جعلَت فرشَتها بعد اعتزال السفر عند مترو الملك الصالح، جوار باب استقبال مستشفى مبرَّة مصر القديمة، تبيع شقوقَ الفول الذي تُدَمِّسُه كل مساء، وتقلي الطعمية والباذنجان في طاسة على سخَّان غاز صغير، ثم زوَّدَت أكواب شاي الشيخ الشَرِّيب الذي عقدت صفقةً مع معمل منزلي

في قلعة الكبش يصنعه تقليدًا للشيخ الشَّريب الأصلي، الذي كان يتوزَّع مع تموين الحكومة في السابق البعيد.

– ناقص تبيعونه بالتلقيمة يا فاروق، اتقوا الله، أنا عارفة الحكاية وما فيها، شمَّة شاي والباقي نشارة ولون، قالوا لك عنِّي بنت سلالم رخام؟ أنا معجونة بسخام أثقل من الأسفلت الذي تقف عليه. نهايته، سآخذ بنفس السعر القديم، أنت لا تبيعه ل"كَفُّور" يعني.

– والله العظيم ثلاثًا الحاجة غلت علينا يا حاجَّة أم جمال، اسألي عَبْجَيِّد حتى، يشيل يوماتي بنفس السعر.

قبل أن تقف عن كل نشاطٍ لها وترضى بأن يلقبوها بالمرَة النكد، يجزم البعض بأن عقلها فَوَّت منذ أربعةِ أعوام حينما قرَّر جمال ركوب البحر وتقليب رزقه للخروج من مقابر الكوم حيث الدنيا المُبروَزة في التليفيزيونات وإعلانات المسلسلات، وارتداء "منطلونات" تشبه الخاصة بالعالم الحية وتعبئة شريط من تأليفه وغنائه تتصدره صورته ضاحكًا ويده تحت ذقنه وفوق عنوان "اتخدعنا" ليُجبر حسن الأسمر على الجلوس في بيتهم لأنه لن يأخذ زمنه وزمن غيره، ابتلعه البحر الكبير بثمن سلسلة أمه –الشيء الوحيد المتبقي من شبكتها– ودَيْنٍ لعبُّودة الذي وافق على تقسيط ثمن التأشيرة المضروبة في سابقةٍ من نوعها يجريها في مقاولاته، لأنه يعتبره أخاه الأصغر كما أكَّد والفلوس لن تروح عنده. أم جمال باتت تقتات من أولاد الحلال كريّسة وزينب وقُرص القرافة الموزَّعة على أرواح الأموات من ذويهم وبعض آمالٍ بعودةِ الغائب بالسلسة وتسديد دَيْن عبُّودة وأحلامه التي لا حق له فيها.. وهي ماشية كما يقول عم خليل.

– على فين العَزْم يا حاجة؟

قالها عم خليل لأم جمال التي لم يعتد أحدٌ منذ زمنٍ طويل على رؤيتها في قميصها الملس الأسود المبهرج في تعريجات وزركشات وكرمشات

على مسافات متفاوتة، وطرحتها الراكدة على تربيعة منديل محلاوي لا يظهر ويُعرَف بروتينية الرداء الظاهر، عم خليل كان أكثر من يؤكد أن مخها فوَّت وأنها مسئولة منه بشكلٍ خاص، لمّا وجدها بهذه الحال وسألها ابتسمت له لأول مرةٍ منذ خبر جمال وما قبله حتى.

– أتمشَّى يا عم خليل، نشم هواء ربنا وحلاوته.

– أنادي عيل من العيال يسندك؟

– العمر الطويل لك يا عم خليل، لو أنت محتاج مساندة أنا أسندك، أنت في مقام والدي.

قالتها وأكملت سيرها فكتم عم خليل غيظه لأنه لا يريد أن يتفرج عليهم شارع القصر والعيال الشمَّامين، ومراعاة لحالة الجنون خاصتها.

–الولية بينها وبين القبر عطسة وتقول لك نشم هواء ربنا وحلاوته، النسوان تكبر ومخها يقلب فردة بلغة، لا والأكادة تقول والدي وهي من أيام أصنام مكة، خذها حالًا يا رب.

ولمَّا تابعت ريّسة الحديث من شرفتها لم تكن لتفوّت الفرصة لاستفزاز الرجل الوحيد الذي يحول بينها وبين زعامة الكوم.

–تعرفي يا بنت يا زينب، كلمة الشائب العائب أصلها من أين؟ شوفي اللي حصل قبل دقيقتين وأنتِ تعرفين.

قالتها رغم عدم وجود زينب من أساسه بصوت سمعه العجوز فاكتفى بقولة:

–خُذ النسوان وخَلِّنا هنا وحدنا يارب، وسنعمِّرها بمعرفتنا.

ثم بصق بصقة مبلغمة استأنف بعدها حوقلته وتسبيحه وتقريع كل من يقابله لمختلف أسباب الحال المائل التي يشهدها منهم.

حياة لم تضحك عليهم كما اعتادت حين تراقبهم في سكون ولهفة لآخر الحدوتة بينهم وتقول لأمها أنهم عيال كبيرة، كانت في ملكوتها الخاص

وهي لم تدرك بعد أسباب ما حدث وتخشى سؤال أمها عن معنى "أتبنى" أو سبب قولها "يا حزني ومنيل" وصراخها بوجه الهانم ثم شدِّها من حضنها والإسراع بمغادرة المنزل دون أخذ الحقيبة البلاستيكية السوداء اليومية حتى، تعرف أنها يركبها مائة عفريت وقت الغضب ولن يكون في صالحها أبدًا سؤالها عن أي شيء في الوقت الراهن ولو حتى تأخر الطعام، لكنها تدرك أن شيئًا ما انكسر بين أمها والهانم وأن "أتبنى" هذه ربما تكون سبة قبيحة كسباب عم خليل وعبودة، غير أنها تحب الهانم وتسامحها لو زلَّت.

لا مكان يسعها فيه أن تزيط زِياطًا كالذي اعتادته عندها، ولا أحد يمكنه أن يعطيها عصائر وحلوى ومأكولات وأمًا فرحانة ولا تهلكها الخدمة مثل الهانم، أقنعت روحها أن أمها عندها كرامة كما تؤكد دائمًا والذي يدوس لها على طرف تأكله بأسنانها، وربما غضبت من الشتم، لكنها لن تلبث أن تعود بعد أن تراضيها الهانم وتسمح لها ببعض قطع الجبن الاسطنبولي الإضافية الزائدة عن الحاجة وعن الحصة المعتادة وعن آمال رؤوفة من الأعطيات والسرقة، لكن كل تلك الآمال الملسوعة لم تجد لها مرهمًا في واقع أمها التي أطالت مدة الانقطاع لشهرٍ كامل ذاقت فيه معها مُرَّ التنقل بين سلالم أبراج المعادي وشقق عائلات المَنيَل وجاردن سيتي، عالم نتنة جلودهم تبرق كنجف الحسين لكن قلوبهم مشققة كالعجين الخمران كما تصفهم أمها، هذه الصفات تعني شيئًا بذيئًا بكل تأكيد، هذا يؤكده عدم إعطاءها أي شيءٍ حلوٍ من أي بيه أو هانم فيهم فضلًا عن مناداتها بالـ"بت" حين ينتبهون لوجودها وليس "حياة" أو ست البنات كما اعتادت من فريدة هانم.

***

لا يذكرها في المطلق، يفعل فقط حين يصرخ فيها أن تُعلِّق على الشاي أو تدهن له "مرهم النمر" على وسطه الذي تصر على أنه يَبُسَ من طول القعدة لِلَيِّ الشيشة، بينما يصر هو على أنه ابتلاء ربنا ومن يرفضه كافر ابن كافر، حمادة الشيشيني الذي طلَّق ماجدة مرتين وردَّها بموعظة حسنةٍ وقولٍ لم يتبعه أذى من عم خليل والشيخ عبد المولى وأولاد الحلال لأجل البيت والعيال، شريطة ألا تصرخ مجددًا وتلمَّ عليه الناس مع كل احتياج لمصاريف تقصم الوسط المقصوم من الأساس ويحاول "مرهم النمر" إيجاد حل له بقدر ما يستطيع ولا ينجح، حمادة يتقن الحديث عن شقائه القديم وأن الزوجة والعيال قد هدُّوا حيله ونهبوا صحته نهبًا في رحلة جريه خلف الجبن القديم والفول الحيراتي وخبز الطابونة المسفوف سفًا كأنه مال حرام.

– عظمي جّيَّر من كثرة الشقاء، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها كما يقول الشيخ عبد المولى وشيخ راديو الجامع قبل الجمعة والعشاء والمواسم كمولد النبي وعاشوراء وعرفة، الله! طيب أهي بانَت لأي واحد عنده بجنيه عقل، أنا نفس، ولي ما يسعني بشرع الله وفتوى العلماء الذي يعرفون أكثر مني ومن ماجدة ومن أبيها الحشَّاش، الذي ما صدَّق أن يتخلص منها إلا بزواج ففعل.

قالها وهو يفرطُ تعميرة المعسِّل كحبِّ الذرة، ويُشَبِّقها بالتهوية فتحمرَّ وتُنطِّطُ الهواء حولها والشبعَ في مزاجه. بينما ماجدة نقلت نومة العيال، وجعلَت تخلطُ الحِلَّة التي اشترتها من متولي العربجي بحفنة أسمنت سرَّبها لها صبري من عمَّال المشروع ولم تكن تكفي وحدها، وتسدُّ بهما فتحًا في الحائط، ثم تُولِّعُ في الخلطة الملطوطة على الشَقِّ لتلتئم فيه وتحبس بالداخل فأرةً ولَّادةً دوَّختها.

– هو العالم والمُنَجِّي.

تهمس بها فلا تمرُّ من سطله، يستطرد:

– النسوان لا تحمد ربها أبدًا، الولية لا تحمد ربنا أنني ما زلتُ أضحي لأجل البيت والعيال ومشي المركب، كثَّر الله خيرَي أنني لم أتزوج عليها بدلًا من المرة ثلاثًا، صحتي تجيب، ولم أطفش تاركًا لها الجمل بما حمل تشيل الهم به وبحمله وبلاويه وسدة نفسه من الدنيا بحالها. خمس سنوات وأنا أصرف على العيلين وأمهما، خمس سنوات كاملة بالتمام، ويا ليته عاجب. آن الأوان أشوف حالي وأستريح في أواخر أيامي. عدل ربنا.

كان هذا شأن حمادة الشيشيني، يُغمِّس دماغه في السطل، ويمرّغ قلبه في الضمير الملآن بالراحة. تاركًا الزوجة التي حمَّلها وحمَّل أهلها جميلًا بردِّها مرتين تتولى بخدمتها بيوت الهوانم وأحيانًا أزواج الهوانم أمرَ توفير الجبن القديم والفول الحيراتي وخبز الطابونة ورصَّات مزاجه فوق الفحم واللَّي وتحت غيبوبته في الكيف.

ويكون يومها أكثر سوادًا من حظها لو ذكَّرته أن آخر أيامه هذه لم تتجاوز الخامسة والثلاثين بعد.

– استحليت الشغلانة، حقَّك، آكل شارب نائم طافح مزاجك مجانًا، حتى لو من عَرَق ولية وقوت عيالها، المهم أن دماغك بخير، رجولتك كسحوها مع الخرَّارة.

لن يكون صعبًا عليه أن يجرها على وجهها وتشريدها وحرمانها من العيِّلين بالطلاق الثالث، يمنعه فقط أن هذا سيحرمه من تنييم دماغه في كَيْفٍ طراوة.

في خميس الزلزال الذي مرَّ عليه ثلاثة أسابيع تحامل على نفسه لأجل لقمة العيش ومسؤولية العيال وأمهم –رغم أنه غير مطالب بذلك– ونهب مع الناهبين ما أمكن لظهره العيَّان أن يحمله، كيس لحمٍ مخفي ورائحته طالعة بدَقَّة نتانة خفيفة سرعان ما ستخمدها النار، وحافظة جلدية بكارت

اتصالات مُستهلك ومُحتَفَظ به لغرض مات مع صاحبه وثلاثين جنيهًا، إضافةً لثلاثة كشاكيل لم تتعدَّ النصف استهلاكًا وجدها من نصيب عياله للاستفادة منها في كُتَّاب الشيخ عبد المولى في الزاوية، وهو إذ اتَّكأ على مجهوده ذلك اليوم وطالب ماجدة بعلبتين كليوباترا ولفة –قص– زيادة وأكلة يرمم بها عظامه التي تفككت من المجهود، هياكل في مَرَقَة، أو دِمْعَة قوطة سائب فيها نيء في نيء ومُفَتَّت دهن، قد حلف بالطلاق في داخله لقلبه المسطول وفي خارجه لزوجته وعياله الأكَّالين ألا يضع يده في شغلٍ آخر حتى يموت، العمر واحد ولن يفرح بهم وبشبابهم حين يرتمي على أبواب مستشفيات الحكومة وعلى بلاط استقبال الوحدات الصحية ودفتر شُكك مجدي الدكتور ، كل واحد أولى بنفسه والحياة قصيرة على كل شيل الحزن هذا.

***

الصول كردي أعجبه الموضوع، وشافها مصلحة مطبوخة وجاهزة للأكل دون مجهودٍ يتعدى كلمتين من تحت الكاب الميري والكتَّافات وشتم أم بيومي والتلويح بقرش حشيش يفهم منه الأخير أن رفضه يعني رواحه في داهية وعتمة التخشيبة والقضايا والقفا الميري.

– أعجبتني دماغك يا ابن العبيطة، تعرف مصلحتك وتبوس اليد الصح.

قالها لصبري مع لطمة وضحكة جعلتا صبري يشعر أنه صاحب وساطة، وأن الدنيا أخيرًا ضحكت لبؤسه وقدميه اللتين هرتهما الكرة الجُلَّة وغبار الساحة ونتانة الخرابة.

– لكن لا تظن روحك شَيّلت الصول كردي جميلة يا روح أمك، الشعب في خدمة الشرطة، والكوم وناسه والبلد بحالها وناسها ملك البوكس والكارنيه، يعني لم تعمل إلا الواجب، ولو لم تكن عملته وستعمله طول

عمرك سأشيلك من على ظهر الأرض.. فاهم؟

لصقها بسابقتها وبتقطيبِ ملامحه فجعلَ صبري يعيد تفكيره بريقٍ يبلعه، وتظهر صعوبة مروره في رفعة ذقنه ورقصة تفاحة آدم المرتبكة خاصته قبل أن يبتسم قائلًا:

– فاهم.. فاهم يا سيد الناس.

ويكمل رصّة حجر الشيشة للصول ساحب نفسها ونفسه متفكرًا فيما قادم.

– قُل لي يا صبري، الشيخ عبد المولى أهم للكوم أم عبُّودة أم ريّسة أم خليل السوهاجي؟

– الشيخ عبد المولى طبعًا، رجل سيدخل الجنة، يصلي الوقت بوقته ويحفظ الختمة وحواديت عن النبي. عم خليل رجل طيب، بركة تحلُّ علينا وهو كبير له مقامه ويحكم بيننا في الخناقات. ريّسة غلبانة لكن لسانها يحتاج قصَّه بمنشار، المقص صغير عليه. إنما عبُّودة، عبُّودة حاجز جناحًا خصوصيًا في جهنم.

– غشيم.

قالها الصول كردي ثم شدَّ نفسًا وكركرةً من شيشته فبُهِتَ صبري لشعوره أنه خيَّبَ نظرةً فيه قد تعكِّر الوساطة، استكمل كردي:

– لو الناس كل يوم صَحَت على جماعة يحرقون بيتًا من البيوت أو يقتلون واحدًا من الأهالي، من يقف قصادهم في العَركة؟

– الصراحة، الصراحة عبُّودة، عبُّودة ورجاله. ونحن معهم يعني.

– من بعيد يا صبري، معهم من بعيد بالدعاء والهيصة، أنتم عالم سَقِّيفة نمرة واحد، عالم تخاف من ظلِّها لو كبر على الحيطة.

سكتَ وسحبَ نفسًا آخر ثم استطرد:

– ومن ينشر في الناس الخبر ليأخذوا بالهم ويحسُّوا بالبلوى؟ أو خَلِّنا

نقول من يزعق فيكم لتجتمعوا حول العركة وتهيصوا لعبُّودة ورجالتهم؟ أقصد تساعدوهم يعني؟

فكَّر صبري قليلًا ثم قال:

– ريِّسة، لسانها أطول من عمر عم خليل، يجيب ميدان الجيزة.

– حلو، طلعت فاهم.. ومن يلمّ الناس بعد زعيق ريِّسة ويجمعهم في دعاء واحد صوته عالي، ويذكرهم بحرمانية حرق بيوت الخلق وأن عبُّودة معه حق لو كنسهم من دفاتر الدنيا؟

– لم يبقَ غيره، الشيخ عبد المولى.

– جدع، عرفت وظيفة عم خليل يا صبري؟

سكت صبري يبتلع ريقه، ويخاف أن ينفي، فهزَّ رقبته بالإيجاب وقال:

– عرفت جنابك.

– جدع يا صبري، رُصْ الحجر.

وبيومي رأى قرش حشيش الصول وكفَّه الممدودة لقفا ابنه ووجهه وسائله عن اسمه وأصله وفصله ثم مبتسمًا لأبيه الذي قال:

– أوامرك يا صول كردي، عيوننا لخاطرك وخاطر الحكومة، كرم أكثر من أخ، وأنا وتحويش عمري تحت أمره وأمر زنقته لأجل خطوتك العزيزة.

ولمَّا خلَّص الصول كردي الموضوع مع علاء باشا بمعرفته، وبات المكان جاهزًا لاستقبال كرم ومشروعه وطاولاته وأجهزته السوني، كان أول ما دخل جيبه هو نصف دين بيومي لكرم مع قولٍ قاطعٍ لكرم بأن يمشِّي حاله بما تبقى لأنه لم يبذل كل هذا المجهود لأجل سواد عيون أمه.

– ولو أنه لا مانع عندي أن أتعرَّف على الكونتيسة ويبقى زيتنا في دقيقنا.. ساعة الحظ لا يفوِّتها إلا جاحد.

ثم اكتمل الأمر في أسبوعين بإعادة افتتاح محل كرم المسيحي للأتاري والبلياردو والبنج والفيديو، مع نصف الإيراد للصول كردي عكس ما كان متفقًا عليه بربع الإيراد لأن الصول لا بد أن يُسكِّت من فوقه وحوله ليتركوا المحل في حاله.

– وأنت فاهم طبعًا يا روح أمك، قُلْ لي، عيالك بخير؟

***

– نسرق لنعلِّم عيالنا ختمة ربنا يعني يا شيخ عَبْمَوْلى؟ حتى كلام ربنا تقبضون قصاده فلوسًا؟

قالها حمادة الشيشيني للشيخ عبد المَوْلى الذي قرَّر فجأة رفع مقابل الكُتَّاب لأربعين جنيهًا على الرأس شهريًا بدلًا من عشرين. جاء على صرخة ولده المبطوح فوق عينه من ضربة لوح الإمام، والدم يُبَقِّع السجَّاد الباهت تبرُّع البيه، فحمَّر –حمادة– خدَّ وقفا ابنه لأنه سبَّ ميتين الشيخ:

– خلاص، تعالَ أنت اصرف عليَّ يا حمادة، نأكل ترابًا لأننا نُعلِّم كلام ربنا، إذا كان هذا يرضيكم، أنا لحم ودم مثلكم، لازم أستكفي لأتفرَّغ لتعليم البهائم الصغار الذين تجرُّونهم من أقفيتهم للدنيا كأنها فُرجَة. ثم، ثُم ربِّ ابنك أولًا يا أخي، الولد يشتمني، يقول أنت حرامي وابن كذا يا سيدنا، أبويا لو باعني لن أجيب أربعين جنيهًا يا سيدنا، في بيت ربنا وأنا في عزّ تلاوة المصحف، شُفْ التربية النجسة، وبعدين تقولون يأخذ فلوسًا لا يستحقها، أنت عارف المجهود المبذول لأعَلِّم عيِّل ناقص مثل هذا مصحف ربنا؟ يا جماعة اتقوا الله.

– تصدق بمن يا شيخ عَبْمَوْلى؟ ورب العباد الولد عنده حق، ولولا أننا في بيت ربنا ولولا أنك شيخ، كنتُ خَلَّيته فتح عينيك على بعض.

– عيب يا حمادة، أنت انْخَبَلْت؟ أنت تكلِّم شيخًا وليس صاحبك في الغرزة. يعني قادر يدعو دعوة يفلقك نصفين، اخزِ الشيطان، خُذ ابنك

وامشِ، رُح الصيدلية لمجدي يشوف لك صِرفة، وصلِّ على النبي.

قالها عليوة البنَّا مُهدِّئًا الرجل وخارجًا به من باب الزاوية، قبل أن يعود للشيخ عبد المولى ماسكَ مسبحته المستغفر يقول:

– بلا مؤاخذة يا سيدنا، رجل قلبه عِكر، ربَّاه غير أبوه، زوج أمه، لأجل ذلك تلاقيه أعمى في الأصول، يمشي يُطبِّش فيها، أي تربية لا أب فيها تتركك عِريانًا في الهِوّ باقي عمرك بلا مؤاخذة. معذور.

– ربنا يهديه يا عليوة، آخرة المعروف مع الناقص، يمشي يوقِّع سفالة خلفه ويسيب خلق الله تدوس فيها.

ومجدي الدكتور قد قَلَب الصيدلية كعادته كل يوم اثنين، في اليوم الذي لا يجيء فيه الدكتور محمد عماد لانشغاله بدوامٍ طويل في وظيفته الحكومية بمستشفى العجوزة. كان قد بدأ يُستِّف العلاج الذي يبيعه لحسابه، يفرط المسكنات وأدوية المِعدة لأقراص مُفردة يسقط منها تاريخ صلاحيتها مع شفرَتَي مقصِّه، ثم يخرج من حقيبة يده الأدوية الأخرى واضعًا إياها في الصفوف الأولى القريبة من اليد ويفرطها كذلك في شرائط لا يلحظ تاريخها إلا أحدٌ من أهل المهنة.

– التاريخ هذه المرة منتهٍ من مدة بعيدة بعض الشيء يا دكتور مجدي، أنا معك، لكن السعر الذي قلته معناه أنني أبيع بخسارة، لا يرضي ربنا، حتى أطلّع ثمن مواصلاتي وخمسينة الشاي على القهوة وأنا في انتظارك يا جدع.

قالها رأفت رمضان، تاجر الشنطة الذي يجلب له تالف المستودعات وشركات التوزيع، يُدَبِّر الأدوية المنتهية بمعرفته وبتوافق المصالح وبالسعر المخسوف، ثم يوزِّعها على الصيدليات القريبة من العشوائيات والبعيدة عن التفتيش الصحي.

– كله بثمنه يا عم رأفت، أنت وفَّرتَ عليّ الفصال هذه المرة، قلتها

بنفسك، تاريخ مُنتهٍ من مدة بعيدة، وسآخذ الكمية كلها، شُف أنت بنباهتك معنى هذا، أنا أخلِّصك من جناية، يعني أعمل لك خدمة المفروض، هزّْ السعر حبتين، السعر الذي قلتُه لك وآخذ كل الكمية.

– أمري لله، ربنا يعوَّض علينا.

– علينا وعليك يا حبيبي. واسمع، من اليوم ورَّد لي أي كمية من أي علاج مُنتَهٍ يجيلك.

– أي كمية!

– أي كمية!

– سلام عليكم.

انتبها لها فارتبكا ثم انتبه مجدي يردُّ باشًّا:

– وعليكم السلام يا حاج حمادة، تفضَّل. ألف سلامة لفهمي، ما له؟

***

أما شوقي عبد الحافظ فهو لا علاقة له بكونك ابن منطقته أم بلده أم ابن الجن الأزرق، هو وصل لهذه المكانة المرموقة كموظف سجل مدني بعرق جبينه، ولم يشاركه السير أي عرق لأي جبين آخر من أهل الكوم النيام على بطونهم، لم يساعده أحد ولم يعطف عليه أحد حين كان يطفح الدم عملًا ودراسة، هو لا يعتبر عطايا عم خليل القديمة أكثر من قروش كان لا بد له أن يخرجها كزكاة وصدقة بدلًا من أن يُغمَس في غضب ربنا وكرب العيشة، ولا يعتبر ربت أم جمال على ظهره مع تقديم الشاي الكشري له ولجمال أمام عتبة البيت أكثر من قضاء واجب إجباري للضيف صديق ابنها الوحيد، وحتى شرائط تسجيلات الشيخ كشك وتفسير الشعراوي اللذان نصحه بهما الشيخ سلامة الله يرحمه وأقرضه بعضها اعتبرها أنانيةً من الرجل لأنه أحب أن يشاركه الثواب تارة، ولأنه لم يقرضها

له كاملةً تارةً أخرى، لقد رشحهما لمصلحةٍ ولم يفعل لوجه الله.

على كل حالٍ فهو أكثر من يهتم بتفاصيل ورق الحكومة وضرورة اكتماله لكل مريدٍ لمستند حكومي، لا يهتم بتعليقات البعض أنه "لن يرد على جنة" أو "أنه موقف المراكب السائرة" أو "الله ينتقم منك" أو "لمَّا أرجع أقولهم يختمون ثانيةً لأن الختم غير واضح تكونون قفلتم وأنا محتاجه ضروري اليوم" ، هو يحب أن يمسك للجميع على الواحدة لأنها أمانة يتقاضى عليها أجرًا من الدولة، يكره الرشوة ويُجرّس من يحاول أن يسيّر أموره معها بها ويُفرّج عليه الخلق كبيرًا وصغيرًا، ولا يمضي يوم إلا وهو حامدٌ لله لأنه نصره على نفسه الأمَّارة بالسوء، وعلى المستهترين الذين لا يلتزمون بصف الدور، وعلى الفسدة الذين يريدون إتمام أمورهم دون ختمٍ واضح.

وكالعادة فإن عم خليل يُفرقِع أُبَّهتَك كما يفرقع أصابعه بعد الاتكاء والنوم، عجوزٌ قارح وبطنه تهدم الطعام وزلط الطريق والحكايات والتعالي و"الأنزحة" الفارغة لأجدع جدع بجملة أو تذكير بموقف لك أو لأبيك أو لأمك أو سليل جدودك الذين لا تعرفهم، ويعرف هو مواقف دونيتهم وفضائحهم بشكلٍ يجعلك عبدَه، أو حتى نداء مجلجل يُحفَظ بعده في النكات ويُحفَظ بذاكرة أعدائك يخرجونه ساعة العراك كسلاح معايرة فتَّاك يساهم في إمالة الكفة إليهم، هو يتناولك لا يخاطبك، لا طاقة لديه ولا وقت ليقيم معك حديثًا حول شيءٍ لا يحبه هو.

أي شيءٍ لا يحبه عليك ألا تحبه مثله؛ لأنه ابن السنين والسفر وكناسة ظهرية الشوارع وشغل الأبالسة، بينما أنت لا تزال تعتاد طعمًا للعالم غير لبن الرضاعة، سمُّه وموته أن تخالفه في مسألة تختص بالشأن العام أو واقع المعاش، أنت لا تعرف مصلحتك وستغرقنا كلنا في ستين داهية بحنجورية فارغة، وآراء عن العدالة والتأمين الطبي وقوانين العمل وحقوق

الإنسان والهباب الأغبر على دماغك، وتروح تقلد الأمريكان أولاد الكلب الذين لا يستبرئون من بولتهم ويُربُّون الكلاب النجسة مع العيال حَنَكًا بحَنَك، الحل عند عم خليل أن تعافيه بالعافية و "ربنا يعطيك الصحة" وانتهينا، وما غير ذلك فلا أحد مسئول عن أي إهدار لكرامة أو تسفيه لرأيك أو أنت بشكلٍ عام.

الأستاذ سيد كان استثناءً لم يفهمه أحد، وربما ولا عم خليل نفسه، لا يسلم من غضبة العجوز ولا من لسانه في أحايين كثيرة، لكنه يحب أن يسمع منه آراءه وحكاياته التي قرأها في كتب العملاء أولاد الهرمة الذين يشوهون صورة البلد والزعماء ويريدونها حلة وملعقتين وحبل غسيل، رغم ذلك فإنه ما يلبث أن تهدأ ثورته عليهم وعليه حتى يطلب المزيد من حواديت الكتب والروايات وأحاديث القاهرة القديمة عند محفوظ وتعريجات الريف الغابر عند شلبي وما طوته صفحات محمد فريد أبو حديد من قصص مصر الطربوش والملاءة اللف وال"أبو تعريفة مدمس" وروقان البال، هذا العجوز لو كان متعلمًا لصنع من تاريخ كوم (أبو جامع) حدوتةً تتفرج عليها حارات نجيب ومدقَّات خيري وسفريات جودة السحَّار من جانب المسرح، وجانب الجمهور، وجانب التصفيق، وجانب العِيشة وعائشيها.

لكن شاء القدر أن يجعله سمَّاعًا حكَّاءَ لسان، وشهَّادًا يروي فوق المصطبة وأكواب الشاي الكوبياء وميل عصاه بنت الأصول وبنت المسند المقلوَظ، أستاذ سيد كان يحب هذا كله، يحب جلسته وما وراءها من تناقضٍ حول كل شيء وسخطٍ مصبوبٍ على كل شيء، ورغم اختلافهما اختلاف الشامي والمغربي حول كل الحقائق، إلا أن اتفاقهما كان على أن شوقي عبد الحافظ وُلِدَ في الليلة التي أصيب فيها إبليس

بالإسهال –الله يكرمك– فهرب الولد من خلاله إلى العالم والمخاليق محملًا بالإبليسية والنتانة، ولم يتخلَّ يومًا عن أصله الواطئ كما يؤكد عم خليل ويقسم طلاقًا ثلاثة "من لا أحد" أن روايته صحيحة لا مجال فيها لشك أو مراجعات.

وشوقي كان يؤكد مقالاتهم بشكلٍ ما، كان يؤمن أن العشب دائمًا أكثر على الشاطئ المقابل، ومن السفه والغباء أن يمنعك الماء من الحصول، دائمًا هناك طريقة ما للعبور بالمنجل والرغبة والفم وأغاني أنفار الجَمْع. مثل شاي القوالح هو، القليل منه يسلطنك أو يرفع ضغطك ليتلقاه الموت الناظر من أعلى الجلسة وفوق الكِيف، هو ذو قدرة جهنمية على تخليص المواضيع التي على مزاجه دون رشوة أو غيره، أو وضع العقدة في أي منشار مستعجل على مصلحته ويريد أن يخلِّص أموره كأنها زريبة على حد قوله، ولا أحد استطاع تفسير منبت هذه الرغبة أو بوصلة هذا المزاج طوال سنوات عمله.

لمَّا ذهب أستاذ سيد لعمل بدل فاقد لرقمه القومي ساءَ شوقي أنه لم يُعطِهِ وجهًا لأهميته ولم يتودَّده ليُخلِّص له أموره في السجل أو من خلال اتصالاته بعساكر القسم القريب لإنجاز محضر الفقد، رغم أنه كان سيرفض ذلك ويبالغ في التعاظم عليه، ورغم أنه في العادة لا يلتفت لكل أهل الكوم ولو حتى المتعلم فيهم، ولا يهمه أن يستعينوا بالجن الأزرق أو رئاسة الوزراء ما دام الأمر لا يُصدِّع رأسه، لكن لجوء أستاذ سيد لموظف آخر وتخليص المحضر بنفسه وانتظار الدور كبقية السواد هذه المرة تحديدًا جعله يتقلَّب مثل فولة وحيدة منسية في النار لأول مرة، ولا يدري أحدٌ لماذا، حتى هو، وربما يفسِّر هذا تأخير استلام الرجل لرقمه القومي الجديد ثلاثة أسابيع إضافية ظن فيها شوقي أنها ربَّته الربابة اللازمة.

***

جدتها لأبيها كانت تقول أنها مثل كبَّاس الباجور "فاكر الباجور سيده، والباجور من غيره بلا رجله ولا إيده".. كانت تقول وهي تُعمِّر الباجور النحاس الباقي من جهازها القديم مع أشياء أخرى لم تبلى البلية كلها بعد. النيران الزرقاء المنتهية بالبرتقالي التي تحقن بالدفء هواء المندرة المسقوفة بجذوع النخل والخشب، والصوت الذي يغلي معه الشاي والطمأنينة ويلغي كل نداءات الخارج على أبيها وأمها وأخيها من الجيران والجارات، جدتها أخت السبعين التي حدثتها كثيرًا عن ذكريات التابوت، ومدق الحمير، وحمولات البرسيم والقمح والجراوة، وجدها الذي كان طولًا بعرض، وأيام جمع الخيار وأكله مباشرةً بعد مسحه دون غسيل في أيام الخير، قبل أن يهاجم الكيماوي و"الرش" جيلهم الذي لا يعلم به إلا ربنا. كانت تطالبها على الدوام ألا تستسلم لأحدٍ مهما يكن من الزمن ومهما دسَّت بها الحياة في بالوعتها، جمالها الفائر وسحر أنوثتها مستعجل الظهور الثائر حفَّزا الجدة لتكرار نصحها ألا تكتفي بدور كبَّاس الباجور الذي يخدم ويُسيِّر مركب الشاي والدفء وحواديت السهرة، ثم يلقونه جانبًا غرقانًا في جازه ملتفين حول صاحب الصوت العالي وبريق النار التي أنشأها هو –الكبَّاس– لدفء الخارج بمد اليد فوقه وحواليه ودفء الجوف ب"التلقيمة الضبط".

وعليه فإن سنية السباعي لم تنسَ قط رفض جدتها لكل العرسان الذين تقدَّموا للبنت وحيدة عبد الفتاح السباعي، وأجبرت أمها أن تبلع البلغة القديمة سكوتًا وهي ترى حال البنت يقف ويركبها الفقر، وحين ماتت الجدة وهي تلعن أمها التي خطفت ابنها وكانت تريد خطف عياله لولا أنها كانت ناصحة ومفتحة عينيها، وافقت الأم على إسماعيل ابن كارم صاحب ماكينة الطحين وكان أول من تقدَّم لخطبتها بعد أربعين الحاجة سَكينة –الله يجحمها كانت مَرَة نكد– كما تصفها أمها، وأتبعتها بزغرودة

لم تستحي فيها أو تضع بعينيها وعين بجاحتها حصوة ملح وحماتها لم تبرد جثتها بعد، كما تهامس النسوة ساعتها. ثم حين طوتها سنواتها للثلاثين وحدث ما حدث من فضيحة زوجها المتحرش بحرم عاكف أفندي مدرس اللغة العربية بالمعهد الديني، وانكب الدم بين العائلتين منتهيًا بمقتل إسماعيل وعاكف وأخيه، وإحراق حماتها لشعرها قبل أن تلمَّ عليها الناس، وهو الشيء الوحيد الذي طالته منها لأنها لم تكفِ ابنها، وجعلته ينظر للتي تسوى والتي لا تسوى، ثم قادته للموت ووقوع الرجال في بعض وخراب البيوت، هربت سنية في تويوتا حمادة أبو سليمان خفيةً من الجميع إلى القاهرة، بعدما أقسم أبوها وأخوها على دفنها حية لمَّا تصاعدت روايات عن علاقتها بعاكف أفندي، وأن زوجها كان يرد الصفعة لغريمه ليس أكثر، وعدت حمادة أنها لن تنسَى جميلَه مدى معاشها، قبل أن تستسلم له لأنه هدَّدها بكشف مكانها إن لم تمكِّنه من نفسها لأنه لا يفعل شيئًا لوجه الله، ولن يعمل فيها أبا حنيفة النعمان، ثم آواها الكوم بعد عدة أسابيع فوق الأرصفة ولم يفعل سنترال كليك الواقع خلف مستشفى مبرّة مصر القديمة ويطل على سيارات ومشاة نفق الملك الصالح خاصةً الإناث منهم، وحين غطَّاها عم خليل بحجرة دفع مقدمها لستة شهور قادمة لم يفعل عماد مارادونا –صاحب السنترال– شيئًا سوى تعريتها مقابل بقاء معدتها دون قرقرة جوع، وجسدها دون طقطقة برد، وحافظتها بشيءٍ غير صورتها في الإعدادية التي تقاعدت بعدها وصورة جدتها المرحومة. ولمَّا سقطت عنها آخر قشور تحملها وجعلت من عماد عبرة تحت مداسها ولسانها عندما طالبها بالخضوع ل"سبوبة" حلوة من الشيخ عبد الله الكويتي، لم تجد بعد ذلك ما يكفي المعدة والجسد والحافظة ولم تشأ صبرًا ليفكَّها الله بالحلال، نثرت نفسها على موائد الكبار وفُرُشِهم لعامٍ واحد وطَّدت فيه ما أمكنها توطيده من علاقات، بعدما لفظها ولفظَ

ندمها عماد مارادونا عند عودتها إليه، ثم أقسمت ألا يلمس جسدها أحد من أبناء الكلب حتى لو بمال قارون، وأن تكتفي بتوريد اللحم المؤنث لمريديه من الكبار ولعباتهم السياسية والاجتماعية والكيدية كواسطة خير ليس إلا، مع إنشاء فرع "حلال" لعملها بتوريد القاصرات من جنوب الجيزة وألف مسكن وبين السرايات لزواج الشيوخ المتصابينَ من الخليج، في صفقةٍ تنقلُ أسرَهُنَّ من النوم نصف بطن للنوم بأحلامٍ يُعَلُّون فيها خرسانة ثلاثةَ أدوار تحتهم محل يؤجر. وفي خلال ثمانية أعوام فقط أصبحت سنية هانم السباعي نارًا على علم، لكنها لم تسلم من مكائد عماد مارادونا الذي كبر معها بالتوازي وإن تفوَّق هو بالكيف وتفوَّقت هي بجودة اللحم، لم تغادر الكوم لتستطيع التقاط الفتيات المحطمات من أمثالها قديمًا بعد التويوتا والسنترال ونفق الملك الصالح، وتدويرهن في السلك البطَّال؛ لكنها مؤخرًا أصبحت صاحبة دماغ دوَّار بالحيرة بعدما شذَّت طلبات البهوات، وأصبحوا يملُّون اللحم المستسلم الراغب ويريدون التغيير للحم المخطوف المجبر، بات عليها أن تعمل خاطفةَ فتيات ونساء أيضًا وإلا ركد سوقها وعلاها عماد بدرجات.

لمَّا فاتحها عبُّودة في موضوع الزواج وكان قد حفظ مسبقًا كلماتٍ أعدَّها له صبري المزين عن الحب واللوعة جمَّعها من عدة أفلامٍ مرَّت به وبصالونه الضيق، فاجأته بطبيعة مهرها؛ عشرين فتاةً وامرأةً يخطِّفهُنَّ لها بين العشرين والخامسة والثلاثين من مختلف الطبقات وألوان الحريم، انعقد لسانه كجنزير دراجة الأسطى منسي وقِفل "جادونها" بعامود ورشته، لكن ما ظهر منها عن عمدها من زينةٍ وذهبٍ وأبَّهةٍ وأنوثة قد جعلوه يبدأ في إعداد الخطة المناسبة للتنفيذ، المهم أنه نال القبول المبدئي.

***

– صوتها مثل الإفطار الحلو يا عم سيد، لا لا، الإفطار الحلو مثل صوتها.. أنا أحب الصوت الحلو وحياة واللبن الرائب، إنهم يعومون في قلبي، ولا تسألني عن سبب قول ذلك، أنت متعلم ومتنور وتفهم أن الحب حاجة حلوة ولا تحتاج صِوان ولا ميكروفون زاوية، أنا أحبهم هكذا بدون مناسبة وأقول ذلك بدون مناسبة، وأي نفر يعترض على ذلك يكون بهيمة، "سبَّحَت لله في العش الطيور" حلوة وتجعلني مثل اليمامة، أرفرف بيدي يمكن أطير وأكون مقصودًا بكلام الرجل الكُمَّل صاحب الصوت المبلول بالصبح وحنيّة الفطور، ربك والحق هذا الابتهال في راديو الصُّبحية هو الحسنة الوحيدة لعم خليل، أنه يُشغِّل الراديو بعد الفجر ويجعلني أستمع لهذا كله، ولا أنكر أن أم جمال عندها لبن رائب يحلّ من حبل المشنقة رغم أنها تطعمني صباحًا وتدعي بعد الظهر أن تفرمني سيارة أجرة القاهرة–كفر الشيخ مثل التي كانت تنقلها لأهلها في شبابها قبل ثلاثمائة سنة. المهم اللبن –خبط على كرشه الصغير– لكن حياة بنت تستأهل الحرق بجاز، تعرف أنني أحبها وأريد أن يكتب كتابنا الشيخ عبد المولى قبل أن يتوكل على الله ويموت؛ لأنه لا شيخ غيره هنا، ولو مات قبل أن يكتب كتابنا ستكون مصيبة سوداء، لكن حياة تحب الكبدة والعنزة ومحمد أبو الدهب أكثر مني، تصوَّر أنه يلفت نظرها أن ينشع جدار بيتهم أو أن يتوسَّخ ذيل فستانها ولا ألفت نظرها أنا كلي على بعضي؟ شُفت السفالة يا أستاذ سيد؟ مرة أعطيتها قُلة مقروء عليها، قلة من زمزم، خطفتها من أهل ميت هنا كانوا يرشُونها على قبره وجَرَيْت، قلت بطن حياة أهم، تشرب وتتبارك، لكنها قالت أنها تريد غزل البنات وتركتني ومشت، البنت خلاص خلعت برقع الحياء، دماغ نسوان بعيد عنك، لكن والختمة الشريفة ادَّخرت واشتريت لها، فَرِحَت بصراحة وأنا فرحت لفرحتها، لكنها رجعت تحب العنزة أكثر مني، حاجة تفرس، لا

أعلم هل أسامحها على كل شيء لأنني أحبها، أم لا أسامحها على أي شيء لأنني أحبها. مخي من كثرة التفكير أصبح مثل مخ عم خليل، خربان مثل سلك فرامل موتوسيكل عوض النقَّاش ويمكنه أن يدهس أجدع جدع في ثانية، لكن وكتاب الله المجيد ما أتركها إلا وهي زوجتي على سنة الله ورسوله ومذهب الإمام.. إإ.. الإمام.. الإمام وخلاص، المهم.. لازم تفاتح لي خالتي رؤوفة في الموضوع يا أستاذ سيد ولك الحلاوة، سأخطف لك قلة ثانية، أنت رجل ملء هدومك وعندك كتب كثيرة أكيد فيها كتاب أو اثنين عن طرق مفاتحة خالتي رؤوفة لزواج رُحَيِّم من حياة على سنة الله ورسوله ومذهب الإمام، بالتأكيد تقدر تتفاهم معها وتفهم كيد النساء أكثر مني.

أنهى رُحَيِّم كلامه ثم وجد فردة حذاء مقلوبة فهرول لاعتدالها ناظرًا للسماء كأنه يوجه اعتذارًا لتأخره، أو يلتمس عذرًا أنه لم يرَه إلا اللحظة، رُحَيِّم يتيم الكوم الذي أتى أتوبيس النقل العام على خبر أبيه وأمه كان وجهة عطف الكوم كله كبيرً وصغيرًا، كل بيوت الكوم تَسَعُهُ ينام في أحدها أو يأكل في أحدها دون حرج أو استغراب كأنه ابن الجميع، حين حكى لأستاذ سيد لواعجه ومفهوم الحب عنده لم يُبدِ الرجل أي استصغار له خارجيًا واستمع بكامل اهتمامه وحواسه، وإن كان يبتسم في داخله لكل حكي الطفل ابن الحادية عشرة عن هذا كله بما التقطه من ألسنة الكبار زوَّارًا وأهالٍ أثناء تجواله الطويل غير المحسوس بين الجلسات، قد كان مثله يومًا، تقف حياته على حب صوتٍ وأكلةٍ وفتاة تحب غزل البنات والماعز أكثر منه، يتفقد الطرقات بحثًا عن قطعة خبزٍ جافة يقبّلها ويضع حذاء الحائط مستغفرًا ليمنَّ الله عليه بالصغيرة حلمه لأنه عمل معروفًا ويستحق المكافأة، يغسل فمه قبل النوم وإن لم يأكل كي لا يمر برص على أسنانه وهو نائمٌ ويُنجَّس صلاته وأدعيته، أو يعدل الأحذية المقلوبة

ويقدم اعتذاراته وحبه للسماء معتذرًا عن الجنس البشري في عمومه، كيف كنا هكذا وكيف أصبحنا هكذا، وكم شيئًا أسقطناه في الرحلة أوصلنا لهذا كله؟.. سأل نفسه.

***

صبري بات رفيقًا للصول كردي كبيادته، يجتمعان في نبطشيات الصول وعساكره في حراسة المشروع، ويجلسان إلى الليل المُنَوَّر من بعيد يُجَرِّي الضوضاء على طريق صلاح سالم، ويدحرج العتمة إلى ظهريهما حيث مطارح الكوم المطرطشة على سطح السواد خلفهما. يُوَلِّعان خشبًا في قصعة مونة، ويُقسِّم صبري حركته بين طبخ الشاي عليها، وتسهير الفحم على شيشة الصول القاعدة على حجرين من أحجار البناء. سمع تعليمات سيده وحفظها أكثر من اسمه، وعلَّمت في ذاكرته أكثر من تعليمات أصابع الأخير على قفاه كالمعتاد.

– تنتشر بين أهل الكوم كالجرادة، أريدك أن تكون أثقل عليهم من روائح مجاريهم وملابسهم، ملازمهم أربعًا وعشرين ساعة، وأخفَّ من وجود الزفر في أطباقهم، يعني تلدغ وتجري وتفضل لدغتك معلِّمة في أبدانهم، تنشر بينهم أن الأرض التي دكَّها الزلزال وأُزيلت جثث من فيها ولم تُزَل أنقاض الطوب اللبِن والخشب والتعريشات وكل ما لا يصلح للسرقة والاستهلاك والتخزين في البيوت سوف يصبح ملكًا بوضع اليد؛ لأن أرض الكوم كلها ليس لها عقود ولا حُجج ولا زفت على رؤوسكم، قُل أن الحكومة ليس في دماغها أن تهتم بأرض في آخر الدنيا وملآنة بالهدد وروائح الجثث والجِيف وعندها ما يكفيها من الهم والنكد والصحراء، كل من يطول شبرًا وينظفه ويضع به عصا حتى عليها اسمه ستصبح ملكه بشرط دفع بسيط من تحت الترابيزة لناس معرفة الصول كردي الذي سيخلِّص كل حاجة من فوق بمعرفته، ويكف أيادي العساكر عن الضرب وعيون الحكومة

عن الرؤية، الوساطة ستكون عند كرم المسيحي الذي سيجمع الفلوس ويسلمها، لا مَن شاف ولا من درى. تنشر كل الكلام بالحرف من غير غباوة وبالطريقة الناعمة التي تجعلهم يحسون أنك تعمل معهم واجبًا، تُقل المجاري وخفِّية الزَفر واللدغة.. فهمت يا ابن العبيطة؟

– حصل يا قائد القوَّات.

الأحلام التي لعبت برؤوس أهل الكوم بعد تفشِّي قولات صبري ولدغاته فيهم لم تدعْ نومًا ينِخُّ عليهم وعلى شقائهم طوال النهار، سَلْسَلَتْهُم فكرة تملُّك أرضٍ ولو مترين في مترين يعملونها غرفة، ويؤجرونها لعالم نظيفة مثل الأستاذ إبراهيم أو الأستاذ سيد، أو حتى عالم حَوَش مثل بقية الأهالي، ويصبحون أصحاب ملك يُدِرُّ عليهم ملاليم شهرية، تضيف اللحم المدهنن أو هياكل الطيور أو التخديعة أو البصل بصورةٍ أخرى يمسُّه فيها النار لموائدهم بشكلٍ أكبر ولا تُشخِّر له المعدات التي يُحكى عنها في الأساطير أنها تهضم الزلط ولم تعد كذلك، أو تضيف بطانية أو اثنتين وبعض الصوف وولعة البوتاجازات الغاز أمُّ عين واحدة للشتاء القادم والزمهرير الزاحف من تحت الأبواب وبين ثنايا تعريشات السقف.

البعض ذهب بطموحه لعمل محل كشري أو فرشة ملابس حريمي وفانلات الزمالك والأهلي وريال مدريد ومنتخب الأرجنتين بالأرقام المطبوعةِ على الظهر، رخيصة للعيال التي تشبط في الجديد، أو حتى محل طعمية يقعد صبَّاحي في البيت لأجل يسكت عن الإفتراء، في النهاية تصارع العفيجية من أهل الكوم في إزالة أنقاض الزلزال وترسيم حدود تُمسَح ويُعاد رسمها بدمِ أضعف المتعارِكَيْن وكرامته ومقطوع ملابسه في الخناقة، ولمَّا اكتملت فلوس حجز المِلك عند كرم بعقود ابتدائية مختومة بالنسر وبصماتهم ومبالغهم المجلوبة من تحويشاتهم أو

بيعهم ما تيسر بيعه أو طلعات سرقاتهم ونشلهم بعد السماع بالموضوع نواحي منيل الروضة وقصر العيني وشارع عبد العزيز آل سعود، فوجِئوا بعساكر الداخلية تُحَوِّط الأرض التي طالتها الهزة وأصبحت تلمع بفراغها من الأنقاض والعَفش، بينما كرم المسيحي يحمر قفاه من ضرب الصول كردي لأنه افترى عليه وجمع أموالًا باسمه ورميه بالبوكس والكلبشات لاقتياده إلى حيث يحاسَب بجريمة النصب وجمع أموال عامة.

***

سعيد الجندي أقسم لزينب مائة يمين أنه لا يستغفلها ولا يقدر على ذلك، مزاجه لم يكن صاحيًا حين هاتفَته وأغلق بوجهها الهاتف بعد ثوانٍ، والأصوات الحريمي بجانبه لم تكن إلا تهيؤات غيرتها عليه كما أكَّد، ولأنها طيبة وبنت حلال مُصفًّى تجدها الشياطين فرصةً سهلةً لزرع الوساوس برأسها، لكنه أكَّدَ في الوقت ذاته أن رأسها هذا الذي يزن بلدًا لا بد أنه مدركٌ حقيقةَ حبه العذري المعلوم من المنطق والواقع بالضرورة، لمَّا أصرَّ على مصالحتها تكفيرًا عن الذنب وإثباتًا لحسن النية والحب، حلف بالله ثلاثًا ألا تحرجه وترفض دعوته على العشاء في مائدة تحلف بها كل موائد "حبايب السيدة". وحين تمنَّعت زينب في البداية ثم سمعت "عليَّ الطلاق أبلع سُمًّا يهري بدني" تعليقًا على الرفض لم تملك إلا ابتسامةً لم تَصدِر صوتًا وسرورًا مُفاده أن أحدهم وجدها أخيرًا في الطريق فالتقطها وقبَّلها ووضعها حذاء الحائط حفظًا، ولم يدهسها كالبقية من الناظرين إليها في الطُرقِ والمعمل وأتوبيس النقل العام وسلالم أبراج الدقي.

– جدودنا قالوا الحق كله، الشيطان شاطر، لكن أنا زعلت منك يا زينب، زعلت والله. الشك مثل العكارة، مهما كانت صغيرة تخلِّيكِ ترمين شَرْبَة كاملة على طول ذراعك، حتى لو كانت عصير مانجة، لكن –ربك

والحق– قلبي برد لما رضيتِ، كأني سَدَدْتُ أقساط الميكروباص، لا والله أكثر.

ضحك وابتسمَت فاستطردَ بجديةٍ مفاجئة:

– أزوِّد لكِ لحمة؟

زينب كانت مسحوبة ومرمية عنده، وهو قد لفَّها بالكلام الذي كانت طوال عمرها لا تراه إلا في الفاترينات المتحركة من الناس والأفلامِ وفَشْرِ نساء الكوم عن شبابهم القديم قبل أيام الغبرة والحياة الواقفة في أزوارهن.

– شارع السد فيه قصة حياتي، شارع لا يمشي فيه التنابلة وأصحاب الجلد الناعم والحياة التي تأكل بالشوكة والسكين، عارفة يا زينب؟ أوقات أحسُّ أنه يحب قَشَفَ جلودنا ويمرهمه، شارع قلبه كبير ويحب أن يكون واسطة صلح بين الغلابة وبعضهم أو بين الغلابة والعيشة، الآن عرفتِ سبب أني صالحتك هنا. تعالي نحلّي.

قالها وهما يتمشيَّان تمشية الهضم قبل أن يعرج بها في نهاية كلامه على حلواني الكرنك. كان بائسًا أن تكون أقصى درجات حبها أن توضع حذاء حائطٍ ولا تُدهَس بوسط الطريق أو تُقضم بأضراس قطٍ ضال ثم تستقر بمعدته أو تُتفَل، لكن زينب التي هربت من افتراءِ أخيها ومخدِّراته قاتلةِ أبيه، ومن تهم الأستاذ عمرو بالفساد، ومن خلطات مجدي الدكتور، ومن لمزات النسوة عن عمرها ووحدتها وعيون الخلق في كل شبر، لن تنسى أبدًا ليلة شارع السد ودعوة سعيد الجندي وتالي الأيام، غير أن أحدًا لا يعلم إن كانت قد علمت لاحقًا –دون فائدة– قبل النهاية أن الحب الذي معناه التقاطٌ وقبلةٌ ورمية حذاء الحائط لا وسط الطريق ومعدات القطط.. هو "وسط الطريق ومعدات القطط" ذاته. ولو أنها قد حكت لأم جمال عن هذا كله لربما استطاعت النجاة بشيء.

لكن ربما لها بعض العذر بعدما تأكد الجميع أن شيئًا ما مرَّ بمخ

أم جمال، أو ربما.. بقلبها. التخلي عن الأسود بعد كل هذه السنين إلا في القميص المَلَس ليس علامة خير كما قالت ريّسة حين نادت "عيب الشؤم" كأنها تستنجد، حتى القميص المَلَسَ نفسه كان قد اعتاد مكانه بالنملية التي احتالت دولابًا منذ زمن واستحلى القعدة هناك بثقبين في ظهره وذيله أحدثتهما العثَّة، الجلباب القطيفة النبيتي وتربيعة الرأس بنقشة "دواير دواير" والامتناع عن الدعاء على رُحَيِّم مع الامتناع عن إطعامه اللبن الرائب، وعدم منح حياة حصتها من حلوى زينب كما السابق محتفظةً بها لنفسها، كل ذلك جعل عم خليل يقسم بأن المَرأة لبسها جن مجنون ولا بد يذهبوا بها للخانكة، ثم دعى الله بأن الطف يا لطيف وأحسن ختامنا وأخرجنا منها سالمين لا لنا ولا علينا، هي لم تعد متسامحة في كل قول كانت تسمعه قديمًا من ظانٍ أنها لا تسمعه بشأن خبلها ومخَّها الذي فوَّت بعد غرق وحيدها، كل تعليق يمر بها أصبحت تُرَكِّب صاحبه عفريتًا من صراخها وسبابها وتفرش له ملاءة قباحتها على الملأ، ماسحةً به وبسليل جدوده تراب الكوم، ورغم أن البعض ومنهم ريّسة قد سمعوا غير مرةٍ صوت دندنة غناء عندها وتأكدوا من ذلك حين جاهرت به أثناء جلسة العصاري على عتبة المنزل، إلا أنها لم تنسَ حصة جمال –رغم اختزالها– من دعائها وصلاتها التي اقتصرت على الفروض، مبررةً لنفسها ولزينب ولريّسة أن الحزن لن يعيد راحلًا، وأن صورة جمال التي كانت على الحائط واستبدلتها بصورةٍ لها قديمة ليست دلالة على نزول مكانته عندها لا سمح الله، ولكن المثل يقول الحي أبقى من الميت والحاضر أحق بالمناب من الغائب، وساعة لربك وساعة لقلبك، يعني عاجبكم عركة الحَوَش التي تُصدِّع رؤوسنا من صباحية ربنا مثلًا؟

– اهدأ يا عصب، أول مرة يركبك الشيطان وتتمعظم علينا، لا كبير عاجبك ولا صغير، اهدأ وكل شيء محلول بأمر الله.

– لا محلول ولا حزن، كفاية حمل سباخ على رؤوسنا، ما صدقنا ارتحنا من حمله في البلد حتى حملناه هنا في المخروبة، الكل شافني ابن كلب وقيمتي شتم من عيل صغير أو مداس من ولية قليلة الربابة ووضعنا نيلة في حنكنا وسكتنا لأجل لقمة العيش، لكن يطلع لي في المقدَّر ويطلب ببجاحة وقلة أصل يشاركني في الرزق المقسوم، لا السباخ أرحم. ويكون في علمه وعلمكم كبيرًا وصغيرًا، أي مخلوق شيطانه يهفُّه ويقول لي ربع كلمة فيها شتم أو قلة قيمة بعد ذلك سأعرِّفه مركزه وأساوي كرامته وكرامة الذين خلَّفوه بالأسفلت.

مدكور لم يتوقَّع أن تسير الأمور على هذا النحو مع عبد الجَيِّد ابن فرحات وهو المعروف بطيبته وهبله وهوانه على الناس وعدم الممانعة في الضرب بالبلغة القديمة من كل من هبَّ ودب، وليته اكتفى بالرفض السري، بل فرَّج عليه الناس وفضحه على رؤوس الجميع بصورة صدمته، بينما اكتفى هو بتهديد لم يأكل بعقل عبد الجَيِّد حلاوة كما حدث مع عليوة في السابق. عم خليل حَوْقَل واستعاذ بالله من الشيطان ابن الكلب الذي لم يتهيَّب حتى من دخول أحواش المقابر، ثم استطرد يلعن الكوم وأيامه الجديدة الهباب، كثرة السرقات في الأيام الماضية جعلت الجميع في حالة من التخبط يصعب معها احتمال أي زلة كانت معتادة فيما مضى، السرقات وصلت للعلن دون حياء وبات الحرامي لا يستحِي على دمه ولا يتحرَّج من الفعل، السرقات وصلت حتى خطف برطمان سكر من فرشة عليوة والجري كالرهوان، أو خطف رغيف طعمية من عيل أو مُسِن والجري بالمثل، أو خطف القُرَص والعجوة والتفاح الرخيص من رُوَّاد القرافة الذين جلبوه عطايا لمساكين ودروايش المقابر، أو حتى سرقة القليل من بيض الدجاج أو الدجاج نفسه من بعض أسطح الغُرف والبيوت مما اجتهد أصحابها في تربيته للتجارة الرخيصة أو سد الرمق

في أيام استعصاء العمل والرزق.

–الخلق أصبحت مستعدة تدخل جهنم ببيضة وملعقتين سكر، المسيخ الدجَّال سيأخذنا بالحضن لمَّا يجيء. كأن إبليس فكَّ حصرته في حلق الأهالي، الذي يحصل ليس شيئًا طبيعيًا أبدًا.

قال عم خليل لأستاذ سيد الذي خُطِفَ من حديثه باستغاثة شربات أم عبد الحي بائعة الكشري على صبيين خطفا كيسين كانت تعدهما لزبونين وشرعا في ثقبهما من أسفل وتناولهما ضاحكَيْن قبل الاختفاء بين شواهد القبور وزحام قارئي الفاتحة عليها. في حين زفر الأستاذ سيد مُحَوقِلًا يقول:

– هناك شيءٌ غريب حاصل، السرقة أصبحت عادة يومية مثل الأكل والشرب، لا يمكن أن يحصل هذا في يومٍ وليلة فجأة بدون سبب.

– يعني يكون أحد سحر لنا؟

قالها خالد العسقلاني ساخرًا يرشف شايًا ثم استطرد:

– كل الحكاية أن المعدة حكمت، واليد محكوم غلبان، والشيطان واسطة خير بينهما.

– الله يكون في عون الحكومة يا عم خالد، يعني يُمَوّتون أنفسهم ليرضى الناس؟ كفاية سابوا الناس تتنفس مجانًا. شعب جاحد ورافس للنعمة صحيح.

ضحك خالد فقال عم خليل:

– شُف البجاحة! ناقص ننادي الحكومة تشيل أقدامنا وتضعها في المداس، وتعيّن لكل مواطن عسكري يجيب له الفطور، ما للحكومة والشيطنة التي حلَت على ضمائر الناس؟ يعني يكبّفَك لو قبضوا على كل الأهالي ورموهم في السجن؟ يا ابني لا تُضحِّك الناس عليك، يقولون رجل متعلم قد الدنيا وحمار؟ يرضيك؟

– عندي اقتراح أحسن من السجن ويعجب الكل ويحل المشكلة، ما رأيك لو أكَّلونا يا عم خليل؟

قالها خالد فردَّ العجوز ضاربًا إياه بعصاه من بُعد:

– حتى أنت تتمقلَت عليَّ؟ خَلِّكْ وراءه وعُمْ على عومه، طَبِّشوا مع بعض في الكلام الهالك، قابلني لو فلحت أنتَ الآخر.

قالها عم خليل ثم طردهما كعادته، بينما يستعيد لقاءه الأخير مع البيه الذي صارحه أن عدد الشقق التي ستصرفها الحكومة سيقل لأن الميزانية لا تسمح، فقال العجوز أنه كله نظر وسيعرف كيف يتصرف في شقة له وهو مستعد أن يترك مطرحه في الكوم لعائلة من العائلات، التي سيهد المشروع بيتها على دماغها.

***

– مشروع التنمية طالب عمَّالًا بعقود.

قال صبري في القعدة عند سيد رزق فانتبه الكل من الشاي والكِيف والحواديت المنهوبة من البيوت وأفشاها المزاج ليستطرد:

– سمعت كلامًا من الصول كردي أنهم سيعملون استمارات تقديم والكل يقدِّم، والأولوية لأهل الكوم.

– لأهل الكوم؟ كُنَّا راضعين من جاموسة واحدة معه يعني ليعطينا امتيازات بريطانيا العظمى؟

قالها عليوة البنا بنصف سَطَل فعلا الضحك بينهم قبل أن يعود صبري للحديث:

– خيرًا تعمل شرًا تلقى.

– تتكلم وكأنه زوج أمك.

قال صبَّاحي وضحك ساحبًا نفسًا من لَيِّ الشيشة مستطردًا:

– خلِّ في علمك الحكومة لا تعمل شيئًا لله، الصول كردي يلعب

بالبيضة والحجر كما تلعب أنت بالكرة الجُلَّة، أكيد الموضوع فيه حفرة.

– وهل تقول فيها؟ والله وأكثر من البيضة والحجر، الحكومة ممكن تلعب بـ.. لا بلاها إباحة معنا عيال صغيرة، لمَّا يروح صبري أقول لكم.

انسكب الضحك مجددًا فقام صبري حانقًا يقول:

– الحق عليّ، لمَّا ينزل الإعلان ستبوسون قدمي لأملأ لكم الاستمارات.

– لماذا؟ أنت الوحيد الذي معه قلم جاف يعني؟

ضحكوا مجددًا فقال:

– لا أنا الوحيد الذي يقرأ ويكتب يا خفيف. خلِّ السَطل ينفعكم ويؤكلكم اللقمة.. جاءكم الهم.

في الصباح التالي فوجئ أهل الكوم بخبر طلب مشروع التنمية لعمَّال من كافة التخصصات في التسليح والحدادة والنجارة والسباكة، من يريد التقدم للوظيفة سيسحب استمارة من كشك وضعته المحافظة في مدخل شارع نخل السجر مقابل خمسين جنيهًا بخلاف الدمغات وفلوس تصوير البطاقة أو شهادة الميلاد، ومن لا يملك شهادة ميلاد فإن الحكومة ستوفر كشك آخر من السجل المدني لتطليع شهادة مستعجلة مقابل خمسين جنيهًا أخرى، الكل سارع بالتقديم وتدبير الجنيهات المائة –نظرًا لكون السواد الأعظم لا يملك شهادات ميلاد– وامتدت الطوابير من مدخل شارع القصر حتى آخر الساحة، الحديث عن امتيازات الشغل بعقد لخمس سنين هي مدة المشروع وتشطيبه، فلوس ثابتة ووجبة يومية وأُبَّهة متمثلة في كارنيه للدخول والخروج من المشروع يوميًا مما يتيح اكتشاف هويته، جعل الجميع يصبر على الحر والعرق وقلة القيمة ونزع المائة جنيه من لحم الحي، أو تدبيرها بالطرق المشروعة أو غيرها.

–جاءت لك مطبطبة، لا تكن كافرًا وترفص النعمة، اتقِ الله فينا يا رجل، العيال بطونها نشفت، كفاية وساخة. المائة جنيه أنا سأدفعها

وسنطفح ترابًا لآخر الشهر، أنا سأتصرَّف، خذها وقدِّم بها في الوظيفة.

قالتها ماجدة وهي تُغطِّس قماشًا في طبقٍ مملوءٍ بالماء البارد، وتفردُه على جبهة الصغير فهمي، بينما تُغيِّر ورق الجرائد الموضوع على صدره المُزَيَّت بزيت التموين بجرائد أخرى، وجرعة زيت إضافية شمَّت ولعة خفيفة من باجور الجاز تشفط السخونة من الصدر العيِّل.

– عليَّ الطلاق لو تكلَّمتِ في الموضوع مرةً ثانية ما لكِ عندي إلا بيت أبوكِ حرامي الجوامع، دماغي مفلوقة لوحدها، وتتلكَّك على فشِّ غلِّها.

كانت الحمى قد سحقَت الصغير وسحقَت قلبَ أمه معه، اكتفت ب"حسبي الله ونعم الوكيل" ثم قامت تُحضِّر طستًا تُرَنِّخُ فيه جسد الصغير، ريثما يفتح مجدي الدكتور الصيدليةَ في الصبح.

كل ما جمعته ماجدة بعد تقاعد حمادة الشيشيني كان كافيًا للجبن والفول الحيراتي والمكرونة "الأرديحي" على أزمنة تتفاوت ومصاريف مزاجه وبعض الشاي والسكر وهدمتين للعيال من ريسة كل حين تبلى فيه الهدوم القديمة، ولا ينفعها مزيد من الإبَر والخيط، مؤخرًا زادت طلبات سجائره وأصبح "يستنضف" حشيشه دون ممانعة في الدفع ولا حرص في الاستهلاك، ويُصبِّحها بعَلقة ويمسِّيها بمثلها إذا حاولت إخفاء نقودٍ للأكل أو الشرب أو دهان ركبتيْها وتنفيض ما بهما من خشونة.

في تلك الليلة التي أُعْجِبَت فيها الحمى بجسدِ فهمي ولم تنفع كل المياه الباردة التي غطَّسوه فيها عريانًا من طردها منه، لم يشأ حمادة أن يؤجل جلسة الرجال التي تنتظره في كشك عطيطو، مطمئنًا أنها نزلة وطالت كل العيال وستروح لحالها، بعدما سرق ما تبقى من فلوس في جلباب ماجدة المعلق أثناء انشغالها بالولد المحموم، لأنه لا يصح أن يجلس وسط الرجال بلا شيء في جيبه "الأمر ميسلمش" .. ولمَّا أفاق في الصباح من سطله على رائحة الرماد المبلول وتسميع انتهاء أثر خليط

الترامادول و"أبو صليبة" في ظهره، واكتشف أنه قد قضى الليلة عند عطيطو، صعقه الصراخ القادم من بيته وكثرة الباحثين عنه المنادين عليه المُعزِّين في ابنه الذي لم يفرح بشبابه بعد، ومع انتهاء الدفن الذي تكفَّل به عم خليل وفراغ البيت من المُعزِين، فوجئ بسميرة ابنة الأربع سنوات بلا أمها التي قالت له عنها أنها لم ترَها من صباحية ربنا.. وفي الليلة ذاتها لفَّت الكوم سيرة ماجدة الزحلان التي هربت تاركةً عيلة ابنة أربع سنوات وزوج مريض لا يعوله أحد وجثة ابنٍ لم يبرد دمه بعد، وفي الليلة ذاتها كانت سميرة متكوِّمة على باب الدار منتظرة أحدًا يؤنسها من عتمة الداخل بينما أبوها يتلقى عزاءً من نوعٍ خاص في كشك عطيطو.

***

"كل عين لا تبصر محبيها بنفس القدر الذي يبصرونها به؛ فالعمى بها أولى" حياة حين سمعت هذا من نافذة عارف أفندي يُحدِّث بها أحدًا أو شيئًا أو نفسه لم تفهم الكلام كله، كثيرًا ما سمعت من أمها ومن الجميع أنه رجلٌ يشوف نفسه على مخاليق ربنا ومجنون، غير أنها وإن لم يعنِها هذا قد أدركت أن الأحبة يتبادلون محبتهم بالقدر ذاته وإلا لا محبة بينهم، هكذا يكون الأمر، أو هكذا لا بد أن يكون.

الهانم وحَلواها ودُماها وعصائرها التي تردُّ الروح وتشرح القلب الحزين يحبونها بالقدر ذاته الذي تحبهم به من دون شك، تشعر بذلك في حلاوتهم، وهي إذ باتت ناقمةً على أمها لأنها قاطعت الهانم بسبب سبة واحدة ولم توفر لها معشار ما كانت توفره لها المرأة فهي لم تعد ترى سببًا واحدًا للبقاء وسط كل هذا الهم والغم والإهانات التي تبلعها وأمها، هي تحب الحلوى والدمى والتلفاز الملون، وترى فيهم الحب الحقيقي والحنان الأولى بالوفاء له، وهي إذ تجده من الهانم ولا تجده من أمها فهذا يعني أن الهانم تحبها أكثر وهي أجدر بالحب من رؤوفة العَجْرَة بدون شك، وحين

استوت الفكرة في رأس الصغيرة وأعيت بها قلبها قررت أخيرًا أن تربط حمار متعتها مطرح ما تحب بما أنها صاحبته الوحيدة، والمربط الوحيد الذي يليق به وبها هو مربط فريدة هانم، ستذهب إليها خفية وتطلب منها أن تسامح أمها وتعود لإعطائها ما اعتادت عليه من عطاياها ودُماها، وعندما حدَّثها بعض خوفٍ بها أنها لا تعرف الطريق تعطَّلت ثوانٍ قبل أن تقرر أن تسأل في هذا محمد أبو الدهب، ثم تراجعت خشية أن يخبر أمها وتُطيِّن عيشتها، فكان استقرارها في نهاية الأمر أن تسأل رُحَيِّم الذي لا يرفض لها طلبًا وجلب لها غزل البنات حين طلبته، هو عيل ابن رصيف والطريق شَقّه كما يقول عم خليل، وبالتالي له خبرة بالطرق المؤدية للشارع الذي تسكن به الهانم وبه شجر كثير كثيف وسيارات أُبَّهة مُغطاة أكثر من الناس في الكوم، كما أنها تستطيع أن تنتزع منه وعدًا ألا يُخبر أمها لقاء قطعة صغيرة من غزل البنات الذي يشتريه هو، إلا لو تنازل هو عنها طواعية لأنه عيل جدع. وإذا لم يُلبِّ لها هو الآخر ما تطلب، ستفاتح أبلة زينب في الموضوع وتعرض عليها أن تتنازل عن حصتها من الحلوى مرتين متتاليتين في سبيل ذلك، غير أنها تراجعت وقررت العودة لرُحَيِّم بعدما تذكَّرت أن أبلة زينب لم تعد تُرَى في حجرتهم ولا على عتبة خالة ريسة ولا شباك أم جمال إلا لمامًا وليس كما السابق.

لم تدرك الصغيرة اتساع رتق الحسرة في قلب زينب على راتق حبها، سبع ليالٍ من الزهد في الحديث إلى سعيد وكره نفسها زيدَت بثلاثٍ من محاولات الوصول إليه عبر هاتفها وشريفة، تلك عشرةٌ كاملةٌ ذاقت فيها كل ما يمكن أن تذوقه فتاة فاقدة ختمها وحلالَ مفتاحه، شريفةُ نصحتها بحل الموضوع بالتي هي أحسن بعيدًا عن الشوشرة وكبِّ الألسنة جائعة الفضائح في الكوم وخارجه، ستجد هي طريقةً لتجعله يكتب عليها

ويصلح عملته المهببة ويلم الدور بالحُسنى، ما انكسر يمكن إصلاحه، حتى اللِحام أصبحوا قادرين على إخفاء معالمه في الصاج والحديد، لا ينبغي أن تعمل من الحبة قبة وتفضح الدنيا، عليها فقط أن تمهلها عدة أيام تصل فيها للمخفي وتتكلم معه ويسوِّيها المولى.

– لفة الكيف الله يفحرها، عشَّقت في نافوخي عاشق ومعشوق ولا مُلِّة سرير الملك فؤاد، معقولة سعيد الجندي صاحب السمعة البرلنت يعمل عملة طين مثل هذه؟ ومع من؟ مع زينب؟ زينب أمنيته من الدنيا؟ أعمى وأقطع النفس ويلمُّون جثتي من على الأسفلت بسكينة معجون لو كنت في وعيي ساعتها.

– سعيد يا جندي، أنا شريفة بنت شحَّات، يعني تعجنك وتخبزك وتبيعك بقرشين صاغ على حزمتين جرجير وطبق مِش بدوده، تكلمني وعرقك مَرَقك وتقول لي كلمتين يضحِّكون العيال الصغيرة أعرَف أزحَّفَك وأجعلك مُسخَة، الكل يعرف أنك تأكل السحت وتسرق كسوة الكعبة لو تحت يدك، نتكلم مثل الكبار وإلا وحياة أمي وإلا ما يكون على ولية بنت راجل ملء هدومه "أمسكت طرف شعرها" ما أخيِّب أمنيتك ويلمونك من على الأسفلت بسكينة معجون صحيح.

صمت سعيد ينظر لها من أسفل مطأطأ الرأس وهو يعلم من وراءها من عربجية وسرِّيحة وصِيَّع تحركهم جميعًا بمكالمة مع فتاة أو بخَّة مزاج رخيص أو ما اتفق من سد الرمق فاستطردت:

– أنا وأنت في طرف واحد لا تقلق.

سمع منها فنظر مستفهمًا يشفط من سيجارته تبغَها وتوتُّرَه، فقالت:

– تسمع كلامي وتحفظه صمًّا، وتكلم زينب تسمَّعه بالحرف الواحد من غير تجويد ولا تعمل فيها ابن النقراشي، وبعدها تمشي وراء تعليماتي لنأكل الشهد.. مفهوم؟

***

لم تعد بعليَّة أم أحمد طاقة للاحتمال، حبها الشديد لنفسها جعلها أكثر رغبة في الموت وزهدًا في بعض هواءٍ باقٍ لتتنفسه وبعض وجبات باقية لتمضغها مع العلاج، ولمَّا زادت عليها شراسة السكري اضطرت لاستدانة جديدةٍ من عم خليل لأجرة الميكروباص للعيادات الخارجية لمستشفى المبرة على طريق الكورنيش، بعد استدانتها الأخيرة منه لتوصية زينب بشراء مرتبة جديدة بدلًا من التي أغرقتها بولاتها وخنقتها أثناء النوم واليقظة، الطبيب الذي قال أن بتر القدم يأتي كأولوية الآن قبل غد وأكَّد أن عدم التعجيل بذلك سيكون كارثة عليها وستموت بأسرع وقتٍ جعلها تتراجع بشأن رغبتها في الموت، بعدما قِيلَ من آخر بلسانٍ جَدِّي، الحقائق التي تأتي من آخرين يُعَرُّون شجاعتنا ويضعون نداءاتنا أمام بوقٍ يُسمِع العالم ويدفعه للتلبية بما زعمنا أننا قادرون عليه هي أقسى ما نواجه وواجهت عليَّة في ظهيرة ذلك السبت المزدحم بطوابير الكشف والاستشارة لآتين من إجازة الجمعة من الشكوى والفضفضة في غرف الكشف، أو ترك أجسادهم تفعل، نقص المحاليل لم يكن بيد زينات الممرضة، ولا بيد مكتب شؤون المرضى ولا مكتب الدخول ولا إدارة المستشفى.

– المحاليل ناقصة في مستودع الوزارة والكمية الموجودة تكفي شغل الرعايات وحوادث الاستقبال، نمَوِّت واحد ونعالجك يعني يا حاجة؟ هي المحاليل ورثتها عن أمي؟

ولمَّا اضطرت للاستناد على خوفها من الموت، وجدية الطبيب الشاب، وقدمها التي ستؤدي لها معروفًا أخيرًا قبل قطعها، وذهبت للبحث عن محاليل بسعر مناسب عند مجدي الدكتور الذي غرَّقها خيره السابق ولن تسمح له شهامته بالامتناع عن معروف آخر بشأن المحاليل، كانت قد سبقتها بولاتها في الميكروباص، وسبقتها شتيمة الرجل العجوز بأنها ولية شائبة وعائبة ولا تستحي، وضحك العيلين في الكنبة الأخيرة عليها،

وتأفف الشابة الجامعية وغمس نفسها في نور جوَّالها ثم "نزلني هنا لو سمحت، كفاية قرف". وتنزيل السوَّاق لها في السكة إرضاءً لل"مدموزيل" التي غضبت ولأنها قلبت رائحة السيارة واليوم لا تنقصه نجاسة.. في النهاية كان نفق الملك الصالح في هذا السبت شاهدًا على امرأةٍ عجوزٍ بالت على نفسها وتداري نفسها في عامود تخلع تحته ملابسها التحتانية وتلقيها إلى جانبٍ منه للتخلص من رائحة لن تترك سائقًا يقف لها ولا رُكَّابًا يتركونها في حالها. وفي النهاية قرَّر الشابان المُتعَجِّلان فوق الموتوسيكل السيرَ فوق رصيف النفق لاختصار الزحام –غير الموجود ويفسِران به فعلهما اليومي– أن ينهيا القصة برمتها بعدما ألقتها سرعتهما بوسط الطريق وجبةً لأتوبيس النقل العام الذي جاب أجلها بجعلها كومة لحم في عظم لا تظهر لها ملامح.

***

الأستاذ بدوي عبد العال طمأن أصحاب الفلوس المدفوعة لكرم أنه لن يتركه إلا وحبل المشنقة ملفوف حول رقبته ونصبه وماله الحرام، عمل نفسه لا يسمع قولة عليوة البنا الذي قال أن استعادة المال هي المهمة ولن ينفعهم أن يُشنَق كرم أو يروح في داهية، ثم أقسم أنه لن يأخذ أي أتعاب خاصة لأن هذا واجبه تجاه أهل منطقته، وسيأخذ فقط مصاريف القضية والإجراءات والورق وبقية الرسوم الإدارية، مُكلِّفًا صبري أنابيب بجمع الفلوس الرمزية من المتضررين، بعدما رَشَّحه له الصول كردي مشكورًا، لأنه ولد ابن حلال ونفسه شبعانة وأمين، في ليلة ذلك اليوم كان الصول كردي حاصلًا على نصيبه طبقًا للاتفاق، بينما استطاع صبري أن يتعشَّى لحمة رأس في باب الحديد بالقدر اليسير الذي مُنِح له، وفي الأربعاء الذي تلا ذلك الأحد الذي جُمِعَت فيه الأموال الرمزية والمتبقية مع الدَّافعين والمُوَزَّعة على الصول وصَبيِّه والأستاذ بدوي وهو يمسح

جبهته المُعَرَّقة من الشمس واللف في المواصلات والمحاكم لأجلهم، بشَّرَهم في الأخير أن الأمور تسير على ما يُرام وأن ربنا كبير وسيسمعون أخبارًا حلوة قريبًا، قبل أن يعيد إدخال قميصه الذي أخرجه كرشه في بنطاله من جديد، ويعزمه عليوة البنا على زجاجة ساقع من عبد الجَبّد ابن فرحات حلاوة الأخبار التي جاء بها، والمجهود الذي يبذله ولا ينكره إلا أولاد الحرام. في حين همس له الأستاذ بعدما حَلَّفه ألا يخبر أحدًا لأنه يستأمنه دونًا عن باقي الأهالي بأنه رأى ماجدة الزحلان زوجة حمادة الشيشيني تنزل من عمارة في العجوزة، وحين تقَصَّى عن الأمر عرف أنها متزوجة سرًا من صحفي كبير كانت تخدم زوجته.. في المساء كانت ماجدة محور أحاديث الكوم السرية خلف الجدران وفي همس المصاطب وبين رشفات الشاي، وارتاح الأستاذ بدوي من تفكير الأهالي المتضررين في قضيته الوهمية، وانصرافهم عنها إلى حديثٍ آخر ولو إلى حين.

***

الولعة مسكت أول ما مسكت في غرفة عبده السقا، اختلفت الروايات حول بداية الأمر إن كانت الولعة التي يجمع فيها بحر البورسعيدي كناسة وقش وأكياس الشارع لتنظيفه، أم بوتاجاز الغاز الصغير الذي نسيت سميحة أن تطفئه بعد غليان ماء الشاي، أم فحمة أوقعها عبده نفسه من شيشته واشتبكت بملاءة سريره ثم بالغرفة وما جاورها من مطارح يؤجرها حمودة وجماعته من أولاد صابرة، يؤجرها عُزَّابي أو عائلات صغيرة بلا عيال لأنه لا يحب وجع الدماغ، قبل أن يأتي الحريق الذي اشتعل سببه ودُفِن مع الثلاثة المذكورين ولم يُعرَف من منهم تسبَّب بهذا، أو حتى إن كان غيرهم واحترق مع من احترق أو نجا ولم يُفصِح، المطارح المصنوعة من الخشب والضامة حيواتٍ بنفس الهشاشة لم تصمد أمام النار التي أحجم عنها بقية أهل الكوم خشيةَ الموت، اللهم إلا ببعض الماء

المرشوش من بعيد والفرجة مصحوبةً بحوقلة واستغاثة أن يكلِّم أحدهم المطافي من سنترال كليك، عبُّودة قال أن سيارة المطافي لو دخلت الكوم ستدكُّه دكًا لأنه لا شارع من شوارع المداخل يسمح بمرورها إلا شارع المشروع وهذا شارع أغلقته الحكومة ولافتات "احذر منطقة عمل". الماء الموجود بجراكن البيوت بالكاد يكفي حاجيات الأسبوع والجركن الواحد ثمنه الشيء الفلاني، علاوة على أنه لن يكفي لإخماد حريقٍ شبَّ في الجانب الغربي بأكمله من الكوم، وعلا دخانه ليُسوِّد سماء مصر القديمة بأكملها.

– يا فرحتي بأن يقولون رجل يخدم وجدع وتلاقيه في الشدة يشدَّك، ثم يموت العيال من العطش بقية الأسبوع.

قالها عوض الصرماتي لزوجته، بينما تستمر محاولاته ومحاولات البقية في إسقاط الإحراج من على أنفسهم بالإسراع لتناول الجراكن المعدودة التي حملها عم خليل والأستاذ سيد من حجرتيهما، وما ألقت به ربِّسة من زجاجتين من شباكها للجدعان الذين ضحوا بأنفسهم وألقوا الماء على الحريق من بعيد، فلم يطفئ إلا خجلًا كان سيشتعل في ضمائرهم بعدم تأدية الواجب.. أو لا يطفئ.

ولمَّا وصل الصول كردي والعساكر شاتمًا المتجمعين ومطالبًا إياهم بالتفرق كلٌ إلى حاله بدلًا من وقفتهم التي ستزيد عدد الضحايا، وأخبرهم أن الحكومة ستتعامل مع الأمر، انسحبوا إلى أماكن يمكنهم منها متابعة التصرف الحكومي دون أن تنالهم وتنال أمهاتهم شتائم الميري، في النهاية أوقف الصول كردي العساكر صفوفًا تمنع الاقتراب والرؤية وتفرق الرائين المنتظرين حل الحكومة.

– لن أفرح بشبابكم وشباب أمهاتكم لمَّا أُدَخِّل العساكر يموتوا، كل واحد يروح لحاله وإلا أبكِّي أمه عليه دمًا.

وفي نهاية اليوم كانت الحريقة قد خمدت بعدما أكلت الجانب الغربي كاملًا، بمطارحه وسكانه وحاجاته ومصائره وحواديته، وأنعم الصول كردي على صبري أنابيب بعشاء لحمة رأس آخر لأنه جعل الموضوع يبدو قضاءً وقدر، وأثنى على يده التي تستأهل أن تلتفَ في حرير.

الخلق الثالث

صديق الراغبين في الحياة والخطَّائين وضحايا الحب، وما زرعه الهوى في أقلام المؤرخين وجيوش مائدات التفاوض ولحى منابر السلطان.

فات دِيب على حارة وغمَّاهـــا
هنعِدّ لعشرة ونلقاهـــــــــا
خلاويص يابــو فــروة مصَدِيَّة؟
خلاويص يــا حكومــة مِعَدِيَّة؟
خلاويص يـــا مغفل خبَّاهـــا

– لو قَصَدَكَ أحدهم قاطعًا بسكين شحمك ولحمك ودهونك من فوقك لما أفقدك كل هذا الوزن، عليك أن تشكرهم فردًا فردًا، صرتَ أجمل وأقل سخافة، إضافة إلى أنهم كسروا غرورك ولو بقدر.

– تسخر مني؟ من الحب؟ أكلت حوادث الزمن على جسدي لهذه الدرجة التي يُسخَر مني وأنا أكبر ساخري التاريخ، وأشرس من أذلَّ عروشًا وأنهى ممالك وزحف بتيجانٍ نحو القبر والمراثي؟ هزلت!

– دعك من الخطب التي لن تغني من جوع وانزل للواقع الحادث، ثم ألا ترى الأمر يستحق؟ لقد نقص وزنك لثلثه تقريبًا، وهذا الشحوب في وجهك لا أراه إلا مساويًا جزءًا مما فعلته بمفارقي البشر عبر رحلتهم ووَحلتهم، علينا الإقرار أن هؤلاء القوم قد قدموا شيئًا للعالم والبشرية فيك دون أن يعلموا.

– في هذه أنت محق، لم أقابل أمثال هؤلاء في حياتي، لقد استعملوني كما لم يستعملني أحد، إنهم أول من يسيطر على حبه بهذا الشكل، وجهوه كله لحب أنفسهم وخدمتها فقط، الثكلى تناست وحيدها الغارق بأغنية وصورة، والطفلة تناست أمها لاعقة التراب لأجلها بحلوى ودمية، والعذراء فقدت ختمها لأجل حب رؤية نفسها مع آخر وخوفًا من كلام الناس، الطيب أصبح أشرسهم لأجل لقمة وقد قضى حياته تُسرَقُ لُقَمُه، لقد وصل بهم الحال للسرقة والفرحة بها والمفاخرة فقط لأنهم أحبوا رؤية أنفسهم يتملكون شيئًا ولو كان لقمتي طعامٍ حرام، طالما مررت بأناسٍ

عبر البشر أحبوا أنفسهم حد إهلاكها، لكنني لم أمرّ بمجتمع كامل يفعل ذلك توازيًا والموت يجاوره كتفًا بكتف، ولم يتفكر حتى أن يتصدى له ولو بأمنية خفاء أو دعاء ليل، والأدهى أنهم يشبعهم حبهم لأنفسهم بلقيمات وأمنياتٍ ضحلةٍ لا يراها حلمًا إلا ميت تمنى العودة للحياة بأي شكلٍ من أشكالها البدائية. المواجهة الوحيدة التي وجبت عليهم مع الحكومة التي تسبب مشروعها في انهيار بيوتهم وقتل إخوانهم لم يقوموا بها، سرقوا الميت ثم كَلَّفوا محاميًا أن يقاضي واحدًا منهم، الخوف منعهم من حب أنفسهم حتى في مواجهة، وكل حبٍ يوقفه خوفٌ لن تنال منه إلا أذاه، إنهم مخيفون، هل تدرك أن يخيف أحدُهم الحب ويأكل من لحمه الذي هو في الأساس لحم أممٍ أمثالهم؟

– كيف رأيتَ دواخلهم؟

– لم أرَها.

– كيف؟

– أوقف الخوف عسكره على كل مداخل شراييهم فلم أستطع المرور لأبعد من محيط القلب الخارجي، ربما لهذا السبب فشلت، لكنهم وإن لم يتركوني أصل، فهم لم يتركوني أخرج كما دخلت، فتَّتُوا أكثري فيما أسلفت، في حب أنفسهم حتى المرحلة ما قبل الأخيرة، مرحلة الاجتماع.

– هزَمَنا الخوف مجددًا وفشلنا مرة أخرى إذن، اللعنة عليه وعلى هؤلاء وعلى حكومتهم وعلى مهمة لن تنجح، لم لا ينتهي كل شيءٍ الآن ونهلك جميعًا ونرتاح من هذا كله؟ ما لي وإيقاظ الخائفين؟

– اخلق نسيانًا.

– ماذا؟

– سمعتني.

– وبمَ يفيد النسيان؟ نحن نريدهم أن يتذكروا ضرورة اجتماعهم لا أن ينسوها.

– هؤلاء الناس لا سبيل لإصلاحهم إلا البدء من جديد، من السطر الأول للحياة، لا بد أن ينسوا الحكومة والمشروع والخوف والموت وكل شيء، إذا نسوا ذلك وبدؤوا بصفحةٍ بيضاء، سيتكفل الواقع بلفت انتباههم للموت المحيط بهم وضرورة الاجتماع دون خوف.

– لكن..

– هذا ما عندي وانظر أمرك.

قالها الحب وقام يعرج نحو الباب أستوقفه راجيًا بقاءً أطول لأنيس بدأت أشفق عليه شفقتي على عزيزِ قومٍ أذلَّه أهل الكوم:

– ألا تبقى بعض الوقت؟

– عليَّ تعويضُ ما فقدتْ، ثمة الكثير من القصص تنتظرني بقلوبٍ قد تعيد بعضًا مما قطعه مني هؤلاء.

***

"درعُ مُزوِّري التاريخ، ومحبرة مبتدعي العقائد، ما أبقى المفارقين أحياء، وخلَّد المخلصين أعداء، وحجب الحقائق عن شائف، ووطَّن طُرَّاز المؤامرات عمَّال الخلائف، صديق الراغبين في الحياة والخطَّائين وضحايا الحب، وما زرعه الهوى في أقلام المؤرخين وجيوش مائدات التفاوض ولحى منابر السلطان، ما صنع منه الشيطان التناسي لأصحاب نصف الضمير، وما أقسم الرجال على اشتقاق النسوة منه نكَّارات العشير، توأم الإنسان حروفًا وبيانًا، ومرآة الناس ضميرًا ورغبة، ودواء كل ما استعصى على طب الدواخل النفسية من علل، معشوق الظلمات والحذر، وعدو البصيرة والبصر، وكل خاتمات الحكايات التي لم ترق لصاحب الأمر المنتصر، وغُيِّرَت. ما استبقاه النوم لنفسه وبثَّه في حلم انتصار كاذب،

وما حاربته اليقظة قرونًا ولم تظفر منه بذاكرة ظل سبرها يُتدَاوَل، أو لسان ظل حكيه يُتنَاوَل، أو قلب ظل حبه بلا ترابٍ فوقه وقتًا أطول من عمر العاشق والعادة، جُبَّ لهؤلاء القوم ما استقر فيهم من خوف، وامحُ ما سُكِب فيهم من دعة، واحملهم على الكتابة من جديد بلا راسبة تمنع اجتماع سطورهم في قصة ماجدة، وادفعهم للمسير جماعاتٍ بلا شائبة تفكُّهم عُرى من عروة واحدة، وأنبتهم فيهم، وأنبتهم فيهم، وأنبتهم فيهم."

الدقَّات الثلاثة لم تتأخر، أظنني سمعتها قبل أن أنتهي من الكتابة حتى، دقة القبول، ودقة الوصول، ودقة الحصول. لن أستغرب شيئًا بعد الآن في هذه البقعة اللعينة من الحياة، نجحوا في إكسابي مناعة تؤهلني لتقبل أي شيء حتى لو كان ذلك الصغير الذي طرق الباب لا يرتدي إلا سروالًا قصيرًا يستر عورته، وسيمٌ بقدرٍ كافٍ لجعلك تحبه بشكل ما وتأنس له ولا تتوقع منه غدرًا أو سِوقًا لمهلكة، جاب الحجرة مرات بسرعة انقطعت لها أنفاسي فقط من مجرد متابعتها، ثم جلس على المقعد الوحيد دون قطرة عرق واحدة حتى كأنه فقط كان يتنفس أو يسعل ليس إلا.

– لا بد أنك إبراهيم.

– النسيان؟

– تنتظر غيري؟

– لن أكْذِبَك أنني لم أتوقعك طفلًا وسيمًا يلهو بالتجوال السريع ولا يستر إلا عورته، لكنني لم أعد أستغرب شيئًا هنا.

– إذا عرف السبب ربما قد يبطل بعض العجب.

أشرتُ له بيدي محنيٌ رأسي أن تفضل بالشرح فقام من كرسيه يجول بشكل أبطأ قليلًا وإن بدا أسرع من عادة الآخرين يقول:

– أي نوع من النشَّالين أخطر وأقل وقوعًا بالمصائد؟

– ما علاقة هذا بحديثنا؟

– لا أحب المتفلسفين والباحثين والمتمسكين بفهم كل شيء، هؤلاء أكثر من أرهقني وعاداني وانتقمت منهم عبر التاريخ، لا تجبرني أن أضعك فيهم إذا سمحت؛ لأن هذا لا يعني بداية جيدة لكلينا، فقط أجبني.

حزمُه وما ظهر من شرٍ في وعيده لم يكن متناسبًا قط مع براءة ملامحه وملاحة طلَّته، وجدتني خاضعًا له بتأثير خفيٍ ما، أنا على كل حالٍ مجبرٌ على الاستمرار في هذا السخف لنهايته.

– لا أعلم، ربما أسرعهم حركة وأقدرهم على الهرب.

– أصبت.. وأي نوع من المحتالين أخطر وأكثر قدرة على إتمام النصب؟

– مممم.. ربما، ربما أكثرهم قدرةً على إقناع الآخر بمظهرٍ وديعٍ وملمحٍ صادق.

– أصبت.. وأي نوع من قطَّاع الطرق أخطر وأسرع إنجازًا للسطو؟

– أظن أكثرهم حزمًا وشراسةً وقدرةً على إجبار الآخر على القول والإعطاء.

– جيد، لم يخب ظني بك ولم أعد نادمًا على تلبية نداءك.

– ما زلتُ لم أفهم علاقة هذا بحديثنا الأول.

– هكذا ندمت.

قالها ولوى شفتيه يسارًا ثم قام يتمشَّى قائلًا:

– حسنًا، أنا كل هؤلاء، أخطر نشَّالٍ ومحتالٍ وقاطع طريق، تستطيع القول أنني اللص الوحيد الذي يحبه بنو آدم ويتمنونه ويكتبون فيه الشعر استجداءً.

– وما تسرق؟

– كل شيء.. الإيمان والوصايا والتاريخ والعقائد والحب والخيانات والشعوب والحضارات والنذالة والكرامة والثورة والفكر والجيوش والضمير

والرغبات واليقين والتردد والمواهب والوعود والأموات والعِبَر والرضا والبقاء والزينة والحزن والشوق والضائقات، كل ما يمكنك تخيله مما يقود الأفراد والجماعات والأمم لهلكةٍ أو منجاة.

– أظنني أحسنتُ الإختيار هذه المرة.

– أنا متأكد.

– كيف ستأتيهم إذن؟

– في طعامهم.

– لِمَ طعامهم تحديدًا؟

– قومٌ مثل الذين تتحدث عنهم لا يأتيهم النسيان إلا من جوعٍ أو شبع، الطعام مدخلي إليهم والمعدة هي مقرّي الذي سأبدأ منه كل شيء.

***

الطرنشات طفحت في شارع نخل السجر، وهي مع البقايا المرمية من الطعام الحامض أو مخلفات الطبيخ الفقير كقشر البصل ورؤوس الخيار والجوانب البيضاء العفِنة من القوطة والأكياس المزيتة تعمل رائحة نتنة، يجري فيها العيال أو يقلبون بعضهم في تحديات تلطخ ملابس المارة وعتبات بيوتهم حين يعودون إليها وقبل أن يدخلوها ويمنعهم زعيق أمهاتهم ودعواتهن عليهم وعلى خلفتهم بشيل الحزن ومجيء الشلل. هذا كله مع تراب الخريف الداخل عليهم دخلات الحكومة ويأخذ في أبدانهم وبيوتهم حقه وزيادة يجعل الكومَ في هذه الأيام عرقانًا بما طفح من هموم الحبس داخل البيوت هربًا من الخماسين، ومزكومًا بما احتقن داخل حكاياته من الأمل في المساكن الجديدة ذات الباب الخشبي والشبابيك المقفولة على أسرار لا تُسمَع وتنضح بها الجدران. الخريف الذي يضع الكوم في كِيسٍ كبيرٍ مخنوق، وينفخ فيه من صدره الملبَّش بالعفر والخماسين وصفار

الجو. ويرَوِّجُ للأقمشةِ المبلولة بالخلِّ تمسح العيونَ والأنوف وتُمشِّي حواسهم بقدر الممكن. خريفٌ كأيامهم.

تكبيرات العيد الكبير التي زغردت في ميكروفون الزاوية وفي ساحة الخلاء حول المقابر، والمفروشة بالأكلمة والجلاليب القديمة والأجولة والكراتين المفرودة، وفي أفواه العيال المتشاكسين حول الشيخ عبد المولى تباريًا لإظهار تكبيرٍ يعلو صوت البقية ويشرح القلب، جميعهم كان لهم صوتٌ يعلو البقية ويشرح القلب، العيال أكثر من يَجُرُّ العيد من يده ويفرّجونه على الكوم شبرًا شبرًا وسرًا سرًا وحزنًا حزنًا، يفرجونه على شواهد المقابر حتى وعلى أيامهم، ويترجونه بتكرار الزيارة في مددٍ أقصر من عام، وعلى عتبات البيوت المرشوشة بالحكايات عن عيد زمان و"كانت أيامًا فيها حاجة حلوة" وماء النعناع لأن الوردَ أغلى من الخبز ومن أحلامهم برشّ ماءٍ منه، وعلى قلوب أهاليهم المارين على بعضهم بالصلح والتهاني وتأدية الواجب وحق الجيرة، وجريًا وراء عدوى الفرحة الملفوفة في ميكروفون التكبير وبلالين الصغار المحدوفين منهم للعالم وتصريفه. العيد يغسل كوم "أبو جامع" ولا ينشره في وجه الشمس الحامية، يجففه بهدوم ريسة المزوَّقة المصنوعة من الأكفان، وزجاجة العطر "البلية" التي يلف بها الشيخ عوض السني ماسحًا على ظهور الأكفِّ الممدودة له وخلف آذان الصغار الذين لا تكفيهم مسحة واحدةٌ على اليد فيكشفون عن الأقفية والآذان يضحكون بها ويعيّرون بعضهم، والكابات الورقية خضراء اللون ب"القدس لنا" والأساور الجلدية التي يتشعبط العيال في من يوزعها بالنقش ذاته واللون ذاته والهوية ذاتها، ونصف كيلو لحم الذي يوزعه البيه على كل بيت بعد طابورٍ يقف فيه بعضهم غير مرةً لعلَّ العاطي ينسى شكله فضلًا عن وقوفِ زوجته وأحد عياله الذي يأتي عليه

الدور هذا العيد بين إخوته ليضيعه في سبيل الحصول على لقمة للجميع، نَبلُ الصغار الذي لا يصطاد إلا رؤوس وعيون بعضهم وخناقات النسوة حول عدم الرباية، "السنة القادمة تكون على عرفة" و"يعود عليكم الأيام بخير".. ثم أذان الظهر الذي يعلن انتهاء العيد رسميًا والعودة لخريف الموسم والعمر بعد هدنة.

وخالد العسقلاني الذي لا يشارك أحدًا عيدًا ولا خريفًا ولا سهرة إلا الأستاذ سيد قد قطَّع الديوان وكل ما كتب قبله وبعده، لم يطله منه إلا دَينَه للأخير والإحباط من فشله، ونصب الناشر الذي طبع مائتي نسخة رماهم في مخزنه وفي فشله وفي روح خالد العيَّانة بالطموح العاجز، كعادته فرَشَ نفسه المخربَشَة في أذن أستاذ سيد، صديقه الوحيد:

– مرة وأنا في الميدان في يوم خميس، سمعتُ بائع الجرائد يقول الأخبار بجنيه والأهرام باثنين والجمهورية بثلاثة والناس بنصف جنيه، اتضح أن الناس هذه جريدة، الناس ربع الأهرام وسدس الجمهورية، قلتُ له مازحًا أن اجعلوا الناس بقيمة الأخبار حتى، فضحك وقال " لو قُتِلْتَ الآن، سيكون خبرُك أغلى منك." .. نحن عالم مكسورة يا أستاذ سيد، أنا أصبحتُ قِربَةً للنَفَسِ فقط، لا عِيشة. كأن قلبي قد شربَ أغسطس يا أستاذ سيد، تجرَّعه كله دفعةً واحدة فاختنقَ بالحرِ واللوعة، طول عمري أحب براح الزحمة، نعم، براح الزحمة، ولمَّا نفَّضتني الدنيا مِنْ كل مَنْ نسج هذا البراح معي، كل الذين كانوا كالمناخ على ساحل، يبرّدونني بالنسيم الحلو ويُطيِّرون همَّ دماغي بموج الضحكة والسهراية، لم أجد إلا الورق والفن مضبوط السكر أبخُّه فيه، وحتى هذا راح لحال سبيله.

وأستاذ سيد الذي دبَّر له المبلغ بالاقتراض من ثلاثة زملاء له في أرشيف وزارة النقل قد خبطه في كتفه وقد أراد في حقيقة الأمر خبط نفسه يمنعها من البكاء، قال:

– المبدع لا بد أن له من فشلٍ في الأول، النجاح قرين التعثر، والخيبات خطوات الوصول، والألم وقود الفن.. أنا يعني الذي سأعرِّفَك هذا الكلام يا عم خالد!

لم يغضب من الشاب الذي ضحكَ ثم زعق كأنه حُبسَ مع كهرباء سائبة في مكانٍ ضيق:

– محروق أبوها المسكنات والمقولات التي تَعتَبِر تفصيل نعشٍ فخمٍ هو إراحة للميت الذي لا يهمه لو دُفِن في ذهب أو قمامة، مبدعون من يا عم سيد؟ صلِّ على النبي، يقولون الشاعر الكذا، نعم، ليس شاعرًا وحسب، لا بد أن يكون الكذا، لقب يفرش له سكة الهيبة في نفوس السَمِّيعة، بمجرد أن يقول كلمتين شبه بعضهما يرمونه بالتصفيق والتهليل كأنه علَّى على طرفة بن العبد، مع أنه كلام طرش بطن لمن يفهم، ما تهدِّي عندي يا يوستفندي مثلًا، مبروك هذا شعر، صَفِّقوا للأستاذ، شُف الوساخة.

قبل أن تهدأ نبرته بعض الشيء ويقول كأنه عُلِّقَ من جرحه:

– الشعر عن السحق والناس الميتة فوق الأرض وتحتها لم يسترني، ولم يولِج في زنزانة كبتِي المفاتيح، لقد زنقوا صبري بين الباب والحائط ومنعوا أي أمل من لخلخة الترباس أو وقف الدم الذي تمطَّع منه بنزيفٍ أهلكني، أنا لن أكتب للتجارة وما يكب الفتيات على وجوههن في الإعجاب الفارغ، هذه البلد بريئةٌ من هذه الدولة.. البلد بلدنا والدولة دولتهم يا أستاذ سيد.

***

– كل نفسٍ ذائقة الموت.

– والحياة؟ هل كل نفسٍ ذائقة الحياة يا عم خليل؟

– أنت كفرت يا سيد؟

– كفرت لأني أُفكِّر في حق الناس في الحياة التي سرقها البهوات، يدفنونهم بحيواتهم، ويعتبرون تركيب شاشة عرض لمباراة نعمة تُعلَّق لها

صور سيادتهم وصور نائب مجلس الشعب و "الله يكرمهم ويوسّع عليهم توسيعهم على الغلابة"؟

– يعني الحق على الحكومة أنها توّفَّر على الغلابة فلوس القهاوي! مباراة المنتخب مهمة قومية وترفع اسم البلد، والحكومة الله يبارك لها جابت شاشات كبيرة للناس تتفرج مجاني.. أنت راكبك عفريت اسمه الحكومة؟

– افهم يا عم خليل، افهموا يا بهائم، وضعوا الشاشات في الساحة الخلاء التي ضحكوا على الأهالي وخلُّوهم يفرغوها من أنقاض الزلزال، رغم أن الأماكن كثيرة، الرسالة واضحة، يريدون محو الموت من المكان وترسيخه أنه مكان احتفال ومربوط بنصر قومي لفريق كرة قدم، النسيان جاسوسهم فينا يا عم خليل، لو الموضوع كَمِّل بنفس السيناريو سيدكُّون الكوم على أهله جزءًا جزءًا.. المشروع سيكون مقبرتنا كلنا.

– ها؟ كَمِّل.. كَمِّل الهباب الذي تسمعه من أولاد الكلب الذين خربوا نافوخك، لم يقولوا أن الحكومة سَلَّطت عفريتًا يطلع للعيال والنسوان من الكبانيهات؟.. اسمع يا سيد، أنا مانعٌ عنكَ بلاوٍ زرقاء بسبب الخاطر الذي يعمله لي البيه، اضبطْ كلامك بدلًا من أن تروح وراء الشمس، ولا أملك أن أفيدك بشيء.. محروق أبوها مباراة ومحروق أبوها كأس أمم أو كأس عالم أو أي سخام تسمونه، خلِّ الناس تتفرج وتنسى الهم الذي دفنها مكانها.

– على راحتكم يا عم خليل.. على راحتكم، لكن لمَّا تخلص المباراة والمباريات الباقية في البطولة جرَّب تسأل واحدًا من الذين دفعوا الأتعاب للأستاذ بدوي إن كان ما زال راغبًا في حقه من الأرض.. أم حقه من دم كرم المسيحي أولى؟

***

بيومي الكسحجي وولده.. كان هذا ما كتبه بيومي على برميل الكسح خاصته، بالأحرى جعل مكاوي صاحب ابنه يكتبها له لأنه متعلم ومتنوَّر، ونال حظًا من تعليم الابتدائية لم ينله أحدٌ من أهل الكوم بشكلٍ كامل، إلا عارف أفندي المتكبر الذي يحتقرهم جميعًا ولا يحبه فيهم أحد، والأستاذ سيد الذي يتحاشاه بيومي لأنه يسمع عدوية ومحمد فوزي علنًا بين المقابر، وهذا جلبٌ للعناتٍ هو وبرميله – رأس ماله – في غنى عنها.

بيومي لم يستغنَ عن البرميل الصغير الذي بدأ به، رغم أن عددًا ضئيلًا من بيوت الكوم فقط مازال يحتاج للكسح الفردي، البيوت التي لم تقدر أن تشترك مع البيوت المجاورة في توصيلات سباكة، يصنعها هو، وتوصل لطرنش عمومي بينها يقوم هو كذلك بكسحه بعد مدةٍ أطول بالبرميل الأكبر، الذي يجره على قاعدة حديد بعجلاتٍ تمسكه، وبمقابلٍ أكبر يتوزَّع عليهم. وبيومي يملك من العالم مطرحًا ذا حجرتين إحداهما "جوَّانية" لمبيته وزوجته وولده شريك البرميلَيْن، بينما الخارجية حيث الكنبة البلدي وعدة الطبخ والشاي للضيوف –إن كان ثمة ضيوف يتجاوزون كلمة تفضل إلى الداخل– مع اقتطاع متر في متر ككنيف عبارة عن برميل صغير يُفرغه ب"كوز" عند امتلائه بالفضلات كحال كل الفئة الأدنى من أهل الكوم، ثم يجمع كل فضلات الكوم على دفعاتٍ في برميلَيْه الذَيْن يشارك فيهما وريثه ويفرغانهما في القرافة على حدود المساكن. الطست للاستحمام والصابونة أم ريحة ووابور الجاز لتسخين الماء بكل أشكاله إن كان للشاي أو الاستحمام أو طبخ ما تيسَّر قد أضافوا للحمام ثِقلًا خفيًّا جعل بيومي يشعر أنه صاحب ملك، ويرتشف الشاي كأكبر معلم في مصر يملك عربة كسح وليس برميلَيْن.

بيومي كان يسأل من بعيد لبعيد عن قضية الجنب الشرقي، كان الوحيد الذي لا يتمنى رواح كرم في داهية.

– يا رب أنا غلبان، نجِّ كرم المسيحي يا رب لآخذ منه حقي بمعرفتي، إلهي تفرم الأستاذ بدوي سيارة نقل محملة عفش ثقيل لأجل أن تخرب القضية ويخرج منها كرم.

كان عمليًا كفاية ليدرك أن سجن كرم بالمؤبد أو حتى شنقه لن يقدم شيئًا لجيبه الذي نقص تحويش عمره في فلوس الدَيْن، وهو إذ يهرب من وجه الصول كردي وقرش حشيشه وسؤاله المتعمد ذي المغزى عن ابنه، فلم يبقَ له من يلجأ إليه إلا أهالي الكوم، يعلِّي عليهم في أثمان الكسح وإصلاح التوالف بتوالف أطول عمرًا لا تلبث أن تعيد النداء عليه لاحقًا ليمص جيوبهم والدم، منع الشكك واستعان على شر أموره وأمور قرضه بمحدثاتٍ مثل انتشار تركيب السيفون بدلًا عن الجرادل، وقالبين سيراميك فوق القاعدة البلدي وعلى جانبي الباب لزوم "الفَرْنَجة" ، ركَّز عمله على العرائس والعرسان الجُدُد والأزواج الذين تزوجوا سرًا، ووجب عليهم ترضية الزوجات القديمات بشيء يحببنه ويتناسين به مرات التأخير والمبيت في الخارج، ويقبلن الأعذار الواهية حيال ذلك.

في النهاية انشغل الجميع وبينهم بيومي بمباريات المنتخب، والحسِّ الوطني السائر في الكوم، ولم يعد أحد يذكر الزلزال أو الحريق، أو قضية كرم إلا في أحاديث يدفعها الملل دفعًا ولا يزيدون عن حكي الواقعة والتفاصيل التي يعرفها الحاكي والمستمع، ثم يبلعونها برشفات الشاي و "الله ينتقم منه" و "المحاكم أحبالها طويلة الله يكون في عون الأستاذ بدوي" .. ساروا في الطريق التي رسمتها الحكومة وهم يسمعون طقطقة عظامهم من كساح العيش، ويرون ورم أقدامهم بضغط العَوَز ، يقتلهم الخوف من الموت وعليهم ديون تجعلهم حطب جهنم كأنهم يموتون غدًا، ويتفننون في توسيع هذه الديون استسهالًا في الوقت ذاته كأنهم يحيون أبدًا، الجميعُ يدُه في جيبِ الآخر تلفُّهم أيامهم كأنهم تابوت رَيّ، لا أحد

يفهمهم ولا يفهمون أنفسهم، غير أن الحقيقة الوحيدة المعروفة عن هؤلاء البشر أنهم موهوبون جدًا في تضييع الفرص وسحق أنفسهم.

***

– ربنا سَتَر، الطبيب قال لها لا تُكثري في السُكَّر، وضحكَ لمَّا نَكَشْتُها أمامه، وقلتُ أنها بذلك ستستغني عن نفسِها ولن تشربَ الماءَ كي لا تذوب، وعليهِ أن يشوفَ حلًا آخر، جَبَرَ خاطري وضحكَ يا عم خليل، رغم أنني متأكدٌ أنه لم يضحك من قلبِه، جبرُ الخواطر على الله. لكن لمَّا ضحِكَت عفاف أحسستُ كأنني جِئتُ في ميعادي بالضبط مع فرج ربنا.

شِلتُها كأنني أحملُ رأسي وأنا عَيِّل صغير يا عم خليل، شيلة كلها فرحة ومطالب صغيرة شجاعة لم يُصِبْها تراكمُ السنين بالخجل والاختباء في طبقات الدماغ، مطالب تعلنُ عن نفسِها وتنفعلُ بالضحك كلِّه لما تتحقق، وبالبكاء كلِّه لمَّا يمتنع تحقيقها. عفاف –الله يُوَسِّع عليها في رأسي– طيبة ومُكَمِّلة أيامها على فطرة ربنا، في الأول قالت "عيب" والناسُ يبُصُّون لنا، ثم دَرْقَعَتْ حيطان المستشفى من ضحكتِها وأنا أجري بها في الممرات فَرِحًا بكرم ربنا وشفائها، كنتُ أريدُ أن أبعِدَها عن رائحة الدعوات البكَّاءة المرمية في كل النواحي، ومدهونٌ بها البلاط البردان وجير الجدران المُشَقَّق، وكلّ تكوُّماتِ الغلابة المتعلقين بأبواب غرف العملياتِ المقفولة، ومعاطف الأطباء التي تُخَبِّئ في جيوبها "ربنا يُعَوِّض عليكم" أو "ربنا سترها، اذبحوا شيئًا لله". كنا نمرُّ فوق الأكل البائت المفروشِ بين المنتظرين، وقمامته، والرُضَّع الذين خبطَتهم رطوبة الحوائط ويُلْقَمون أثداءَ أمهاتهم علنًا أملًا في درءِ عيونٍ غضبانةٍ كانت نعسانةً عند عامودٍ وأيقظها البكاء، والممرضاتُ الذين يشرحونَ للأهالي طريقَ أقرب صيدليةٍ تبيعُ المحاليل والإبر وما يلزم لعلاج. كنتُ أضحكُ

معها كي لا تأخذ بالها من كل هذا الموت الصاحي الذي ندوس فيه يا عم خليل.

خرجنا للدنيا من آخرة المستشفى، ووفَّيْتُ بالنذرِ عشرَ ركعاتٍ في الجامعِ الملاصقِ للمركز، ليس معي فلوسٌ لنَذْرٍ فيه مصاريف يا عم خليل، نصرفُ من صحتنا وربنا يقبل، هو أعلم بالحال.

جامعٌ كأنَّه نازلٌ من الجنة منذ ساعة زمن والله يا عم خليل، زينةٌ في كلِّ ركن فيه، مُتَكَلِّفٌ على كيفك، كنتُ أريدُ أن أقولَ لهم أن الناس في الداخل يحتاجون العلاج، ولا يحتاجون أُبَّهَةً في الصلاة عليهم، لكن لم أفعل، الصراحة خِفْت، الحكومةُ أدرى بأمور الحياة والموت يا عم خليل، المهم أن عفاف قامت بالسلامة، نسيتُ الباقي كلَّه.

***

زينات أقسمت بغلاوة أبيها الذي حج بيت الله وشرب من زمزم ورجم الشيطان الرجيم أنه لم يأتِ بها ويُطفِّحها السفر والدم كل هذا المشوار إلا الشديد القوي، "الأقربون أولى بالمعروف" كما يقول الشعراوي والشيخ جمعة، وشوقي عبد الحافظ هو قريبها الوحيد الذي تعرفه وقرَّرت أن تلجأ إليه من آخر بلاد المسلمين، لأنه لم يبقَ لديها غيره، وهو رجلٌ مؤمن وشهم وسيرته وسيرة أهله عندهم في الكَفْرِ مثل اللبن الصابح، خيرهم على كل الناس ولا تخرج منهم العيبة، وهي قريبته من ناحية خالتها رُضا المتزوجة من ابن عم أبيه الحاج حمودة أبو رجب، ولن يكسر خاطر ولية مكسورة الجناح جاءته.

– عليَّ الطلاق لا أعرف مكانًا في العالم يُسمَّى بركة عوض أو أي بركة غيرها تخصُّ أحدًا آخر، أنا هنا في المخروب الكوم من يوم أن وعيتُ على الدنيا.

– وما الذي يجبر امرأة لا تعرفك ولا تعرفها تأتي من محافظة أخرى في طريق بالساعات لتؤلف قصة؟ من أين عرفت بوجودك أنت أصلًا دونًا عن كل أهل القاهرة؟

قالها الأستاذ سيد فانتبه له الجمع الملتفُ حول الرجل والمرأة الغريبة في استحسانٍ بروزه عم خليل قائلًا:

– العلام فتَّاح صحيح، عفارم يا سيد، زنقته في نذالته.

ثم ملتفتًا إلى شوقي قائلًا:

– رُدْ يا سبع، أصلها يا ليتها بالصوت والجعجعة، كان زمان عبُّودة وزير الأوقاف. الرجل جابها لك بالعقل والفهامة ومن غير لف أو دوران، لا أحد يعرفك في الدنيا غيرنا نحن وكلاب الكوم التي تجري وراءك وتبعثر كرامة أهلك وسط الناس، كيف جاءت لك أنت بالخصوص؟

– اسألها هي، لا نجد ما نُرقّع به ألبستنا، ناقصين نتكفَّل بامرأة وعيل فوق كتفها؟ ما لأهالينا وهذا الحزن الثقيل؟

– بان أصلك، مع أني كنت عارفه من زمان، لكن بانَ للكل، يا جماعة هذا ولد تربية كنيف، يرمي لحم أبيه لكلاب السكك لو مات، ويطبخ على جثة أمه حزمة ملوخية لو جاع. هذه المرأة وطفلها في كفالتي من الآن، ولو سمعتُ بأن أحدًا قرَّب لها بسوء سأسلخ جلده من لحمه.

فوجئ الجميع بزينات الغريبة تزغرد، ثم توقَّفت فجأة حين نظر لها عم خليل، فقالت تنظر لشوقي عبد الحافظ:

– ورب الكعبة هذا الرجل من عائلة بنت زرائب ويأكلون السحت، وسُمعتهم في البِركة أقذر من جِلَّة البهائم –بعيد عنَّا وعن السامعين– .. أقول لكم على البلوى الكبيرة؟ وربنا المعبود خالتي طلبت الطلاق فوق الخمسمائة مرة، لأن حمُّودة رجل يقلب الجلباب توفيرًا لمسحوق وماء غسيله، ويمسح المداس بتفلتين وورقة جريدة، تدخل بيتهم الجاموسة

العُشْر تطلع عنزة عندها الكِلى وربنا المعبود يا حاج خليل، اللهم احفظنا.. الله يخليهم لك ويستر ولاياك دنيا وآخرة، ويرزق شوقي عبد الحافظ حزنًا ثقيلًا لا ينفع معه ولا يشفع.

***

وسلطان الذي لم يشهد هذه الواقعة ولم يساهم بحوقلة وضربةِ كفٍ بكف ثم ينسى كليهما وما تسبب بهما مثل البقية هو ولد نفسه حلوة، يأكل معك ويدعوك لبسم الله والأكل معه ولو كان قرصين طعمية، والجيش لم يهدّ حيله كما فعل به شغل الفاعل، ولم تُغيّره البدلة الميري –كثيرًا– على أهله وناسه، بل أنها لم تشفع له عند عم خليل الذي سأله عن خطة سيادة الريس القادمة لمنع الإرهاب فلم يستطع الرد، واعتقد عم خليل أنه يخفي عنه أسرار الدولة، ونسى أنه مطاهره بيده بعدما أصبح من أصحاب السلطة.

– أنا عسكري بوفيه يا عم خليل ولست رئيس الأركان، أعمل شاي وقهوة وشاي أخضر لسيادة اللواء لأنه يريد إنزال الأربعة آلاف كيلو الشحم الزيادة من على جثته، أنا ما لي وخطط سيادة الريس أو خطط الجن الأزرق؟ أنا كنت نابليون بونابرته؟

ضحك الأستاذ سيد ضحكةً مكتومةً، وحين رأى عم خليل ضحك الأستاذ سيد، وضربتهُ سخريته، تعفرت وضرب سلطان والبدلة بطرف عصاه قائلًا:

– تضحك عليَّ مع سيد وعامل مِنِّي فَقْرَة؟ الله يرحم أباك، كان يقف في إشارات منيل الروضة يخطف السجائر من أيادي النسوان في السيارات النظيفة وطلبة طب أسنان المتعلمين في أمريكا ويشربون سجائر طويلة ثمنها أغلى من سلالته وسلالة الذين خلَّفوه، دنيا دوَّارة.

رغم أن سلطان وأخيه وأمه قد جاءوا من أقاصي الصعيد، حينما كان

على كتف أمه، وأخوه ابن ثلاثة تاركين جثة أبيه مدفونة في مقابر البلد، والسواد الأعظم من طلبة طب أسنان أصدقاء موظف اشتراكات مترو السيدة زينب وسائقي الترامكو على خط "منيب– قصر".

رغم هذا كله فسلطان مثل جده مكاوي أبو الست، ابن بلد ولا ينسى معروفك ولو كان شربة ماء، تقول أمه أن طينته أنظف من طينة جده الذي جعل رقبة العائلة مثل السمسمة من جريه خلف النسوان، لكن الشهادة لله الرجل لم يكن ينكر جميل أحد، ولم يغلق بابه في وجه أحد قصده حتى لو كان من غير المُوحِّدين الذين يستعيذ بالله منهم.

– ربنا أعطاك طبق مهلبية غرقانة سكر ولبن بخيره وتموين الدنيا والآخرة، تقول له لا يا رب، أنا أستطعم المهلبية عليها غبرة وتقوم تنفض مداسك فوقها! الثاني ربنا خسف به الأرض لما رفس نعمته.

أم سلطان كانت تحذره وأخاه على الدوام من مصير حماها الذي لم يذكر أحد شهامته، وعلق بسمعته وبذاكرتهم فقط قصصه مع النساء.

– الناس ماعونها مدهون صابون ساعة المعروف، ومدهون جبس ساعة الفضيحة.

تؤكد رباب على مسامع الطفلين، فالصبيين، فالشابين، ومازالت تؤكد في كل مناسبة حتى لو كان طُهورًا أو شبكة أو كتب كتاب في الجامع، وتستعيذ بالله من الشيطان الذي أنزل آدم من الجنة ولن يستعصي عليه إلا مؤمن وعَرَقُه حلال. وسلطان الذي حفظ معروف عزت باشا الذي زاد إجازته يومين كاملين ليحضر فرح عبد الباقي زُلحِفة الذي أكثر من أخ، بات يحفظ هذا كله أكثر من اسمه المطبوع على الكارت الميري وذكرياته مع عبد الباقي والسلحفاه التي سرقها لا يدري من أي داهية من محلات الحيوانات مقابل القصر الفرنساوي، حين كان كل أهل الكوم يتناوبون على زيارة عليوة البنا أيامها، أحضرها للكوم وكان يربطها بحبل غسيل

ويجبرها على السير خلفه حتى التصق به اسم زُلحفة وشبَّ معه، ورغم أن إجازة سلطان متأخرة عن موعدها أسبوعين كاملين إلا أن اليومين الزيادة مسحا كل سخط مكتوم عنده، وأبدلاه شكرًا مُبدَى ومُتغنَّى به في عنبر الجنود والقطار الحربي والكوم وحنة عبد الباقي، في حين أنه لم يقم للسلام على عم خليل والأستاذ سيد وعبُّودة –الذي شالها له– وأي من مهنئي العريس، مكتفيًا بالسلام من جلسته على الكرسي الخيزران.

– الولد نسي خيري عليه وعلى جدود جدوده كلهم، ولحم أكتافه وأكتاف بلده الذي من فضلة خيري، ونسى الأصول في السلام على الذين أكبر منه، وكل يوم زيادة لهم بسنة من معرفته ومعرفة عينته. حتى لو عبُّودة عيل ابن كلب وفيه شيطان رجيم عامل أذنيه حمَّامًا عموميًا، لكن أنت! أنت يا سيد كان الولد يسلم عليك ورأسه في الأرض، صحيح المناصب تقلب الجلة طِيب وتخوِّف الكلب من الدِيب.

قالها عم خليل ينظر لسلطان بنصف عين، ويفرك ركبتيه بكفه كعادته كلمَّا غاظه أمر، بينما يرشف الأستاذ سيد الشربات ضاحكًا يقول قاصدًا:

– ولماذا لا تمسح الأرض به وبشجرة عائلته كعادتك؟

– الأمور تغيرت، عزت باشا هذا الذي يشكر فيه الولد سلطان شكله واصل، وشغَّال في السلك الدبلوماسي، أصل الجيش ما شاء الله مدوَّرها على كيفك يا سيد، الرجل منهم بعشرة كراسي الله أكبر.

قالها بصوت خفيض ثم اقترب أكثر من صديقه الوحيد يقول:

– لو اشتكاني سلطان ستكون جرستنا وجرسة ما سيفعله بنا الجيش على كل لسان، حتى لسان الحرباء ريِّسة، وعمومًا لأجل الورد نسقي العُلِّيق، ولأجل الحكومة والجيش والسلك الدبلوماسي يُكرم ابن الكلاب هذا.

***

ورغم أن ريّسة لم تفارق صباح في تنجيد جهاز ابنتها عبلة عروس "عبَّاقي" لكنها لم تترك تحذيرها من الولد الذي تعرف عنه أشياء تغمُّ طبَّال الفرح.

– الدخان في حنكه ليل نهار ويقولون أنه باع كليته لأجل يكفِّي دماغه من الكيف، لا أحد شافه يركعها، حرام ترمي ابنتك التي توضع على الجرح يبرد لعيل من ألاديش عبُّودة، ولا يعرف نطق كلمتين على بعض بسبب دماغه الغائبة، دماغه وقعت منه في السكة يا صباح، نسيها وجاء من غيرها، اتقي الله في البِنَية يا كافرة يا بنت الكافر.

وصباح التي تخفي شيئًا وتظهر عكسه، وتقول عنها أم جمال أنها شغَّالة مع اليهود وأصبحت تحرّص منها لأنها صاحبة البيت الوحيد في الكوم الذي يطبخ شيئًا من العظم مع التخديعة كل يومين أو ثلاثة، قد عملَت نفسهَا متشاغلةً بترتيب الليلة وتهيئة الراحة للمعازيم، قبل أن تلتفت لريسة تقول:

– البنت مصيرها لبيت زوجها، لن نظل لهم طول العمر يا ريّسة، لن نضحك على بعضنا، ثم خلّيني أقول لك كلمتين من زور الجمل، فيهم الخلاصة، الولد مسك شغل في ورشة حدادة قرب نزلة الصعايدة، وحلف برب الحجاز والكعبة الشريفة أنه سيسبُّ ميتين عبُّودة ومعرفته وكل الذي جاءه من ورائه من خراب بيوت وسواد عيشة، ربك يقبل توبة الكافر، نقوم نقول لا يا رب، ونرفض توبة من قال لا إله إلا الله ونعمل مفتي الديار المصرية؟ أنا لا أتنكر أي بلوى عملها الجدع حتى لو كان تحرَّش بي وأنا في سن أمه، أو أنه جعل سطوحنا منطًّا لهروبه من الحكومة وجعلنا شبهة وسيرتنا على لسان الجرابيع، لكن المسامح كريم ومادام البنت تتستَّر على يده فكل شيء يهون ونبلعه ولو حتى كان منقوع بُلَغ، كنا شغَّالين في مشيخة الأزهر يعني يا ريّسة؟ كلنا يعلم بنا ربنا. قومي معي نُلفُّ على

أهل الكوم نُفَرّجهم الشبكة.

وعبد الباقي بدوره لم يكذِّب خبرًا وحذَّر عبُّودة من أن يزوِّد في الكلام ويأخذه غلبةً بالصوت وإلا لن يعجبه الحال، حين أخبره أنه من الساعة خارج ملعبه وردَّ عبُّودة بإشارة تسبيح وتدويرة على الرأس إشارةً للعِمَّة:

–تقبَّل الله يا شيخ زُلحفة، ادعُ لنا بالهداية في تراويحك في جامع عمرو وخلِّ خالتي صباح رضي الله عنها وأرضاها تدعو لنا في الفجر وبعد مسلسل سبعة.

ثم حين قال غانم لسلطان، الذي ساند صديقه العريس بجثته الضخمة وزيه الميري وسيرة عزت باشا "وأنت ما لك وشغلانات عامة الشعب يا سيادة العكيد، أما عكيد ابن شقيانة صحيح" .. لم يزعق فيه سلطان أن يلم نفسه ويهدد بالقول فقط دون الفعل كما كان يفعل قبل الميري وكارنيه التجنيد، انكبَّ الضحك في رفاق عبودة والدم المغلي في شرايين سلطان وعبد الباقي، وانتصبت العركة، لولا عم خليل الذي شتم الكل بأمهاتهم وكال السباب لسلطان بشكل خاص ظاهره النصيحة وباطنه الانتقام، فانفضَّ المولد وذهب كل واحد لحاله، بعدما علَّم سلطان في جبهة غانم وقفاه علامة ميري حسب مقالته وجعله حديث الكوم ليلة الشجار الذي لعن الجميع كل أطرافه لأنه لا خير في رجال بشوارب يقعون في بعضهم لأجل نسوان.

***

وعلى كل حال فعبودة نسي الأمر سريعًا كما نسيه الجميع عكس طبيعتهم مع الشجارات وحكاويها وأغلب أحداثها التي لم تحدث وحكاها خيال البعض ولم تبخل الألسنة بالتداول، عبودة الآن لديه ما يشغله في طلعاته للخطف مع جماعته، وسنية السِباعي لم تبخل عليه بنظرات الرضا والأنوثة في الثلاثة عشر فتاة وامرأة اللائي وضعهن تحت أقدامها

التي مثل كوز اللبَّان على حد قوله، ورغم أنه يسير بخطى ثابتة نحو المهر المطلوب، فهو على الدوام يشعر بالتقصير والاستعجال لنيل المراد قبل أن تغير رأيها، النسوة والفتيات لا يوجد في قلوبهن دين، كلهن يصرخن صراخًا مكتومًا ويمزقن وجهه ووجوه من معه قبل أن يغبن عن الوعي كأنهم كفرة.

–وآخر المتمة يطالبون في الجورنال بالمساواة معنا، الجورنال لو شاف تقطيع جلودنا سيرفع قضية لأجل يساوينا بالحريم.

لكن كل شيء يهون من أجل سنية، هو يبذل مجهودًا ربنا وحده يعلم به، لكن الغالي يرخص للغالي والصبر آخرته الجبر، ورغم هذا النجاح وتساهيل الرحمن الرحيم وبركة صلاة النبي التي كلها مكاسب ويبدأ بها طلعاته كما وصَّاه الشيخ عبد المولى أن صلاة النبي تزيد بركة الأعمال، فإنه لم يسلم من العين التي فلقت الحجر كما قال له الشيخ بعد شكواه له بعدها بجمعة، نسيانه كل شيء حتى رجاله الذين في الحبس ولا يتذكرهم إلا حين تكتمل القعدة ويجدها ناقصة رأسين بالصدفة في لحظة تعكير مزاج حرَّكها أحد البهائم من صبيانه بقولة غبية أو غير محسوبة، أو لحظة فَوَقَان من الكيف المغشوش المجلوب من ناس باعوا ضمائرهم ولن يتركهم في حالهم، الشيخ عبد المولى أوصاه بذبح شيء للغلابة ولو كان دجاجة فذبحها وأكلها هو معطيًا للشيخ وركًا وجناحًا حلاوة أنه وجد له في رمضان الفائت فتوى من الشرع تبيح الإفطار لأنه يشتغل من صباحية ربنا في الصهد، ومن الممكن أن يطبَّ ساكتًا في غمضة عين، ورغم أنه اعتذر على التأخير وتعلَّل بضيق الحال والظروف الكوبياء، فقد أكَّد الشيخ عبد المولى أن الدين يُسر والخطأ والنسيان مرفوع عن أمة محمد.

وعلى كل حال فعبودة قلبه عامر بالإيمان كما أكَّد له الشيخ عبد المولى حين أسرَّ له في ساعة صفاء أنه سيخفف عن أهل الكوم في الإتاوات و"العفيجة" لأجل أن يتم الله مراده بالخير، وإكرامًا للأيام المُفتَرَجة، ويسر الدين الذي أتاح له الإفطار قبل ذلك على لسان رجل بركة وكله نظر، وهو ما حفظه الشيخ وردَّده في مجالسه الصغيرة في الزاوية أو سيره بين الأهالي مضيفًا أن هذا تم بتوصية منه، عارفًا أن كلهم سينقل لكلهم.

– الناس مثل بيوتهم يا مولانا، وبيوت الكوم شبابيكها ريش وحيطانها ورق.. كله منفِّد على بعضه.

سمع هذا يومًا من علاء باشا، وحفظه، حين استدعاه للحديث المعتاد عن خطبة الجمعة ودروس العشاء، ومؤامرات الأمريكان واليهود أولاد الكلب على البلد وبسالة الحكومة، ووجوب طاعة ولي الأمر وكفر الخروج عنه. كما لم ينسَ الإنتخابات القادمة وضرورة توحيد الصف الوطني في ملء صناديق الهلال والجمل والأتوبيسات المكيفة "أم ستائر" التي ستنقلهم للجان يحمون فيها تراب الوطن من الأعداء الذين في لافتات لا تُذَيَّل بالرمزين.

والشيخ عبد المولى الذي لم يُكذِّب خبرًا ساعتها أتمَّ وما زال يتم مهمته ومهمة علاء باشا على خير وجه، ولا ينسى منها حرفًا أو يُسقِط خطوة رغم نسيانه كثيرًا من الأشياء الأخرى الأقل أهمية، كنسيان صلاة الجمعة ذاتها متبوعة ببقية صلوات أخرى في أيامٍ أُخَر. "رُفِع عن أمتي الخطأ والنسيان" كان مرهمًا لاستياء من استاء منه سرًا في تعريض مازح، أو علنًا في عتابٍ لين، أو هجومًا صريحًا مثل ما كان من الشيخ عوض السُنَّي، قبل أن يتوب القسمان الأولان ويستغفرا الله العظيم من كل ذنب عظيم، ويستعظما سماحة الدين الحنيف الذي يسَّر كل شيء حتى أنه عفا عن النسيان ولو كان صلاة جمعة كما قال الشيخ عبد المولى، وأتبع

مقالته بالحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام وكفى بها نعمة "اللهم رُدَّنا إلى دينك مردًّا جميلًا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به" . "آمين" رددوا خلفه. في حين اختفى الشيخ عوض السُنِّي بعدها بيومين ونسيه الجميع كعادة أيامهم الأخيرة.

***

– بالأمس تشاجرتُ مع الولية، عركة كان ناقصًا أن يُهَدِّئنا فيها إبليس، صعبت عليه نفسُه لمَّا زودناها على شغله. يا عم خليل أقول لك عركة كانت ستخرب البيت وتضحك؟ الله يسامحك.

قُصرُه، والله يا عم خليل لن تُصَدِّقَ السبب، سمعتُ كبَّاس وابور الجاز يجيء من الكنيف، الهانم كانت تُوَلِّع ناره لتُذَفِّئ المطرح حتى لا يمرض الولد وهي تُحمِّمُه، النسوان عقولها مدهونة زبدة لمَّ تخاف على من تُحِب، ومُعَفَّرة بالقطران لمَّا تزعل على من تحب، الولد خطف رحمتها كلها وآواها في عبِّه، كان ناقصًا أن تجيبَ له طستًا من جهاز الملكة ناظلي، يا عم خليل ومال لزومها المسخرة؟ وما عرَّفني أن الملوك لا يستحمون في طست؟ أنا كنتُ وزيرَ الصابون؟

نهايته، زعقتُ لمَّا سمعتُ الصوتَ، شعرتُ أن جاز الوابور مسحوبٌ من شراييني وليس من قاعدته، قالت أن هذا أرخصُ من تسعيرةِ علاج الولد من أجزخانة مجدي لو تحمَّمَ في البرد وخَبَطَتْهُ النزلة، تُصدق يا عم خليل، قعدنا حسبها بالقِرش أيهما أرخص، في الآخر زعلنا من بعضنا لمَّا قالَت لي أن آهة الولد نفسها لها ثمنٌ نسيناه في الحِسْبَة، المشكلة يا عم خليل أننا رغم ذلك أطفأنا الوابور وتحمَّم العيِّل في البرد، لمَّا طلعت شَربة العلاج أرخص، ووفَّرْنا الجاز للتوليعِ في أي هيكلٍ يذوبُ في مَرَقَه، ربما يحتاجه الولد ليرُمَّه عظمَه.

بالمناسبة، لَقيتَ لي حلًّا في موضوعي يا عم خليل؟ موضوع الشغل،

أُذَكِّرُك لو كنتَ نسيت، أعرف أن دماغَك مشغولة بملء بَحْرَيْن، الله يعين. لكن الله لا يسيئك يا عم خليل، لا تقُلْ لهم على موضوع وجع ظهري، ربنا يعين وأقدرُ أن أشيلَ إن شاء الله، المهم عقل الولية يظلُ مدهونًا بالزبدة، وعظام الولد تشدُّ حيلها للعافية.

***

الستر وأن تجد أقربين أولى بالمعروف هو كل ما أرادته زينات من العالم ومن غربتها في الكوم ومن دمعتها كل بيات، راضية بقليلها وحامدة ربها وشاكرته على كل شيء ورغم كل شيء، ورؤوفة لم تنسَ قط وقفتها إلى جوارها بالصراخ واللطم والولولة والاعتناء بالمطرحين والصالة خاصتها في الأيام الكرب التي أعقبت اختفاء الصغيرة حياة والولد رُحَيِّم، ورغم التفسيرات التي بكَّت في وجه الكوم في تلك الأيام من كل من هبَّ ودبَّ وقرر حل المسألة بمعرفته وفتواه وخبرةٍ بالمعاش ادَّعى حيازتها، إلا أن أكثر ما جعل العفاريت تتنطط في وجه رؤوفة كان القول بأنها تعمل من الحبة قبة، وأن الأمر لن يزيد على أن البنت راحت هنا أو هنا ومصيرها ترجع أو يجدها أحد من أولاد الحلال من صنايعية الكوم، الذين يعملون خارجه نواحي جامع عمرو أو الجيَّارة أو حتى ميدان الجيزة أو المنيب، لو لا قدَّر الله البنت شيطانها غواها وركبت مواصلات، رؤوفة قالت أنهم أولاد ستين كلب ولو كان ضنا أحدهم لساق الشامي والمغربي بحثًا عن مفقوده، ولمَّا ساندتها زينات "مصيبتي دق طبول ومصيبة جاري شدة وتزول" ولامت الآخرين والأخريات على تهوين الأمر حفظت لها رؤوفة ذلك كما عادة حفظ معروف المشاركات عندهم في مثل هذه الظروف قولًا أكثر منه فعلًا، وهو ما تفهمه ريّسة عزَّ الفهامة وقررت أن تعمل بعمل أولاد الأصول وتكفَّ عن مشاكستها ولو لم تُطِل زيارة مواساتها أكثر من عشر دقائق عملت فيها الواجب وشربت كوب سكر

بليمون طلبته من زينات وهي تستَمْوِت معللةً بطول السكة –التي هي عرض الطريق بين البيتين– تذكيرًا لمن لا يذكر أنها بذلت مجهودًا لأنها ابنة أصل ثم مَشَت بعد أن عملت الواجب وزيادة إلى حيث تستفهم من زينب عن سبب غيبتها طوال الفترة الماضية وعودتها للزيارة بوجه خميرته نكد.

لمَّا فشلت أم جمال في معرفة ما وراءها وقد انطوت الفتاة على غمٍّ يكفي بلدًا.

– لو أبوكِ محافظ جمهورية زفتى والعيال العملاء ولَّعوا فيه وفي أهله لن يركبك الغم هكذا.

لكن زينب لم تلقِ بالًا ولم يكن لها صبرٌ على جدالات كانت صابرةً عليها قديمًا في يومٍ ما، سعيد الذي أخبرها أن رقبته سدَّادة لكل ما أخطأ به، وأنه ابن بلد ويعرف الأصول ولن يظلم ولية خاصة لو كانت زينب، قال أن العين بصيرة واليد قصيرة، وتكاليف الزواج تحتاج طابونة تخبز فلوسًا.

– سمير مزلقان، أنت تعرفينه، باع السوزوكي والفدان الذي يحتكم عليه أبوه لأجل يغطِّي تكاليف الفرح والفرقة وموتوسيكلات الزفة فقط، غير الشقة وجهاز العروسة وبدلة العريس، أيام حِزن بعيد عنكِ، لو طال يبيع أمه مع الفدان ما تأخر، أنا لو قلت يا زواج لا بد ألاقي آثار أو أكتشف أني من أقارب عز الدخيلة.

ولمَّا حاولت زينب إقناعه أنها راضية بقليلها وبأي شيء يسترها، كان حازمًا.

– سُمعتي في الموقف وعلى الخط سيضعها السوَّاقون تحت العجل، أولاد جوع وما يصدِّقون لقمة ناشفة مثلي أحسن منهم يمضغوها، يرضيكِ أن يقولوا ليلة سعيد الجندي كانت عقيقة؟ أنتِ لو يرضيكِ يبقى تبيعيني

بالرخيص يا بنت الناس. ثم يا زينب أنت تستأهلين فرحًا يليق بكِ، عُرسًا لم تره منطقتك ولا منطقتي ولا أي منطقة بين المنطقتين، تعدميني لو كنت أميّس عليكِ. أنتِ عارفة سعيد.

الحل الوحيد هو إيجاد المال، والمال إذا لم يتوفر معها ومعه ومع شريفة التي عرضت المساعدة، فبالتأكيد امرأة وحدانية مثل ريّسة وتمص دم الخلق من ثلاثين سنة شغل تملك ما يمكنها إنقاذ كل شيء به، شريفة أكَّدَت أن ريّسة لن تتخلى عن زينب التي تعتبرها ابنتها رغم أنها امرأة سِمَّاوية، وفي الوقت الذي تهاوت زينب ببكائها وارتعبت من مجرد ذكر ما حدث أمام ريسة، كان بطش سعيد قد بدأ بضرب أكواب الشاي على مائدة شريفة وارتفاع صوته بأنه لا فائدة ثم "سلام عليكم" وضرب الباب فتحًا وغلقًا.

حين دخلت ريسة تلعن رؤوفة وابنتها التي شيَّبَت الكوم كبيرَه وصغيرَه كأنها آخر عيلة تتوه، وتلعن يوم مجيئهما إليه، وبطبيعة الحال شملت لعناتها عم خليل بدون سبب محدد، كانت زينب قد أفاقت من استرجاع ما حدث حتى تهدئة شريفة لها ومحاولات تليين دماغها بأنه لا بأس من المحاولة ولن ينقص لها يد ولا رِجل وأن المثل يقول اسعَ يا عبد وأنا أسعى معك.

– طول عمري أقول أن طينتك طينة حكومة، نزرعها نعم وحاضر تطرح قفا ومحاضر. لو كنا أكلنا في طبق واحد السم الهاري حتى وليس عيشًا وملحًا ولياليٍ حلوة كنتِ سألتِ عن خالتك ريّسة.

قالت ريّسة تخلع قميصها الملس وتستعد للجلوس في ريحِ الباب تلقُف نفسَها، لكن بكاء زينب المفاجئ وانهيارها في حضن ريّسة بشكل جعلها تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ومن عين رؤوفة، تربت على ظهر البنت

المطوي في حِجرِها عليها وعلى سرِّها وعلى آخر ملاذ دون أن تفهمَ شيئًا وتطالبها أن تستهدى بالله.

***

انتهت مباريات المنتخب وزغاريد الأهالي ورسم علم مصر على خدود وجباه العيال واسترزاق عليوة البنا الذي نقل فرشته قرب أرض "الاستاد" كما أسموها مؤخرًا بدلًا من أرض الزلزال، لم تنتهِ مراسم رفع علم مصر عاليًا واستقبال الرئيس للأبطال في المطار والأغاني الوطنية بالقنوات الإذاعية والفضائية وما يلمحه الأهالي في جرائد الضباط والمهندسين الشغَّالين في المشروع من صور المباراة الأخيرة واستقبال الرئيس، رغم ذلك انتهى كل ذلك في أرض الاستاد في الصباح التالي لليلة الاحتفال والسهر للصبح، استيقظ الكل في ظهيرة ذلك اليوم على الأرض مُسوَّرَةً بحواجز الهيئة الهندسية وشرائط "احذر منطقة عمل" الخاصة بالمحافظة، ومُبَوَّبةٌ بلافتة كبيرة مكتوب عليها "مشروع التنمية–المرحلة الثانية".

في الوقت ذاته لا أخبار عن موضوع الاستمارات وشغل المشروع، صبري زهق من كثرة الأسئلة عن الأمر وباتت أذناه تشفطان الكلام وتخفيانه كما يشفط هو بطنه أثناء المرور أمام حريم أو مرورهن أمامه.

– يا جدعان أنا كنت المحافظ؟ أنا واحد من الذين قدموا ورقهم وحالي نفس الحال، سمعت أصلًا أنهم اختاروا العاملين وأرسلوا لهم رسائل على المحمول. طارت زرزورة المصلحة.

– يعني راحت المائة جنيه. أنا سمعت كلام الله أعلم أن المتقدمين كانوا خمسة آلاف، يعني لمُّوا نصف مليون جنيه من الورق والطوابير، وفي الآخر خَيَّطونا في بعضنا.

قالها صبَّاحي يفرك يديه من البرد ويضعها فوق ولعة القوالح وسطهم فردَّ صبري:

– الدنيا كلها شغالة بنفس النظام يا عم، كل بلد على قد سكانها، بلدنا دخلت على مائة مليون وطبيعي أي وظيفة يقدِّم لها عدد كبير، أنتم تعترضون على رزق ربنا؟ اتقوا الله يا جدعان، كله مقسوم.

– اللهم قوِّ إيمان أمك يا أنابيب، بقيت خادم الحرمين الشريفين خلاص؟ عائز تفهمنا أن الموضوع ليس نصباية حكومة؟ قالوا الأولوية لأهل الكوم وبعدين لا أحد من أهل الكوم توظَّف رغم أن كل الطوابير كانت منَّا. أقطع ذراعي أنهم محددين العاملين من قبل الإعلان بمدة.

– خَلِّكُم مكانكم تحشِّشون وتشتمون خلق الله وتجيبوا كل المصائب عليهم وأنتم صاغ سليم، قابلوني لو فلحتم.

– اتفقنا، نقابلك يوم الخميس في مكتبك الساعة عشرة الصبح، تكون خلَّصْتَ اجتماعك مع مجلس الإدارة والعضو "المنتدى".

ارتمى الضحك في أحضان الجميع وأحضان بردهم وولعتهم وأكواب شايهم وما ينتظرهم في غدِهم من شيل هم اللقمة، في حين غادر صبري كالعادة متصنعًا الغضب ويراقبهم من مسافة لا يرونه فيها ويطمئن لانصرافهم لحديثٍ غيره من أحدهم صاحب نكتة، أو آخر صاحب حدوتة خناقة في طلعة النفق، أو ثالث صاحب سر –سبحان الله– اطَّلع عليه وحده بطريقته. قبل أن ينصرف للصول كردي يخبره أن "كله تمام".

***

عبد الجَيِّد بن فرحات لم يكن من الذين يبدون استعدادًا للتصدي لعفرة السكة حين تهيج عليه وعلى قليل مدخراته من راحة بال ورصيد اطمئنان لا يدفعه لتوسيع الخطوة في مشيه أو بيعه أو علاقاته بالناس، لا أحد يعلم أنه يشتري بخاخ الصدر و"حبَّاية المَيَّة" شريطًا بشريط أو أحيانًا حبتين حبتين، هو في تصالح مع العالم لا يدفعه للاستعجال في هذا أيضًا.. في علاجه.

فرَّج القريب والبعيد على مجدي الدكتور، ولمَّ عليه جائعي الشتم من الحَوَش ومنافقي الإنسانية من الأفندية.

– وعزة جلال الله دفعتُ ثمن آخر شريطين، هذا الكراس المُدوَّن فيه اسمي دَيْني لا بد أن يذهب للحكومة ويتصرفون فيه بمعرفتهم لأن صاحبه نصَّاب ويتاجر بمرض الخلق.

قالها في خروج الدكتور محمد عماد صاحب الصيدلية الذي قال:

–هَدِّئ نفسَك يا والدي، المكان مكانك خلِّ عنك.

ثم ملتفتًا لمجدي يقول:

– اشطب اسمه من الدفتر يا مجدي، وأعطِه كل احتياجاته بدون تدقيق في الحساب، الحاج لا يخطئ.

– لا، قِفْ عندكْ، أنتم لا تعطونني من جيب أهاليكم، كل شيء بحُرِّ مالي، حد الله بيني وبين الحرام وبيني وبين الأفلام الهندية التي تعملونها، حقكم وصلكم أربعة وعشرين قيراطًا وزيادة، ولو عندكم كلام غيره تكون بيننا المحاكم وكل نفر يأخذ حقه بالقانون، ما عند الحكومة لا يروح.

– ولا يجيء.

قالها الدكتور محمد عماد ساخرًا ثم استطرد:

– أنت صاحب المكان يا حاج، حقنا وصلنا وزيادة.

ثم مجددًا يلتفتُ لمجدي مقتربًا منه يقول بصوتٍ خفيض:

– رجل مُسِنٌّ وحالته صعبة، أعطِه ما يريد ولا تأخذ منه إلا ما يعطيك. أو أقول لك أحسن، لا تأخذ منه شيئًا، قُلْ له أن له فلوسًا عندنا من الحساب القديم وجدناها بعد المراجعة.

همَّ مجدي أن يردَّ فأوقفَه مديرُه بإشارةٍ من يده، ثم ملتفتًا لعبد الجَيِّد يقول:

– منوَّرنا يا حاج عبد الجَيِّد.

مجدي الدكتور كان أكثر من تعجَّب ولم يكن الوحيد، الكل يعلم أنه ابن الدبلوم وظروف البلد والشغل بالخبرة ويلحقون "الدكتور" باسمه سخريةً لا اعترافًا بكفاءة ولم يكن هذا يزعجه، أزعجه أن يُشكِّك عبد الجَيِّد بالذات في ذمته بعدما كان يقسِّط ثمن علاجه، عبد الجَيِّد الذي كان لا يقبل قرشًا حرامًا ولا ينسى مليمًا حُمِّله كَدَيْن، أصبح يتبوَّل بالسحت ويفسح مكانًا للهواء برئتيه بالمال الحرام، يتناول حباية المَيَّة وجرعات الاستنشاق حرامًا في حرام، ويتبجَّح على غير عادة استكانته وفرش خدِّه مداسًا لأي عابر عائب أراد الشَكَل وعمل نمرة أو دقة نقص، عبد الجَيِّد نسى كل شيء عن نفسه والقيامة شكلها قربت. على كل حال فإن الدكتور محمد عماد لمَّ الموضوع وشرَّب عبد الجَيِّد ساقعًا يهدئ به أعصابه ويثبت له أن المكان مكانه ولم يكن كلامًا فض مجالس.

– هات حبتين ميَّة كمان يا مجدي، وحبَّة مغص لأنك قلبت لي بطني، واعمل حسابك أن هذا بداية الحساب واتقِ الله من هنا ورائح، القبر متر في متر والملكين سيسففونك التراب لو نصبت على خلق الله.

عبد الجَيِّد الذي أصبح ماشيًا على كِيفه وكِيف الشيطان الرجيم ويضع إصبعه في عين رئيس الوزراء لو آذاه، كان حديثَ الكوم وحوقلة عم خليل المعتادة في الفترة الأخيرة مع كل تغير إبليسي يراه قد حطَّ على أهل الكوم ولا يفهم سببه، لكن الأحاديث حول عبد الجَيِّد لم تدم طويلًا كما لم تدم في شأنٍ غيره وقد نسيه الجميع في غمرة ما نسوا، ولم يعد يرجع لذاكرتهم إلا في عراكٍ جديد نسى صاحبه بدوره في ثانيةٍ ما أن عبد الجَيِّد لم يعد سامع شتمه الساكت، أو صاحب الدكان حربائي الذمة الذي يقول الله يسامحك، قد نسي شيئًا من نفسه في مكانٍ ما بتوقيتٍ ما وبلعنةٍ ما، رغم أنه كان الوحيد الذي أصرَّ أنه استعاد شيئًا من نفسه بمكانٍ ما وتوقيتٍ ما وبنعمةٍ ما.

***

وهذا كله لم يكن ببعيدٍ عن مدكور أبو تربة الذي جعل من قلب عليوة مزارًا لغرابيب خوفٍ سُود من لعنة الموتى والالتباس بالعفاريت والانقلاب من إنسان لذيل بهيمة في الصعيد لأن الجلالة أخذته ونسي نفسه، وأصبح يمرر يومين أو ثلاثة دون المرور عليه آخر النهار وإعطائه الإيراد.

– وديني وما أعبد نسيت، إلهي قطار يأخذني بالحضن ويفسَّح موتي في سكتِّه لو كنتُ كاذبًا يا معلم، الشيطان ضربوا به المثل في الشطارة، أنا يعني كنت عميد مشاه لأغلبه؟ أنا لستُ حكومة، مواطن عادي، الطبيعي يغلبني أي مخلوق خلقه ربنا، ثم، ثم أن السن لها حكمها، ودماغي ساحت من الفصال على كل شيء مع أولاد الهرمة والحرام، دماغي لن تأخذ زمنها وزمن غيرها.

لكن كلمات عليوة لم تجد ملقفَ هواءٍ يُبرِّدُها في قلبِ مدكور الجالس على كرسيه الخيزران، يضع قدمًا فوق أخرى وينفس دخانًا من جوزةٍ أعدَّها له عليوة ويقول بعد سحبِ نفس:

– لكنك لم تنسَ مليمًا مما لك حين بعثتُ عيِّلًا يستدعيكَ لتأتي بالمكسب، أخذت حقَّك بالمليم، ولم تنسَ تحصيلَ الشُكُك من عين أصحابه بالتي هي أحسن وبالتي هي فضيحة ميداني ولمِّ ناس وقلة قيمة، الشيطان يبلغك عن المديونين ولا يبلغك عن أصحاب المال وحقوقهم؟ لا شيطان عارف مصلحته وصاحب صاحبه صحيح.

عقاب عليوة بحرمانه من يوميته أسبوعًا كاملًا لأنه أخذ حقه وزيادة في الأيام التي انقطع فيها كان خطوة أولى من مدكور، هدَّدَ بإتباعها بخطوات أقلها إلباسَه وعياله لعنةً تسري في نسلهم وتجعلهم أقذر حالًا من أصحاب السبت الذين لا يعرفهم واستنبط أنهم حزن ثقيل لن يعجبه أن يكون مثلهم، وأنه من الأفضل أن يتصرَّف في الخبز وبقايا الجبن

والفول بما يكفي مؤونة الأسبوع، قضاء أخفُّ من قضاء.

القوة المستمدة من ضعف الآخرين هي ثاني الموجودات خسةً بعد هذا ال"ضعف الآخرين". وهي تحفز لشعور قوة أكبر وأكثر دناءة ضد "آخرين" آخرين رفضوا أن يخضعوا بالقولِ والفعل وضعفٍ مماثل، وهو ما جعل مدكور يستعين على قضاء حوائجه من عبد الجَيّد بكتمان وتدبير ينتهيان ببلوى يُلبسها له، لم ينسَ تصغير عبد الجَيّد له أمام الأهالي ووضع هيبته تحت قعر مداسه وتحت ألسنة من شَهِدَ وآذان من ردَّدَ "يسلم فمك" إعجابًا بعد إضافة ما لم يحدث كإثارةً لن تضر، وتجعل السارد هو الحكَّاء صاحب أكبر سمِّيعة و "قُل والله". ومدكور على ما أصابه من نسيان القديم والجديد مؤخرًا لم ينسَ ما له عند عليوة مالًا، وما له عند عبد الجَيّد اعتبارًا، وما بين هذا وذاك من حكيٍ مات في ذاكرة الناس عبر ليالٍ لم تطل عكس اعتيادها، أعادها لهم فقط ما استيقظوا عليه بعد انتصاف الليل وانتصاف نومهم وانتصاف ما يبغون من أحلامهم أو يحذرون من كوابيسهم فيه، سارينةُ الحكومة وشتم أم عبد الجَيّد ببعضٍ من ألفاظ ليست جديدةً عليهم وضربة القفا الأخيرة قبل رميه بال"بوكس". اكتشفوا في الصباح التالي أن عبد الجَيّد بن فرحات تاجر مخدرات له شنَّة ورنَّة "كما قال عليوة" ووجدوا عنده رصَّات كيف شرعي وممنوع بالشيء الفلاني، مع بعض السلاح الذي يتاجر فيه مع الإرهابيين أولاد الكفرة.

– طالما حذرتكم من أنه مثل أبيه الحرامي يسرق النبي لو جاءه، آخرتها يشتغل مع الإرهابيين والمشركين وخرَّابي البيوت.

قال عم خليل بعد سماع الحكاية وسبَّ أمواته ميتًا ميتًا، ثم حوقلَ واستعاذ من الشيطان الرجيم ومن اللعنة التي حطَّت على الكوم والغلابة لا يدري من أين، بينما نام كوم (أبو جامع) واستيقظ على دكان مغلق

سرعان ما نسوه ونسوا صاحبه الذي اختفى في قطعة مخدراتٍ مدسوسة، وكم كتاب في دكانه، ولم يرَه أحدٌ بعدها قط حتى حصَّلوه في الليلة التي انهار فيها كل شيء.

***

سلطان ظل يعيش الدور حتى بعد تسليم المِخلة وانتهاء خدمته العسكرية ورجوعه لشغل الفاعل، عم خليل قال أنه عاجنه وخابزه، وهو عيل غلبان، يظن أن صحته التي تساعده ستمنع الآخرين أن يركبونه.

– الثور العفي يمشِّيه فلاح قحف بقدَمَي أبي قردان، ويجبره على اللف حول ساقية مغمض عينيه، العقل زينة المخاليق والصحة تروح مع السنين والغم يا مغفل يا ابن المغفل.

وهو وإن شبع من التمرغ في تراب الميري، فلم يجد بُدًا من اللجوء لعلاء باشا يشوف له شغلانة يأكل منها عيشه وعيش زوجته وولديه وأمه، تعلل الباشا غير مرة بأن البلد واقفة، ولكنه سيحاول، ثم أغلق هاتفه ومكتبه في وجهه، قبل أن يَعِدَهُ في الإلحاح الأخير أن يلحقه بمشروع التنمية بعقد ثم تثبيته والتأمين عليه ويكون شغل حكومة وله مستقبل ومعاش، ولكن عليه أن يصبر حتى يشوف اتصالاته. آثر أن يلعن مشورة أمه بتزويجه مبكرًا قبل الجندية وتركيبه الهم لمجرد وقايته من الفتنة والشيطان وسيرة جده، ثم لم يجد مفرًا في الأخير من العودة لصحبة صبيان المعلم رشوان حدُّوتة كعامل خرسانة باليومية، على أنه في غمرة ما نسي من فضل الأستاذ سيد وكرم عم خليل رغم توبيخه ونصائح أمه بشأن النسوان وجده أبو الست وقفشات الصحبة القديمة على مسلح المعلم حدُّوتة وخرساناته وشكائر أسمنته، لم ينسَ قط وعد علاء باشا ولا خوفه منه حين شتمه بأمه الشقيانة لأنه زوَّدها رغم أنه أخذها بهزار ساعتها.

وريِّسة بعدما ضربت صدرها ولطمت صامتةً ودَعَت على زينب "أن

يجيئها ويحط عليها" وأن يفرمها أي لوري "ابن حلال مُصفَّى" لينقذها من الفضيحة، ومن أن تكون سهراية كل ليلة في أفواه جرابيع الكوم، هدَّأتها أم جمال وهدَّأت زينب المنهارة إلى جوارها ب"الصبر طيب" و "يحلها الحلَّال".

– يكون أحسن لو أشوف أستاذ سيد يشوف لنا صرفة، هو شكل المتعلمين بالضبط، ولولا قعوده مع خليل ليل نهار لأصبح من المتعلمين أنفسهم، أكيد عنده حل أخذ بيدينا من هذه الوحلة.

ريسة قالت ثم اقتربت من زينب تحيط كتفيها بذراعيها وتريح رأسها الباكي على صدرها، تستطرد بنغمةٍ متغيرةٍ كأن صوتها دخل مَغسَلةً للإنسانية:

– سيبيها لله، ربنا سيجبر بخاطرك وخاطرنا، وسيخلصك من هذا الملعوب ومن أولاد الأبالسة، لن يفضحك، هو الستار الحليم يا عبيطة.

وزينب التي سردت القصة فقط ولم تتطرق لجزئية المال والفرح ومجيئها للقرض لا للمواساة باللطم، قد أحجمت عن التكملة خوفًا من رد فعلٍ سيكون أسوأ وقد ينالها بعاهة، لكنها فوجئت بريسة تحط الجلابية عليها في عجالة حيث تستغيث بمن يقدر على لمِّ الموضوع وإيجاد حل للبنية اليتيمة الغلبانة، وما إن غادرت هي حتى تبعتها زينب هاربةً في غفلةٍ من أم جمال التي أصبح عليها الصباح دون أن تذكر شيئًا تحزن له وتصبر صبرًا طيبًا وتتعشَّم في حل الحلَّال، ريّسة التي لم تجد الأستاذ سيد وعادت سريعًا اكتفت بلا إله إلا الله و"رزق الساعاتي على مقاس نظره". ثم نُسي عندهما الأمر ولم تعبئا كلتاهما كثيرًا بزينب التي غابت عن الكوم، ولم تعد إلا في الليلة التي قرَّرت فيها أن تحل كل شيء بمعرفتها حتى لو الدنيا تخرب.. وقد خربت.

***

أما شوقي عبد الحافظ الذي أصبح يبصق كلما رأى زينات صدفةً عند طعمية صبَّاحي أو فرشة عليوة أو سيرها لرؤوفة التي تجاوره في حواداية السنترال المعفَّرة جنوبي الكوم، ويتمتم ب"اكفنا شر المخفي وأولاده يا قادر يا كريم" ويعمل نفسه لا يسمع ردها ب"استجب من أولاد الحرام يا رب، مسيرهم يعرفون أن الله حق لمَّا تخسف بهم الأرض".

أصبح خُلقه أضيق من الأول، بعدما تتالى عقابه بالخصم والجزاء لنسيانه الكثير من تخليص الورق، والتسبب بإثارة المشاكل مع الرعاع الذين تجرأوا ونادوا بحقوقهم لأن مصالحهم تعطَّلت، القشة التي قصمت ظهر بعيره أو كادت؛ كانت حين كاد ينسى تخليص ورق أحد البهوات، والتي كان من المفترض لها أن تخلص بالتليفون، وذكَّره بها فقط لطف المولى وعمله الصالح؛ فتأخر يومًا كاملًا، لكن ربنا ستر وعوقب فقط بتوبيخ مديره الذي تورَّط و"شُفْ لك داهية".

كثرة الخصومات باتت تهدد مُدَّخرَه وحلمه بإدخال الخرسانة للكوم في بيت يعمل الأرضي منه مَغلَق خشب أو دكان بلياردو وبنج، أو دكانًا يُركِّز على السجائر وشيبسي العيال وزيت التموين، ملحِقًا به فرشة سُخن للصنايعية والأسطوات الغادين إلى الكوم والرائحين منه كما أشار عليه الأستاذ جودة موظف الأرشيف، بحكم التجربة والخبرة والنصيحة لوجه الله، هذه فقط هي المشاريع التي على حق والبقية "إن الله يحب المحسنين".

لم ينسَ شوقي حلمه القديم بأن يكون صاحب مِلك تأتي منه شهرية وقيمة أمام الناس، ولم ينسَ نصائح عم خليل له بأن يتعلم صنعة ويترك العلام لناسه، ولا حقده على أعمام رفيقه سيد متولي الذي حاول التمرد على العمل بورشة الاسطى بَحر بدافع من شوقي نفسه، فجَرَّه أعمامه على وجهه وعلى تراب الكوم وعلى أعين الخلق وعلى ندمه بسماع كلام

شوقي الذي يده في الماء لا في النار، وجعلوه مثالًا لجزاء العصيان لكل العيال الذين من دوره ويكبرونه ويصغرونه، وكل ما قيل ساعتها من قِبَل الجميع بأنه ابنهم ويربونه بمعرفتهم قد علق بذهن شوقي ولم يبرحه كما برحه أمر تخليص أوراق العامة، وأمر زينات إلا حين يراها، وأمر ما عليه من أقساط الجمعية التي يديرها الأستاذ جودة وقبضها اسمًا ثالثًا فثقلت عليه في السبعة عشر اسمًا التالية نسي ما نسي منها وذُكِّر. نسي كل شيء وتذكَّر هذا فقط، وموعد راتبه بالساعة، وما له من تموين الحكومة الشهري، وحرصه فقط على تخليص كل أوراق بيه قُدِّرَ لها أن تخلص بالتليفون.

زينات لم تلتفت كثيرًا لشوقي إلا بِرَدٍّ نسائي كيَّاد يحرق دمه ويكفيها منه، لم تنسَهُ وأغناها عطاء عم خليل اليسير وسكنها مع رؤوفة بحجة مواساتها لفقدان الصغيرة والقيام على خدمتها ريثما تعود البنت أو تعود أمها لبعض حالها الأول، رؤوفة التي وعت كل شيء وأدركت أن زينات تعمل بيتها "لوكاندة" قررت سرًا أن تطفِّحها لقمتها، وتشغِّلها بنومتها عندها، متصنعةً شيل الحزن على مفقودتها بشكلٍ يمنعها من أي نشاط حيوي، ولو كان حتى شراء "قرصين الطعمية" للإفطار، زينات وزَّعت خدمتها بين عم خليل حفظًا لجميله عليها بحمايتها بعطائه القليل من رمية السكة، ورؤوفة حفظًا لجميلها بإيوائها على فرشة بجوار مدخل الحجرة تحمي رضيعها من سرسوب الهواء والطلِّ من تحت صاج الباب. وهي وإن أدركت مرمى رؤوفة وأنها امرأة سمَّاوية فقد قررت أن تكفي شرها بخيرها وتعيش حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا ويفرجها من عنده، وهي على كل حالٍ لا تتعب من خدمة الخلق وهي بعافيتها وتقدر على لف ساقية، ولكن يتعبها فقط أنها في الخدمة لأجل أن تأكل وتنام بجوار سرسوب برد، لكن رغم كل شيء فهذا أهون مما تركته وراءها من خدمة

بيت زوجها المرحوم بأدواره الكاملة من الأرضي حيث حماتها وسم البدن، حتى الرابع حيث ثالث أخوات زوجها وأصغرهم الأعزب الذي طمع في البدن بأكثر من السمّ قولًا.

كل شيءٍ مرَّ بزينات بكوم (أبو جامع) لم تنسه ولم ينسرب منها، كانت الوحيدة التي لم تنسَ أي شيءٍ، وكانت أول من رأى شبح الطفلين الداخلين للكوم يستند أحدهما على الآخر الصارخ مستنجدًا بالأستاذ سيد أن يغيثه. قبل أن ينشغل الكل بعودة حياة التي لم ترجع للكوم كما خرجت منه، النحولة الزائدة والوجه البادي غائبًا عن الوعي، والفرحة بالعودة لأمان الأم مع أثر الجرح والخياطة المتورمة في جنبها الأيمن واختباء رُحَيِّم عن الكل بعد تسليمها للجمع الذي هرول لها ولأمها مباركًا حين جاءا، كل ذلك جعل رؤوفة يركبها مائة عفريت للخوف والرهبة من الفقد، كانت مؤخرًا قد نسيت الكرينة وذراع زوجها وما فات بعده، قبل أن تعيدها حرارة البنت الزائدة وإعيائها وعدم انتظام بولها وأثر الجرح المتورم في جنبها لكل هذا الذعر مجددًا، لمَّا لجأت للأستاذ سيد بدموعها ولطمها و "البنت تروح مني" أحضرا رُحَيِّم من تحت أرض خوفه واختبائه خلف حطام الحريق، وحين هدَّأه الرجل من تهديد رؤوفة وصراخها ومداسها الذي خلعته لتسقط نافوخه في ركبته كما قالت، بدأ سرده للحكاية.

– وكتاب الله هم كانوا كثير، أكثر مني وأكبر، ولمَّا جرينا منهم لحقوا حياة قبل أن تَنُطَّ معي في الأتوبيس، نزلت من الأتوبيس ومشيت وراءهم لغاية أن طلعوا بيتًا، ثم بعدها بيوم نزلوا بها وذهبوا لمستشفى، غابوا فيها مدة، وخفت أرجع اقول لك يا عم سيد أتوه ولا أذكر المكان، وبالأمس خرجوا من هناك ورجعوا للبيت القديم، ثم نزلوا بحياة وسمعت واحدًا منهم يقول اتركها هنا قبل أن يشوفنا أحد وتبقى بلوى، فأخذتها وجئت إلى هنا بسرعة، والختمة الشريفة هذا ما حدث يا عم سيد.

سمع الأستاذ سيد كلام الطفل فربت على كتفه مهدئًا، ثم طالب رؤوفة بسرعة إحضار البنت التي لم ينفع معها إعداد المرق والبيض المسلوق واللبن الحليب وذبح عنزتها أمام صريخها الفج وعدم عبء أمها بذلك لأنها عَيِّلة لا تفهم مصلحتها ولازم تتقوت بالدهن. أستاذ سيد الذي دفع مصاريف الآشعة التلفيزيونية وكشف الطبيب لم يدرِ كيف يبلغ رؤوفة بالأمر، ليس سهلًا بالمرة أن تبلغ أرملةً أن وحيدتها قد قُطِفَت كليتُها وتنتظر الموت.

***

مرعي وجد آثارًا تحت حطام الحريق وحطام الجثث المزالة، ربنا كرمه من وسع وأصبح عليه الصباح بلا وجود في الكوم، فنسيه الناس كما ينسون كل شيء هذه الأيام، قبل أن يذكرهم به صبري الذي أقسم بالله العظيم ثلاثًا أنه رآه صدفة في مظاهر أُبَّهة وبكوية وبدلة كاملة ونظارة شمس وسيارة تقف أمام كبابجي المنوفي في شارع فيصل، وينزل منها سائق يسبق بفتح الباب وتوسيع السكة له ولحرسه الخاص وهانم لا يعرفها وتظهر من أولاد الذوات قبل أن يكتشف أنها سعاد زوجته بعد التلميع والتنظيف وشغل الفراعنة.

– الآثار يا جدعان، تعمل أكثر من ذلك، التمثال الواحد مقاس كفِّك وثمنه أغلى من صنفك كله، سمعت أيضًا أن الجثث لما تقيد فيها النار تتحلل وتبقى زيتًا تشربه الأرض وتعطيك بقدرة قادر بترولًا، يعني الكوم سيكون مثل السعودية، لكن سنحتاج حفَّارات ومهندسين وبلاء أزرق، خلُّونا في الآثار أسهل ويمكن في الحفر نلاقي البترول معها والدنيا تضحك لنا من مجاميعه.

في الصباح الذي تلا كلمات صبري لبعض رجال الكوم من باب الأُخوَّة وحرصه على مصلحته ولوجه الله ووصيته بالمداراة على الشمع

يقيد، كان العمل في الجانب الغربي سائرًا على قدمٍ وساق، إزالة أنقاض الحريق والتركيز على الطرف الذي يجاور الأرض الفضاء لأنه الجزء الذي بسط كفه وثروته على مرعي وسعاد.

العربة الكارو لمتولي العربجي الذي نذر نفسه وعربته لنقل الأنقاض والبقايا خارج الكوم أملًا في ثروة تغنيه عن العربة وحمارها وأحمالها للأبد، الكواريك والفؤوس التي باعها لطفي الحدَّاد بتخفيض مناسب للجميع وكان أبرز الرابحين، ثم أرض الجانب الغربي التي تخلَّصت من كل بقايا الحريق وأصبحت مستعدةً تمامًا لملئها بأي جديدٍ، تمامًا كحال أرض الزلزال، ثم دوريات الشرطة التي طالبت الكل أن يثبت مكانه وحرَّزت المعدات وثلاث قطع آثارٍ لا يعلم أحدٌ من أين جاءت ويبدو على مظهرها أنها تقليد درجة أولى لقطع حقيقية، وأخيرًا سيارات الداخلية التي قادت جزءًا ضخمًا من أهالي الكوم الحفَّارين وذويهم مِن مَن لم يفعل إلى قضية إتجار في الآثار لن يعودوا بعدها أبدًا.

الخلق الرابع

أخت الاجتماع والزحام وعدوة الشتات والوحدة، وما جعل للشِعر جانبًا صلبًا يتكىء عليه بعد لين حبه، وللنثر منصة يصعدها وحده بعد تيهه في قلوب العشاق.

وقعت حدوتة في حِتِتْنـــــــا
لِحْقتْها أنيميا في جِتِتْنـــــــا
احكيلنا مسيرة الحِدَّايـــــة
طَبْ غمُّوا بطونكم خَمْسايـة
فَنْجِلْنا بطوننا اتفَتِتْـــــــنِا

– غرور لم يكن في محله على ما يبدو.
– لا يوجد ما يدعو للسخرية بشأنه.
– لستُ أسخر، أتعجب فقط أن يُسرَق لص، وليس لصًا عاديًا، نتحدث عن أمهر لصوص التاريخ.
– هؤلاء الناس ماتوا منذ زمن بعيد وهذا الذي يحدث الآن ليس إلا حسابهم.. هذا هو التفسير الوحيد لهذا العبث الحاصل.
– ليست حجة سيئة للفشل، لا أحد منا يملك التصرف بمقادير العالم الآخر وأهله، لن يلومك أحد.
– ساخرٌ مجددًا؟
– لا أعلم، صِدقًا لا أعلم.. أنا عن نفسي مستغربٌ من عدم عبئي بالأمر هذه المرة.. كأنني توقعته.
– ربما لأنك خبرتهم، لم يحسنوا استغلال فرصتك بالشكل الأمثل، تعساء للحد الذي يضيعون فيه فرصة الحياة الوحيدة التي جاءتهم.
– الفرصة تأتي مرة واحدة فقط لمن ينتظرها مرةً واحدةً فقط، عليك فقط أن تريدها أكثر من مرة لتنالها أكثر من مرة، هذا كل ما في الأمر.
– أكسبتك معيشتهم فلسفة خاصةً بواقعهم.
– أي واقع؟
– واقع أن حياةً كهذه لا تكفيها فرصة واحدة للنجاة.
– ربما.

– على كل حال لا أظنهم ذوي قدرة على استيعاب مثل ذلك المنطق.
– هذا شيءٌ يُدرك بالفطرة السوية لا باللوح والكتاب، المؤسف ليس أنهم لا يستغلون الفرص، بل أنهم لا يرونها أصلًا.
– لو رأيتَ ما رأيتُه داخلهم لأدركتَ بعضًا من أسباب هذا.
– حدِّثني.
– داخلهم أرضٌ بلا خريطة للسير بهدى أو إلى هدف، لم أجد ما أسرقه من ذكرياتهم وتواريخهم وحيواتهم السابقة إلا بما سمحوا هم به دون إرادة منهم.. سماحٌ فطري.
– وبِمَ سمحوا؟
– كل شيء لا يُضيِّع عليهم طعامًا أو مالًا لهم، وكل شيء لا يضعهم في مواجهة طرفٍ أقوى.. ولهذا الأولوية عن سابقه. يحبون الحياة ولا تدري لماذا يرضون بهذا ما داموا يحبونها، مفهومهم عنها يخطفك من المنطق ويقطفك من البديهيات، الحياة القائمة على لقمة ويومٍ يمر بالحد الأدنى من تضييع الكرامة من ممثلي الحكومة والموت، يرون الفناء الزاحف إليهم في زلزال وحريق ويتناسونه بمباراة وعلمٍ يُرفَع في تلفاز ولم يُرفَع مرةً داخل أحدهم، بل ويسرقون المزَلزَلين والمحروقين لأجل اللقمة والخوف، لا أعلم إن كانوا قد أدركوا أن دورهم في الموت قادمٌ قادمٌ بعد كل هذه الإشارات أم لا، لكنني متيقن أنهم حتى لو أدركوا فسينتظرون ولن يتمنوا شيئًا أكثر من تأخره يومًا أو يومين لن يتغير فيهما مفهومهم عن الحياة.
– قد وفيتَ الوصفَ وإحباطي.
– اخلق شجاعةً يا إبراهيم، هذا فقط ما ينقص هؤلاء.
– ليتني أستطيع، كنتُ لأبدأ بها وأنهي هذا كله.
– ما يمنع؟

– الشجاعة والإدراك لا يُخلقان ولا يُكتسبان ولا يُمنحان، يُرادان، ولا أحد يقوى على استدعائهما إلا فطرة من يملك أساسًا لهما ورغبته فيهما.. فطرته ورغبته فقط.

– إذن؟

– قوة، سأخلق قوة، هي فقط المتبقية مِن مَن يمكنهم إحداث شيء ما.

– وإن كنتُ أعلم بكارثية النتيجة، لكن لا بأس بالمحاولة.. جرِّب.

– لم يتبقَ على نهاية العام إلا رُبْعُه، لم يعد هناك خيار، من يدري.. لعلهم يقوون على ذلك الخوف الذي قتل ثلاثتكم بهذا الشكل المهين.

– جيد.. لم يعد لوجودي داعٍ إذن.. أستأذن بالانصراف.

– هل لي بطلبٍ أخير؟

– إن استطعتُه فلَك.

– ابقَ معي ريثما أخلق القوة ثم سِر داخلي وأنسِنِي هؤلاء وقصتهم، لا أريدُ أن أكمل العام معهم.. لن أقوى.

– لن أُفلح، أنت رجلٌ صاحب قلبٍ وقلمٍ ومروءة يا إبراهيم، أمثالك لا سلطان لي عليهم، ينسون بالموت أو بمعجزة كالتي تحدث لك وتجددك كل عام، لا ينسى إلا جبانٌ أو كاذب، ولستَ أحدهما.

***

"بنت الحب التي عقَّته في قلوب المفارقين وبرَّته في خطاوي مُتمِّي القصة، زارعة قلوب أيامى الحروب بالصبر بعد الدم، وحاصدة قلوب يتامى الخطوب بالنَيْلِ بعد الغم، وما غذَّى أوتار ربابات الصعالكة بحكايا شعوبٍ قامت في قديم، رصيف غلابة الثورة الذي لا سلطان للحكومات عليه، وشاطئا الإقلاع واللجوء اللذان يحميان زوارق الهاربين من النمط، طاولة الرهان على الخطر بدفع الروتين، وموقد طبخ الشجاعة وإطعامها ذوي الرغبة والنية، وكل ما افتقده العامة وأعطِي للعروش دون حق،

عامل تحفيز المعادلات المستحيلة وجرها للممكن، وما أضاف لحوائط المنع بابًا ومفتاحًا وولوجًا لحصول، أخت الاجتماع والزحام وعدوة الشتات والوحدة، وما جعل للشعر جانبًا صلبًا يتَّكِئ عليه بعد لين حبه، وللنثر منصة يصعدها وحده بعد تيهه في قلوب العشاق، أسألكِ بقلمكِ الذي كتب التاريخَ على هواه، وجعل المسحوقَ مُستحِقًا سحقه لافتقاده حبر التدوين وإياه، وجرَّ الضعيف المظلومَ من دعواه إلى مرثاه، أن تأتي هؤلاء وتؤتيهم منكِ، وألا تزهديهم وتصرفيهم عنكِ، وأن تنبتيهم فيهم، وأن تنبتيهم فيهم، وأن تنبتيهم فيهم"

كانت مليحة، هذا النوع من الملاحة الذي به حلاوة تشدك من وقارك لصعلتك، وعليه طلاوة تسحبك على صدرك من الشك لليقين بوجود خالقٍ عظيم الحب لخلقه لجعله فيهم من على حسنٍ كهذا، امرأة كاملةُ الفتكِ بثباتك وصارخة بوجهك على صمتها أن سبِّح باسم ربك العلي المُنشئ، ذات جسدٍ جُعِلَ كعبةً للجمال يحج حواليه، ووجهٍ غُرِسَ إلى جوار زقُّومٍ فاحتال فاكهةً وأبًّا، خِفتُ أن تنطقَ فأذوبَ سحرًا، أو تَبسَمَ فيُنحَرَ ثباتي نحرًا، فاكتفيتُ بالنظر وإملاء مخيلتي الأديبة منها ولم تُملَأ، وعرفتُ أنني لنظمِ الشعر والنثر راجعٌ على تخيلٍ وذكرى يفيضان عن حاجة السطر ولا يفيضان عن حاجتي.

أفقتُ على إزاحتها لي بطرفِ شمسيتها الملمومة ودخلَت إلى حيث جلست بساقٍ فوق الأخرى تُظِلُّ جبهتهَا قبعة عريضة بلونٍ أحمر كشفتيها وخدَّيها ورداءها وحذائها ذي الكعب الطويل، قبل أن تخرجَ كتابًا –لا أدري من أين– وتبدأ بالقراءة عند سطرٍ وضح من شغفها أنها توقفت عنده قبل المجيء بوقتٍ قصير.. أغلقتُ الباب وجلستُ قبالتها مستمرئًا تأملها قبل أن أفيق على قولها دون أن تحرك عينيها من الكتاب:

– أرجو ألا نطيل هذا الملل.

ابتسمتُ بعدما أفقتُ من سكرتي بها أقول:

– لم أُفاجَأ بمظهرك، اعتدتُ خيبةَ توقعاتي بشأنكم.

– رجلًا مفتول العضل فتَّاك الكفِ والخطوة ويجيد العقاب والانتقام، هذا ما رأيتني فيه؟

– ليس تمامًا.. لستُ روتينيًا لهذا الحد، لكن توقعاتي لم تشمل كل هذه الفتنة في امرأة، وليس سهلًا تخيل أن القوة التي زلزلت ساحات معارك ودواوين مُلكٍ ومسحت في التاريخ وأضافت بقلمٍ لا تعارضها فيه ممحاة ولا تقدر هي امرأة ساحرةٌ تخطف اللب بجمالٍ وكاريزما وكتاب.

– لستُ مسئولة عن تخيلاتك ولا تخيلاتهم.. أنا أنا فقط.

– تخيلاتهم.. من؟ هناك صاحبُ معجزةٍ وخالقٌ للكلماتِ مررتِ به قبلي؟

– ليس هكذا بالضبط، خالقو أشياء أُخَر، حروبٌ وثوراتٍ وثقافاتٍ ومناهج تفكير ومعتقدات أمم، ستالين قال أن حقيقتي الوحيدة لا تخرج إلا من فوهة بندقية، كوفي وجدني اعتمادًا على النفس، إليزابيث تايلور رأتني في لحظةٍ ضحكت فيها وكان من المفترض أن تبكي، فان جوخ وجدني في حب أشياء كثيرة، جيفارا وجدني في الصمود حين يظن الجميع أنك سقطت، دوستيوفيسكي رآني في الشعور العميق بالحزن، أما تشارلي شابلن لم يجد لي أهميةً أصلًا وقال أن أهميتي الوحيدة حين تريد أن تفعل شيئًا مؤذيًا، أما ما دون ذلك فالحب كافٍ لفعلِ كل شيء.. بعضهم اقترب من حقيقتي، لكن لا أحد نالني بالصورة التي تراني عليها الآن، أنت محظوظٌ لأنك أول من رآني عيانًا في التاريخ.

– ليس إلى هذا الحد، محظوظٌ مؤقتًا، ليست إلا شهورٌ قلة وسأولَدُ من جديد في قصة أخرى لا أذكر مما قبلها شيئًا.

– هذا من الحظ أيضًا، أنت رسولٌ ذو حظ.. النسيان توأمي الروحي،

به مني وبي منه.
– خمَّنتُ ذلك من بقائي القصير معه.
– مررتَ به؟
– بل مروا بي وبه.
– من؟
– من جئتِ لنجدتهم من الفناء.
– سيُنجَدون.
– سنرى ما يمكن فعله.
– شكٌ بقدرتي؟
– بل بقدرتهم.
– لا يهم مادام لم يمسني الأمر.
– لا يهمونك؟
– يهمونني بقدر نجاحي في المهمة لا أكثر، الاهتمام بالآخرين ضعفٌ بشكلٍ ما، وضعفٌ أكبر في مثل حالة هؤلاء.
– جيد.. هذا يكفيني ويكفيهم منكِ، لكن لي سؤال.
– أسمعه.
– لماذا امرأة؟ أو.. لماذا امرأة بمثل هذا السحر على وجه التحديد؟
– ابحث في سيرة كل غازٍ أو بطلٍ أو مفكرٍ أو أديبٍ أو أي مِن مخلَّدي التاريخ، ستجدُ امرأة ذكيةً وبها جمال، لا جميلة وبها ذكاء، عشقها.. نالها أو فقدها فأعطتهُ القوة على وجهين.
– هذه قوة الرجال، فأين قوة النساء؟
– في أمثالهن هناك في الجين الذكوري.
ابتسمتُ أقول:
– كيف ستأتينهم؟

رفعت كتابها تقول:
– طريقي المفضل.. عقول القارئين فيها.
– ومن لا يقرأ؟
– فمن قلبه.
– قلبه؟
– أخبرتُكَ أن النسيانَ توأمي.

***

الشتاء يدخل الكوم بوجع المفاصل ونشر العظام، والرشح الذي يساعد في رواج الليمون الساخن، واحتقان الحلق والسعال اللذين يهربان من اللبن الرائب بالثوم على الريق وغرغرة الماء بالملح الإنجليزي. يطل عليهم ببواجير الجاز وولعات الإستدفاء وتجمعات الحكايات والنم وحزن الذكرى والحوقلة على ما فات و "فاكر لمَّا؟" والضحك حد الشخير أو الحزن حد البسمة.

يأتي بالبخار الصاعد من تحت الشبابيك المقفولة على أمهات يحمِّمنَ أطفالهن في حجراتٍ لا يدخلها الهواء البارد جوار باجور، وفي طستٍ به ماء ساخن ومسحةٍ من صابونٍ وليفٍ من جذوع النخل يترك آثاره الحمراء على جلود الصغار وفي صرخاتهم. يهلُّ بجبن الخزين وطين الساحة والمشي حذاء البيوت مع رفع ذيول الملابس والتضحية بالمداس، الراحة من الأبراص والفئران والبق والناموس الذي يحتمي بشقوقهم منهم ومن برد الكوم والهلاك، الجوارب الميري التي يشتريها الجميع من فرشات البضائع عند جامع الفتح وأمام محطة مصر بميدان رمسيس، ويعتقدون فيها أنها الشيء الوحيد القادر على صد التنميل والتورم في أصابع الأقدام وما يسيبان فيهما من أزرق وأحمر.

– الجيش يا جدعان عارف شغله حتى في لبس العساكر، عالم تراعي

ربنا وتحمي العيال حتى من برد الرجلين.

قال بيومي الكسحجي في سهرة الثلاثاء أمام فرشة عليوة البنا، وهم يتحدثون عن التموين الذي ستديره القوات المسلحة بيد من حديد تنفع مع الذين مثل حالتنا وب"النظام حلو" وبحق ربنا وبتخفيض حصة الفرد من الزيت والسكر وضرورة الاحتمال لأجل البلد تعدي الأزمة.. وتعدّيهم.

***

– الفراق أن تقول "ليلة سعيدة" بحزن، و"هل رضيتِ" بلا علامة استفهام، وأن تقول "مع السلامة" لأول مرة وأنت تعنيها تمامًا.

لقد قُطِفَت مني قبل نضجها وصلاحها لصورة فوتوغرافيا بمعرضٍ يُمجِّد الجمال والحلاوة، آذنتني بمثاليتها في كل مراحل زراعتها بي، لم يجففها التشتِّي الذي ملأني وسار فيها بغياب الحب، ولم يحرقها الحرور الذي بصقه غضبي من اللاشيء فيها، لم يسقطها خريف غيابي الدائم في عملٍ وبحث عن كرسي وحماية، الربيع؟ لم ترَه مني، حياتنا كانت فصولًا ثلاثةً بقيت فيها رطبة مستعدةً لقطفي على الدوام، ولم أفعل حتى صحوت يومًا ولم أجدها، لم أجد الشجرة.. لم أجدني.

أتعلم يا أستاذ إبراهيم؟ لم أكن أرى "يا" أداة نداءٍ تليق بها أبدًا كالبقية، وددتُ لو استبدلتها ب"لهفي" أو "أنا الطيبة" أو "بقائي" تسبقُ اسمها، حتى فطنتُ أنها ياء وألف وأنها ملء ما بينهما من كل الحروف وتشكيل علوم البديع والبيان وحسن اللغة.. فلم أنادِ أحدًا غيرها ب"يا" بعدها قط. المؤسف أنني لم أفعل هذا إلا متأخرًا، متأخرًا جدًا، حتى أنها كانت مجرد نداءاتٍ على الورق.

لقد كانت على مقاس عيني، تملؤها بالضبط، لا أكبر منها فأتعثر بحبها، ولا أصغر فأهيم حافيًا على شوكٍ منه، لكنني لم أحبَّها كما ينبغي قط يا أستاذ إبراهيم، لم أقل لها يومًا أنها أحسن حاجة في الدنيا، ولا

أنني أحب الستائر لأنها تحجب شمس الخارج فلا يجتمع على نظري الضعيف شمسان، لم أقل لها مثلًا تعالي نتحدث عنا، أو أشيري عليَّ بنوع سجائر جديد بناءً على جمال لون العلبة في عينيكِ، حتى لو لم أحبه لأنني أريدُ أن أموت باختيارٍ لكِ مادمتُ ميتًا في كل الأحوال، أنا لم أرسمها رغم أنني فاشلٌ بالرسم وباختيار ألوان متناسقة لملابسي حتى، ولم أكتب عنها قصيدةً تعيشُ رغم أنني ساقط عربي، أنا لم أحبها كما ينبغي قط يا أستاذ إبراهيم.

لقد كنتُ سافلًا جدًا في هذا الشأن حتى أنني تركتها تمضي لموتٍ دون هذا كله، أنا حتى لم أقله للصغيرة الضريرة لاحقًا قبل أن تلحقها، تأخر الاعتراف بالحب مثل براءةٍ بعد تقضية حكم، أو معلومةٍ بعد رسوبٍ بالامتحان، أو نحن بعد أن نفقد، أشياء تبدو سخيفةً جدًا ونودُّ لو أنها لم تأتِ وتركتنا نتوه في الروتين.

الزمن تاجرٌ مراوغٌ مثل الحب، يُكبّرنا دفعةً واحدةً، ويجعلنا في جانب وأعمارَنا وأحلامنا وندمنا في جانبٍ آخر، يحدث مثلًا أن ترى في الزحام وجهًا يُخيَّلُ إليك أنك تعرفه، تودُّ لو تناديه وتُذكّره بكل الذكريات القديمة التي أبدًا لم يعشها معك، تُلِحُّ عليه في الذكرى وتجاهدُ تُذَكّره بكل التفصيلات، المشروب الساخن الذي أحرق مقدمة لسانه في ليلة الشواء الأخير فهلك الجميع ضحكًا. تخبره بأسى أن كل هؤلاء الجميع رحلوا تباعًا بعده. الزرعة التي زرعتماها سويًا بحديقة منزل جدته الخلفية ولم تنبت أبدًا لأنه كان غبيًا جدًا ليزرعها بالعكس، تخبره بحنوٍ أنها بالتأكيد نبتت لداخل الأرض وأطعمت الأموات فلا يحزن. الصغير الذي قذفكما بالحجارة يومًا في السوق لأجل لا شيء فجريتما معًا كالمجانين وسط ضحك الجميع، تخبره أن هؤلاء الجميع لم يضحكوا بعد رحيله أبدًا. تُذكّره بكل شيءٍ لم يعشْهُ معك، هذا الوجه الذي تعرفه لن يرفضك يومها،

سيبتسم ويربت على كتفك في هدوءٍ دون حديث وينصرف، حتى يجد وجهًا آخره في الزحام يُخَيَّلُ إليه أنه يعرفه ويذكِّره بكل الذكريات التي أبدًا لم يعشها معه.

أنا لا أستطيع ترتيب الكلمات، أنت تفهمني بالتأكيد. أنا حتى لا أعلم لماذا قصدتُك أنت بالذات لأسكبَ عندكَ هذا كله، ولا لماذا بعد كل هذه السنوات من سري وزهدي كل شيء والهروب لهنا، ربما لأنك آخر من دخل الكوم ولا تعتبرني قذرًا مثلهم، أنا لا أترفَّع عنهم يا أستاذ إبراهيم، أنا إنسان مشروخٌ وأخاف أن يلمسني غشيمٌ فأُكسَر.. السلام عليكم.

لا أدري لماذا قصدني عارف بالذات كما قال، ولا أدري إن كان هذا تأثير زائرتي الأخيرة، ولا أدري إن كان علامَة خيرٍ أنها بدأت بهذه السرعة أم علامة نهاية، ولا أدري.. أتكون القوة في سكبِ كل هذا الضعف تجاه إحداهن وبعضهم عند غريب؟

***

– عليَّ الطلاق لا أقول إلا الصدق، هو من بدأ، أنا لم أضع رأسه في برميل الكسح من السِكَّة، عمرك شُفتني افتريت على أحد يا عم خليل؟ عمركم شُفْتمُوني يا عالم أعمل مشكلة بدون مناسبة؟

قالها عليوة البنا للجمع حوله وحول بيومي الكسحجي، لم يسمع ريسة تقول من شباكها:

– جهنم ستعمل على لحمك مَرَقه من الحلفان الكذب.

فاستطرد هو يرفع نظره وسبابته المنتصبة كأنهما مشدودتان في دعوةٍ واحدةٍ تجري للسماء:

– ربنا يسخطني لو أكذب، هو من بدأ، من أصل واطئ ويفتري عليَّ، لم أشتمه بأمه ولم أسُب له جدود جدوده، أستغفر الله يا عم خليل، الواحد يتشعبط في ستر ربنا، معقولة أحلف كذبًا في هذا العمر؟ لم أضع

رأسه في برميل الكسح من السكة، لكن بيومي من بدأ حين رفض كسح برميلي، بحجة أن حجرتي وجسدي مسكونان بالجن ابن الأبالسة الذي جاء معي من بلدنا من خمسين سنة، قال أن هذا لا بد أن يكون حال البرميل أيضًا، شُفْ الوساخة، لا، وزوِّد في الكلام، قال أنه ليس مستغنيًا عن روحه ولا عن ولده ولا عن برميله الذي يُؤكِّله الشهد ليحمل جنيًا ابن أبالسة فوق رأسه ويذهب به للخرابة ثم يرميه بين أكوام القمامة، ولمَّا اعترضْتُ بالحسنى، أي والله بالحسنى يا عم خليل، قلت كيف سأتخلص من البرميل الذي ملأت نتانته الأجواء، تخيَّل رده، هات أنجس رد يجيء لبالك وقُلْه يا عم خليل، طيب، أنا أتفهم أنك الكبير ولا تريد أن تنطق العيب، أوصاني بيومي أن أشتري ملعقة وأتكفَّل بالأمر ثم ضحك، من أجل هذا فقط وضعت رأسه في الخراء يا عم خليل، والختمة الشريفة هذا ما حصل، عمرك شُفتني حلفت بالكذب لا سمح الله؟ أنا إسرائيلي؟

– افترضنا فطس في إيدك؟ تأخذ إعدامًا في برميل كسح يا بجم يا ابن البجم؟ فيه كبير تروح له، فيه سياسة ونباهة وتفتيح مُخ، كل نفر يأخذ حقه بذراعه ونقلبها سيما أو حلبة مصارعة، ونجيب التليفيزيون يصوَّر ونأكل على قفاكم وعلى جثثكم الشهد. أنتم راضعين على بهائم؟

ثم ملتفتًا إلى بيومي الفائحة رائحته:

– وأنت، عيب يكون ابنك طولك ومازلتَ غاويًا للضرب بالبلغة، كبانيهات الكوم عملتك بني آدم، لا تنسَ أصلك وفضلها عليك وتعمل عمدة على خلق الله، الجن لو عازَك لن يختبئ منك في برميل، أنت لستَ ابن خالة إبليس ومعك حصانة يعني، لو عازك سيركبك كالبغل بدون وسائط، اتقِ الله في لقمة عيشك.

***

فضُّوا النملية من الأطباق والأكواب والروبابيكيا القديمة والملابس، ونَيَّموها بالعرضِ إلى الحائط المقابل للمرتبة التي شالوها ورصُّوا تحتها الكراتين المفرودة والهدوم الثقيلة المنُفَضَّة من البراغيث، لتُعَطِّلَ الرطوبةَ الصاعدة من الأرض تهري العظم المفكوك من نفسه بكثرة الشغل. وجعلَ سلطان يرفع قدميه فوق النملية كما نصحه مجدي الدكتور.

– الشغل في الفاعل أصابنا بالكافية، كل طفح الكوتة والبلاء الأزرق هذا من الفجر للمغرب وما زلنا نُرقِّع هدومنا كي نُطعم العيال، وفوق هذا كله يثبِّتونا ويسرقونا، الواحد خائف يأتي يوم ويكفر.

قالها يعزم عليهم بأكواب الشاي التي لا تنتمي لشكلٍ واحدٍ، وتُحفَظُ للضيوفِ في المطبقة البلاستيكية المُعلَّقة يمينَ دخلة البابِ وعليها قماش جلبابٍ قديم، وبانت في الحائطِ كحفرةٍ بعدما فرغَ من الجسد الضخم للنملية.

– أستغفر الله العظيم، اتقِ الله يا جدع، أقلكم مالًا أقلكم حسابًا.

– وهل الذي نعانيه الآن حساب قليل؟ أنا الدكتور قال لي أنني محتاج عملية غضروف، لمَّا قال التكاليف قلت للولية تدهن لي "أبو فاس" وربك يجعل فيه الشفاء، مجدي الدكتور الله يبارك له، لكن كل يوم جهنم حمراء في ظهري، الله لا يجعله في أحبابكم.

– ربك يحلها من عنده يا سلطان، هو الغفور الرحيم يا عم.

قالها أحدهم قبل أن ينتبه لآخر قام كالملدوغِ إلى شبشبه عند العتبةِ يتناوله ويهرسُ برصًا واقفًا فوق سلطان ويلمُّه على ورقةٍ يرميه للخارج.

– الدنيا خلت من البركة، حتى الأبراص دمَّها نشف.

– الفقر كريم، يفرد جناحه على الكل لما يجيء.

– جبت المفيد والله يا سلطان. الحق الثاني يا محمود، تحت النملية، بسرعة قبل أن يدخل الشق، الله ينوَّر، ارمِه جنبَ أخيه.

– نستأذن ونمر عليك مرة أخرى بإذن الله، قلنا نطمئن عليك ونعمل الواجب، ولو احتجت أي شيء أخواتك موجودين.

– فوق العين والرأس يا أولاد الأصول، آنستم وشرَّفتم، لا تنسوا أن ترسلوا لي إذا جاء أي شغل.

سلطان حين تعارك مع غانم رفيق عبُّودة، وجعل أسفل عينِه أزرق مثل الزفت لأن الأخير نعته ساخرًا بابن الشقيانة، نصبوا له كمينًا وأعدموه العافية، ثم سلبوا منه اليومية التي طفح بها الدم، لم يتبَّين من فعل لكنه لم يستبعد أن يكون غانم وعبُّودة واثنان معهما، ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم الذي يريد أن يدفعه للبلوى وظلم الناس، الدنيا كانت عتمة كُحل، ولم يرَ من ضربَه على وَسَطِه بالشومة، ولا من ناولَه بقبضة يدِه في أنفِه ثلاث مرَّات، ولا من قال له أن أمَّه كانت غازيّة ويعرفها عِز المعرفة، الضربة التي تلقاها على صرصور أذنه أفقدته التوازن والقدرة على تمييز نبرة المتكلم، لم يتبيَّن أيًا مِن مَن ألحق به كل هذا الصُوات الذي طخَّ في عظامه، في نهاية الأمر قال لزوجته أن تُعدَّ له كمادات ماء بارد وكوب شاي أسود حِبر لأن مزاجه متعكر، ريثما يعصر ذكرياته مجددًا للمرة الألف عن الواقعة ليمسك على عبُّودة وغانم أي حق أمام الكبار حين ينتقم ويستدعونه للصلح والسؤال كمعتاد العراكات.

***

عرض الهانم تغيَّر، الأموال خرجت من اللعبة، لا شيء يبقى على حاله عند أهل السوق، والفرصة التي تنزلها من على كتفك لن ترجوكَ مرة أخرى لتصعده، الهانم كانت واضحة وعدَّاها العيب حين لجأت إليها رؤوفة بدموعها واستجدائها واستعدادها لقبول العرض القديم لقاء ما تبقى من ابنتها ومنها فيها، الهانم التي مسكت نفسها ومنعتها من الضعف والبكاء أمام ذبول الصغيرة قالت أن العلاج سيتكلف الشيء الفلاني

واحتمال سفر للخارج لزراعة كلى وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ورؤوفة التي لم تنطق إلا ب"موافقة موافقة" تعجيلًا بالقبول والإنقاذ قد غادرت وعيناها اللتان أصبحتا من بكائها بلون الدم متعلقةً بوحيدتها الملقاة على أريكة الصالون العثمانلي، بعدما قالت لها الهانم "آنستِ وشرَّفتِ يا رؤوفة، سأبلغك لو حصل جديد" ثم الانصراف للفتاة تعتني بها وتوزع المهام على خدمها بتوفير المأكل والمشرب وملبس جديد بعد التحميم وتجهيز فراشٍ يليق، فات الأم التي ذابت في زحام ذلك كله أن تأخذ ابنتها في حضنها مرةً أخيرة، خوفًا من أن تعطِّل هذه الدقائق خطة الهانم للعلاج والسفر ووضع حجرٍ أمام تدفق عمر الصغيرة للموت، اطمأنت نوعًا ما للحركة الدؤوبة حول ابنتها، ووقفت تتابع من بعيدٍ حتى انتباه الهانم لها مجددًا بجملة "آنستِ وشرَّفتِ يا رؤوفة" بلهجةٍ أكثر حدة وإشارة لإحدى الخادمات بفتح الباب لها إيذانًا بالخروج.

– أحس أن الصداع انكب من نافوخي لحياتي يا أستاذ سيد، حياتي أصبحت مصدَّعة وضغطها عالٍ قرب الأربعمائة، البنت حياة أخذت روحي معها وركبت الطائرة لبلاد برا، أنا وكتاب الله لستُ غضبانة عليها لأنها سبب كل البلاوي التي حصلت، عيّلة راحت أو جاءت ولا تعرف مصلحتها وفرحت بالهيصة، كل الحكاية أنها أوحشتني يا أستاذ سيد ومنى عيني أطبخ لها العدس لأنها كانت تحبه وتلف حولي وحول باجور الجاز مثل النحلة لغاية أن يعلو بخاره والشتاء داخل علينا، البوَّاب آخر مرة أزورها قال أن الهانم باعت المكان، في الأول كان يقول غير موجودة، خرجوا، راحوا مشوارًا، وهكذا من يوم رجعوا من السفر، كنت أمشي طوَّالي وأنا عارفة أنها موجودة، ما دمت أعرف مكانها أبقى مطمئنة، لكن آخر مرة قال أنهم سافروا ولا يعرف المكان، الشيطان ابن كلب يا أستاذ سيد، خائفة تكون البنت تعبت زيادة، أو الدكاترة الأجانب

يكونوا سرقوا كليتها الثانية، أصلهم كفرة وأولاد كلب ويكرهون المسلمين والموحدين بالله، لكن على من؟ الهانم أكيد سافرت تأخذ حق البنت منهم وتشوف صِرفة، أصلها واصلة لفوق يا أستاذ سيد، اسألني أنا.

كله خير، كل أمر ربنا خير، يعني أنا كنت سأفرح لمَّا تموت جنبي؟.. يمكن حتى الهانم تعلِّم البنت الطب وتشوف لها واسطة تشغَّلها في مستشفى المبرة وتعالجني لمَّا أروح لها بعد كم سنة بموضوع الضغط والصداع والبلاء الأزرق الماشي في عروقنا، أنا أصلي ضعفت بعد بُعد البنت عنِّي وصحتي في النازل.. فِكرَك تأخذ مني حق الكشف يا أستاذ سيد؟

لم يُجِب الأستاذ سيد بأكثر من ابتسامة وقول "وتشيلك فوق رأسها أيضًا يا أم حياة" مُدَّخِرًا دموعه ليسكبها على عتبة المطرح البارد بدخول أوائل نوفمبر وغياب بخار العدس، قبل أن يدفنها في سُكات مع الدافنين بعدها بأيام حين طلعت رائحتها واكتشفت ريِّسة أنها ماتت قائلة "الله يرحمها" ومتناسيةً كل ما كان من خلافٍ بينهما بشكلٍ مؤقت احترامًا للميت الذي لا تجوز عليه إلا الرحمة.

***

– أُغِشُّك؟ إن كنتَ ترضاها فأنا لا أرضاها يا عم خليل، أنت تعرفني، تعرف شعراوي عزَّ المعرفة، لا أحبُ الرطرطَة في الكلام، لساني تَرَبَّى عند ست بَيْتٍ عندها طبلية عمرانة، شَبَّعَتْنا، فاعتدَلَ لسانُنا ولم يَغْلِبْهُ العَوَز، الله يرحمها، هذا وربك المعبود ما حصل، ولا أُزَوِّق في الكلام.

الحكاية كلُّها كانت على يدك، كُنتُ أريدُ أن أعرف إن كان نقبي في الحب سَيَطْلَع على شونة قَش أم على غَلَّة مُعتَبَرة، فجِئتُ من الباب كأولادِ الأصول.

عفاف كانت تستأهل كلَ خيرٍ يا عم خليل، امرأة معقودة في السُكَّر،

وقلبُها فيه قَعْدَة وَنَسْ حلوة ملآنة نسمات طراوة، واحدة لو قلتَ لها أنا مُشكِلة تلاقيها قَلَبَتْ نفسَها حلًّا بقدرةِ قادر ، كأنها جِنيَّة. نهايتُه، قالت أنها تريدُ أن تخرجَ للكُشْكِ وأنَسِ الشارع، استسمَحَتْني أن تجري من الحَبْسَة، وتشوفَ نور ربنا من مكان أوسع من شُبَّاكِ الغرفة المزنوقة في آخر نزلة الصعايدة، والمزنوقة في عيننا البصيرة ويدنا القصيرة.

والله يا عم خليل رفضتُ لأنني أعرفُ وساخةَ الخلق، عفاف لا تعرفها رغم طول عملها في الموالد، تظنُّ العيبةَ لا تطلع من أفندي في رأسه كومة علام، أو من ولد أكلت مع أمه في طبقٍ واحد، أو من بنتٍ هي من بنفسها من عَلَّمَتْها لبسَ الطرحةِ وطريقة الدخول على الضيوف، غلبانة يا عم خليل، والله. يا عم خليل لا تَرْبِت عليّ، أنا لا أبكي، هذا ليس وقته، في الليل يحلها ربنا وأشوف هذا الموضوع مع عيني وذكرياتي ورائحة عفاف في الغرفة، ونصطفل جميعنا.

أنا لن ألومَها لأنها لم تسمع كلامي، وزادَت الطين بلًّا وزَوَّدَت في الكلام مع حضرة الضابط، لن ألومَ جُثَّةً وأفَرّجَ الناس علينا. كَلِّم لنا أحدًا يُخَرّجها لنا من المشرحة، ويُخَلّينا ندفنها سُخنة يا عم خليل، الأرض لا تحب البارد، إن كان فوقها أو فيها، وعفاف تستأهل أن تحبها الأرض، على الأقل في مرةٍ من المَرَّتَيْن، تستأهل كل خير والله.

أهو.. دخَلَ طوبة، ديسمبر كما يسمونه العالم المُتَفَرْنِجة والمتعلِّمون. عفاف كانت تجيبُه من ذيلِه وتطويه في كُمِّها يا عم خليل، وتقول لي "خَلِّ عظامك تأخذ راحتها من شقاء النهار". لا يفرق معها ماذا يُسَمُّونه ولا من أين يجيء، كانت تُخَبّئ أي بردٍ يمكنه أن يفرُكَ فيكَ شيئًا يربتُ عليك، بردَ قلبِك فيتَبَطَّلَ أن يخاف، بردَ عظامك فتَتَبَطَّلَ أن تُثقل حمولةَ ملابسها فوق حمولة شغل اليوم، بردَ عينيكَ فلا تنظر لشيءٍ غيرها وغير يديها المدهونة ببقايا العدس المعمول فوق الوابور وفوق حلاوتها.

عفاف كانت جاسوسًا أرسله الربيع لإفساد الشتاء والسيطرة على شهور السنة يا عم خليل، الربيع عرفَ أن يختار الشَغَّالين معه، اختار من تُسيطر له على العامِ وتُقعِدْهُ في حِجْرِها وحِجْرِ اعتداله الحلو. عفاف لم تكن تحتاجُ توصيةً لتزُقَّ الصيفَ في سهرايةٍ مُزَهَّرَةٍ منها فتُبَرّدَه وتُطَرّيهِ وتنقعُ صهدَهُ في طراوةِ طلَّتِها، وتَطْلَعُ على الخريفِ بضحكتِها، يراها فيقول لخماسينه "بُصِّي، عفاف جاءت، تعالي نشوفُ منطقةً أخرى لا تروحُ لها". والشتاء كما هو معروف، في كُمّها.

منذُ أن راحت عفاف والسنة كلها تكاثرت عليَّ يا عم خليل، تريدُ أن تأخذَ حقَّها، وتُخَلِّصَ القديمَ والجديد، المناخ لم يعد له كبيرٌ بعدما راحت عفاف. تصدق بالله؟ والله أصبحتُ ألبسُ خفيفًا بالشتاء وثقيلًا بالصيف، أبَدِّلهم فقط لمَّا أشعرُ أن ملابسي ليست مضبوطة مع الناس الماشية جواري في الشارع، معذور، ليس لي خبرة بالموضوع، إحساسي أنا؟ مات يا عم خليل، تعيش أنت. يا عم خليل ليس ناقصًا إلا أن يبثُّوا النشرة الجوية من قلبي، والله يتركوني أُقدِّمها، هي جملةٌ واحدة فيها المختصر المفيد "عفاف ماتت، توقَعوا الباقي" .. هكذا، وخلصنا.

صحيح يا عم خليل، اعذرني لأنني لن أجيبَ لك حُمُّصًا بعد الآن، سأقدِّم طلبًا لل.. لمن؟ للجهة المسئولة عن الحمص، سأسأل عنها، لا بد أن هناك جهةً كذلك، يجب أن يوقفوا الحمص بعد عفاف يا عم خليل، يا رب حضرة الضابط لا يعرف بالموضوع ويُكَلِّم زملائه يُعطِّلون لي الموضوع، لا أتخيل أن يأكل الناس حمصًا وعفاف ليست في الدنيا. يا عم خليل لا تبكِ، أنا لستُ مخبولًا وجلال الله، أنا فقط بردان، أقصد حرَّان، الصراحة لا أعرف، مازلتُ أتوهُ وأتعلمُ الفرق، الخلاصة أن جسمي فيه مشكلةٌ مع الجو، أنت تفهمني بالتأكيد، كلُّك نظر.

***

زينب لم تعثر على سعيد الجندي لا في شرق ولا في غرب، اهترأ كعباها من البحث عنه من صبح ربنا، وسائقو الترامكو قالوا أنهم لم يروه منذ جمعة لكنهم سيخبرونه حين يأتي أن هناك "حاجة حلوة" سألت عنه، بعد عرضهم تقديم الخدمات نيابةً عنه، لجأت لشريفة فاستقبلتها بانشغالها بهاتفها وردود من تحت الضرس أنه ترك عندها خبرًا لتبلغها على لسانه أن السكة مقفولة قفلة كمائن الحكومة، وكمائن الحكومة لا يفتحها إلا الجنيه أو الكارنيه، وهو لا يملك أيًا منهما، وعليها أن تتصرف لتجد واحدًا منهما يمررها من كمين البلوى التي وقعت فيها، قبل أن تنحّي شريفة هاتفها جانبًا وتقترب منها بحديثٍ أقرب للهمس، ظاهره النصح الأخير أنه لا حل لها إلا جلب المال بأي طريقة وإلا سينكشف الأمر وتكون مصيبة.

– المخفي وقع بالكلام أنه يملك صورًا لليلة المشؤومة، وستكون مصيبة سوداء لو لم نحصل على الفلوس ونمشِّي الأمور بالتي هي أحسن، أنا وربنا المعبود والقرآن الذي نزل على محمد حاولت معه بكل الطرق يا زينب، لكن هو عيِّل تربية شوارع ولا ينفع معه شغل العقل والتفاهم وكلام أولاد الأصول. لازم نشوف صرفة يا حبيبة أختك، لو عندي فلوس والله لا أعزَّها عليكِ، خصيمي النبي لو لم أفعل.

– أنا ضعتُ يا شريفة، حاسَّة أني مربوطة يدين في رجلين ومرمية قُدَّام لوري.

قالتها وبدأت عيناها تستدعيان شريفة لربتٍ تحتاجه.

– بعد الشر عنك.

قامت إليها تمسح دموعها المُسْوَدَّةَ بالكحلِ الرخيص، تلحقه قبل أن يشبطَ في ياقة البلوزة المشجرَّة، وتزيحُ الحقيبة الجلدية السوداء التي شخَّر جدلها بخطوطٍ بيضاء من الأجناب، ومشبوكةُ فتحتها بدبُّوسٍ يتولَّى عمل

السحَّاب، ثم ضمَّتها إليها تقول:

– ستُفرَج وكتاب الله، ربنا ناصر الغلابة على أولاد الكلب.

وزينب التي أخذت كلام شريفة وجبة جاهزة للتلقي والهضم دون تذوق أو اختبار أو شعورٍ بموضع السم فيها، قد أخذت الكلام شيلةً واحدة وكبَّتَه في قلبها هلعًا و "يا حزني" ورغبةً في الموت العاجل قبل الفضيحة والدفن بألسنة الكوم وليالي سمره، خافت أن تفاتح ريِّسة في أمر طلب مدخرات عمرها لحل الأزمة ووجدت قدماها تسحبانها على وجهها واحتياجها وما سمعت إلى الكوم الذي هجرته منذ مدة، بعدما استأذنت بالمبيت في المعمل بحجة ساقتها للدكتور عصمت أنها تركت سكن الكوم وتبحث عن سكن جديد.

عادت في ليلة العزاء الثالثة التي أقامتها زينات لرؤوفة في تصرف ظاهره للجميع أنها بنت تربية وصاحبة واجب، وباطنه أنها بنت الفرصة وصاحبة المكان، ورغم أن ريسة قد خمَّرت عجينتها وخبزتها وتفهم ملعوبها كله إلا أنها فضَّلت تأجيل التصرف معها لما بعد أيام العزاء ونسيان الأهالي لرؤوفة وقصتها بالكامل، والانفراد بالمطرح الذي تراه حقها بصفتها الجارة الأقدم للمرحومة وأقرب الجميع لها سكنًا ولن تترك حقها للغريبة بنت اليومين، شكَّتها بكلمات مقتضبة من عينة "نردَّها لكِ في الأفراح يا زينات" و "المرحومة كانت تعزك مثل أختها رغم أنك غريبة عنها وعن الكوم كله". ثم الوقوف قبلها في الصف لاستقبال المعزيَّات واللف عليهن لتلقي التعازي مع البكاء والمنديل المحلاوي والقميص الملز الأسود المبقع بتعريجات من نفس اللون، عادت حجرتها في الأخير بعد انتهاء العزاء تتمشَّى مع أم جمال حتى بيتها ثم قطعت الطريق في بطءٍ تتعمَّده لتلاقي بشائر الشتاء الذي تحبه من هواءٍ يزحزح تربيعة رأسها أو يدغدغ مقدمة أنفها وخدَّيها وباطني كفيها فتفركهما ببعضهما، ثم إمدادًا

بزفرات فيهما مضمومين، وتشتمُ عيالًا يُغرِّقون قطًا مولودًا في بركةِ ماء. أزاحت الباب لتتلقى ظلامًا كئيبًا قابلها بكآبته فقابلته ببسم الله الرحمن الرحيم وإصرارًا من ذاكرتها أنها تركت لمبات الجاز مُقادةً لأنها لا تغلقها حتى في نومها رعبًا من أرواح الموتى المرفرفة فوق الكوم كله، قبل أن يلسع قلبها وقوعٌ فكسرٌ لكوبٍ زجاجي على ما يبدو عاجلته بـ"من؟" مرتعدة في اللحظة التي تدفَّأ سكينٌ بدم رقبتها قبل أن تفطن لوجود غريبٍ وتهم بالصراخ.

***

الحكومة كبسَت على شارع القصر، هذه المرة كانت أكثر المرات غشامةً، وأكثر المرات التي زعلت فيها جماعة عيسى ابن شربات وشلَّة عبودة الذي لم يكن متواجدًا ليعمل اللازم، سارينات الداخلية التي سدَّت مدخلي الشارع، والميري الذي انتشر كالجراد يخطفُ بالصفع والركل والتثبيت وسب الأم والسلالة للبلطجية المختفين والظاهرين الذين لم تسعفهم أدمغتهم الغائبة بالتصرف، الدوشة التي كوَّرتها صيحات العيال ودحرجتها أمامها وأمام جريهم من هناك لباقي الكوم، وآذان النسوان اللائي كوَّرنها بدورهن وألقينها تحذيراتٍ لرجالهن بإخفاء كل ما يمكن أن يضيف صاحبه لصندوق الترحيلات، أو حتى لا يضيف ويتوجب إخفاؤه لأن الحرص واجب، "أخذوا مَن؟" و "غاروا في داهية؟" و "اعمِ عيونهم عنا يا رب" كانت أبرز ما استوقف العيال من النسوة الواقفات فوق المصاطب يمددن رؤوسهن، ويحدفنَ عيونهن نحو الهوجة القادمة من حيث العفر والزعيق والفرجة، يراقبن من بعيد ويرفعن أعينهن للواقفين فوق الأسطح لمراقبةٍ أبعد وتبليغٍ بالمستجد، لمَّا تم الأمر لجراد الحكومة، وسيقَ بلطجية شارع القصر وبلطجية كوم (أبو جامع) عمومًا إلى الزنازين والقضايا وقلة

القيمة والشبابيك الحديد التي لن يروا ما وراءها بعد هذا اليوم أبدًا، سُكِبَت الزغاريدُ ورقصُ العيال وتكسير مقهى القصر الملكي من أكبر عمود لأصغر كوب قبل تشميعها بعدها بأيامٍ للأبد، "ما يجيبها إلا رجالها" و "الله يحفظ البيه أنقذنا من السرقة والافتراء، أكيد هو وراء الموضوع" و "البلد فيها كبير" وكل ما تداولته ألسنة الناس المُتمَشِّين براحةٍ أخيرًا في شارع القصر دون أن يضعوا يدًا على جيبٍ للحفظ أو رقبةٍ للرعب، أو حتى من الجالسين الماضغين الحكاية وما وراءها من مبالغات شخصيةٍ عن مساهمةٍ لم تحدث على الأغلب في مساعدة الداخلية بإرشادٍ لمواضع الاختباء أو مصاحبة نحوها، بل ومنهم من حكى عن أساطيره في المشاركة بضرب بعض الممسوكين واسترداد حقوقٍ قديمة مصحوبةً بقولة "والله قلتُ له يومها سيجيء يوم وأردّ القفا بعشرة".

أستاذ سيد نكش عم خليل وفرحته بجلاء الغمة وانتصار قناعاته بحرب الحكومة على صور الإرهاب.

– الحكومة لا تعمل شيئًا لله، أكيد هناك بلوى في الطريق، أصل البلطجة تحصل أمام عيونهم من سنين.. تابوا وعملوا عمرة يعني؟

لم يُقَابَل من العجوز إلا بالتفاتة غاضبة وبصقةٍ إلى جواره ثم قال:

– خلِّ شلة المثقفين والعملاء وأولاد الكلب الملمومين فوق مخك وحواليه يلمُّون البلطجية ثاني نوبة.. عالم ناكرة جميل تستأهل الحرق.

قبل أن يفيق الجميع من سكرة فرحه في مساء اليوم ذاته على سيارات الداخلية تلم السواد الأعظم من سكان شارع القصر وامتداده رجالًا ونساءً، وانتشر في الكوم لاحقًا عن طريق صبري أنابيب أن جماعة عيسى ورجال عبودة قد اعترفوا أن كل هؤلاء كانوا شركاءهم في عمليات النهب وتوزيع البضاعة والتنقيب عن الآثار، ورغم وجود قعيد وضرير ومعاق

ذهنيًا في كشوف المضبوطين، إلا أن أي منهم لم يرجع وصاحب البقية في رحلة المحاكم والقضايا وتآكلاتهم في الزنازين التي لن يعود منها أحد منهم أبدًا.

***

حظ عبودة مثل ذمته، واسع ويؤكِّله الشهد مالًا وخلعًا من البلاوي، لم يكن موجودًا وقت كبس الحكومة وانشغاله ومرعي بالصيد الأخير متمم اتفاقه مع سنية السباعي، الغيبة شفطت هيبته من قلوب الناس وبخَّتها على وجهه ترقبًا وحرصًا من إخبارية تصطاده أو لسان يقلُّ منه ولا يستطيع الرد خوفًا من الفضيحة وكشف تسلله لبيت العروس وتقديم المهر، كان آملًا أن تحميه سنية بعلاقاتها وفلوسها وخدمته لها، لن يكون صعبًا عليها أن تكلم واصلًا من الواصلين وتخلص الموضوع بتقفيل المحاضر، كله بثمنه وهي لن تبخل بالثمن لأجل رجل ملء هدومه وتحبه، سنية تنتمي للعالم الذين فلوسهم جاهزة ومربوطة بدوبارة من المحسوبية وأرقام الكبار وسهولة المرور من الكمائن دون تاريخ الرخصة أو مطابقة البطاقة بحاملها، راقت له فكرة الأكل والمرعى وقلة الصنعة، وتغيير هاتفه بآخر به من أرقام البهوات ما يمكنه بها أن يُشيِّل الجميع جمائل، وأن يدخل قسم مصر القديمة ويجلس رأسًا برأس مع النقيب عماد بدلًا من الوقفة القديمة وتغطية القفا أو انتظار لسعه، فضلًا عن قربه من ألوان النساء بحكم كار زوجته وإن كان قد أقسم على إطعام نفسه منهن بطريقة ليس فيها زعل ولا نقمة تعضُّ أنوثةً بها.

انتُشِل من أحلام يقظته بابتسامتها و"أهلًا بالغالي" ودخوله دون ردٍ إلا من ابتسامة، طمأنها أن كل شيء تمام وأن الحُرمة الأخيرة انضمت لرفيقاتها في المخزن المتفق عليه وسلمها بنفسه لحراستها الواقفة هناك، قبل أن يقابل امتنانها الواضح على بسمةٍ ونظرةٍ ذات معنى لا يخفى عليه

بفركِ يديه وجرأةً على قوله:

– أظن عدَّاني العيب ووفيت بالشروط وزيادة، الأصول تقول أنه آن الأوان نعلّي الجواب.

– رأيك أن مهر سنية السباعي حزمة نسوان؟

– هذا كان طلبك، وأنا نفذت من غير تردد ولا مناقشة ولا ثلث الثلاثة كَم؟

– كان هذا هو النصف الأول من المهر، أنت تعرف أن سنية السباعي وغلاوتها أكبر من اللحم بكثير.

قالتها واقتربت منه، فرضخ مع النظر والطمع يقول:

– والنصف الثاني؟

– دم عماد مارادونا، وبعدها بساعة نكتب الكتاب.

أُلجِمَ لسانُه، هو فعل كل البلاوي والشقاوة التي يمكن أن تُفعَل، لكنه لم يقطع خبر أحدٍ ولو في أشرس عراكاته مع جماعة عيسى ابن شربات حتى، لكنه في تلك الليلة حين رأى لمعة الذهب بذراعها ولمعة الفتنة بعينيها ولمعة أسنان الشيطان على السنتيمترات التي كشفتها من جسدها قصدًا، وعدها أن يُقدِّم الله ما فيه الخير وأن طلباتها أوامر، وأن الحب يصنع المعجزات، والقتل مهما بلغت صعوبته لن يرتقي للمعجزة أبدًا.

***

" لقد هجَجْتُ من الكوم، سِبْتُ كل حاجة كانت لي في المبيت مع كتبك وتقليب محطات الراديو عندك يا أستاذ سيد، وفكَكْتُ كل عَوَزٍ كنتُ قد شَبَّطتُه في ذيل الحياة الجارية مني كأنني التهمة، أو لأنها ترى قبحها في الرمد الذي تسلَّق رؤيتي، وفقر الدم الذي لم يحل مشاكله مع جثتي بشكلٍ وديٍ وانتقم. أنا أضعف من أن أتركَ حنان الكوم والفرشة التي أبيع عليها الولَّاعات والحافظات الجلدية والساعات النصف لبة في ميدان

الجيزة، وألملمها آخر النهار مع صبري وسلعتين ناقصتين إحداهما لزبونٍ ناصحٍ فاصَلَ وأخذها بنصف السعر ، والأخرى للأمين حامد مجانًا حتى لا أضطر للملمة كرامتي معها من الميدان أو من فرجة العالم أو من قسم الجيزة أو من محضر الإشغال حسبما اتفق. أنا ضعيف، نعم، بصراحة، أنا ضعيف، وكنتُ قد أحبَبْتُ هذا كله، أو اضطررتُ لحبه حتى لا أكفر أو أضيف لمصاريفي التعبانة بندًا للعلاج. يكفيني من التعليم شهادةً لحقتُ أن أخطفها من الدنيا ومن عمي الذي سرَّحني في الشارع وقضم إرثي بعد موت أبويَّ، وأنا إذ تمرَّغتْ جثتي في شغل العتالة والسباكة والحدادة، وفشلتُ في أن أتعلم صنعة منها وآخذ أوامري من أسطى، فقد ارتضيتُ بالفَرشَة وبيعاتٍ ساقطةٍ من جيوب الناس وقعر الفائض عنهم تكفيه لقمة اليوم، وكتابٍ أستعيره منك يا أستاذ سيد، أقضي به الوقت عليها وعلى الزمن الفائت في صحتي وكرامتي وصمودي.

بالمناسبة، أنا لم أنسَ دَينَك، وسأحوِّش وأسدده من سفريةٍ جاءت لي ولمجموعة بائعين لمَّهم مقاول من ميدان الجيزة لنعملَ صنايعية في مشروع جديد في السعودية، سأطفح بعض الدم في شغل الاثنى عشر ساعةً، والسكن المشترك مع ستة، وبعض الفلوس التي سآكل بها وتأكلني، أنا لستُ ابن أصلٍ واطئ ولا أنسى الجميل، أقول لك يا أستاذ سيد، الفن في هذا البلد محلوبٌ من الضرع الخطأ، الضرع الناشف والبلاستيكي وابن المصانع والمعمول بودرة شكلها حلو وتجيب تمييع النفس، بينما الضرع الذي بخيره ودسمه متروك في زرائب العيشة والطحن والضن بإناء ليُحلَبَ على أرضٍ تشفطه وتنكر. لا تنسني يا صديقي، لأنني لن أفعل."

خالد العسقلاني

***

أسبوعان بعد تفريغ شارع القصر من البلطجية واستتباب الأمن المُستَكمَل بالقبض على بقية أهالي هذا الجزء من الكوم المتعاونين مع السارقين كما أُشيع كانا كافيين ليذوب بقية الأهالي في ورديات الغُلب اليومي الدائر بهم وفيهم، ويحتمون بحفظ ماء وجوههم أمام عائلاتهم بتوفير اللقمة من دلق ماء كرامتهم في شغلانة شيل أو حط أو خدمة أو تقضية مصلحة توصيل أو ما اتفق على جلب ثمن الوجبة وكوب الماء وترقيع الهدمة وترقيع الصحة وترقيع الحال. لم يهتموا كثيرًا للجرارات التي دكَّت شارع القصر من أوله لآخره بعدما فرغ من أهله المُلقَون في قضايا السرقة وألسنة بقية الأهالي بين "لا حول ولا قوة إلا بالله، نحسبه موسى يطلع فرعونًا" و "اسكت يا حزين ليس لنا دعوى بأحد، لن نعرف أحسن من الحكومة" .. في النهاية أصبح الجانب الشمالي من الكوم فارغًا ومُهيَّئًا تمامًا لاستقبال المرحلة الثالثة من مشروع التنمية.

– الجبن بعدما كنا نأكلها بخيرها من فوق الحصيرة باعوها لنا في عِلَب، اللبن بعدما كان من ضرع البهيمة لاستطعامنا صبح في عِلَب، حتى الماء كنا نشربه بأيدينا من مِسقَاة الغيط أو ميضة الجامع صَبَحَت في عِلَب، مسيرنا يحطوننا نحن أنفسنا في عِلَب.. الدور علينا.

– وهل تقول فيها يا عم خليل؟ حَسَنَة أخت زوجتي حلفت بالله العظيم أنها شافَت لحمة في علبة وكيس بلاستيك مشدود وفوقه سعر وليست ملفوفة في ورقة مبقعة بالدم، أصلها شغَّالة في الكيت كات وتركب مواصلات كل يوم، وتتفرج على كل الشوارع التي خلقها ربنا في طريق الميكروباص، كسِّيبة وبنت حلال.. خلِّها في دماغك يا عم خليل لو شُفت لها واحد ابن حلال يعني، ينوِّلك ثواب في اليتيمة.

– ربك يقدِّم الخير يا قرني، قلبت لنا القعدة نسوانجي الله يحرق أيامك.

ضحك الجلوس بينما قال عطيطو:

– الدنيا تتغير يا جدعان، كله بقى يتكلم بالفلوس، زمن الناس الطيبين ولَّى.

قالها وأعقبها بنفسٍ يسحبه من سيجارة.

– أعوذ بالله من غضب الله، علامات الساعة خذوا بالكم، مذكورة يعني وليست كلام فض مجالس.

– الوضع بقي يخوِّف، الحاصل يقول أن فيه شيطان دخل الكوم، حالنا تشقلب في ظرف كم شهر كأننا خرجنا من رحمة ربنا.

قال عم خليل للجمع القاعد حوله أمام حجرته في الجزء الجنوبي، الوحيد الذي تبقى هو وأهله بعد هلاك الجوانب الثلاثة الأخرى بين زلزال وحريقٍ وسَوق إلى السجن.

– الناس بعدت عن ربنا يا عم خليل، علامات الساعة على قولة قرني.. ربنا ينجينا.

قال الشيخ عبد المولى فردَّ الأستاذ سيد:

– قصدك بعدوا عن طريق الحكومة يا مولانا.

– فسَّر كلامك يا أستاذ سيد، ما للحكومة وما للبلاوي التي تحصل؟ الحكومة هي التي ولَّعَت فيهم وهدَّت عليهم البيوت وقالت لهم تاجروا في الممنوع؟

– اسأل مشروع التنمية يقول لك.

– هاتها لبر يا سيد، الناس فيها ما يكفيها، ليس وقت الكتب والأنزحة الفارغة، خلِّنا قاعدين قعدة حلوة، كفاية غم عليك وعلى دماغك.

قال عم خليل فضحك الأستاذ سيد وضحك الجميع مجددًا قبل أن يقول صبري:

– تصدقونني لو قلت أنني أعرف السبب؟

– قل يا حضرة وزير الشباب والرياضة، أصل أمك شغَّالة في رئاسة الوزراء.

– أستاذ إبراهيم، الرجل النظيف الذي جاء أول السنة.

– ما له؟ رجل محترم وفي حاله، ولا أحد يسمع عنه مشكلة من ساعة ما جاء.

– يستغفلكم يا شيخ عبد المولى. الرجل ساحر.

ضج الكل بالضحك فتصنَّع صبري الجدية وقام واقفًا يقول:

– يا جدعان هاتوا مصحفًا أحلف عليه، والله العظيم ثلاثًا شُفتُه أكثر من مرة يفتح الباب قبل الفجر ويتكلم مع الهواء كأن أحدًا يزوره –بسم الله الرحمن الرحيم– ولا نشوفه، ولمَّا وقَفْتُ تحت الشباك سمعته يتكلم مع الزوار المخفيين أنهم سينتشرون في الكوم ويعملون ألاعيب الجن التي شُفناها.

علت الجدية وجوه البعض ناظرين لبعضهم عدا الأستاذ سيد الذي ضحك ساخرًا يشرب رشفة الشاي الأخيرة في الكوب قائمًا يقول:

– أنا قائم أشوف مشاغلي، خلِّكم في الغم واسمعوا للمخبول ذيل كردي براحتكم.. خلِّه ينفعكم.

– الله يسامحك يا أستاذ سيد مقبولة منك.

قالها صبري والتفت للجميع يستطرد بعد انصراف سيد الذي أشاح بيده له دون عبءٍ بردّه:

– أنا عارف من كم شهر، لكن قلت أنتظر وأتأكد الأول، وفعلًا تأكدت لمَّا سمعته من تحت شبَّاكه يتكلم بالعربي الفصيح كأنه يعمل تعويذة ويتكلم مع أحد، ولمَّا بصِّيت من طرف الشباك لم يكن أحد معه.. يا جدعان والله العظيم لا أكذب، لو سكتنا عنه سنموت كلنا.

– أعوذ بالله من غضب الله، أعوذ بالله من غضب الله. حُشْ عنَّا

مخاليقك يا رب.

قالها الشيخ عبد المولى قبل أن تنتقل حمى الإستعاذة والخوف في البقية بمن فيهم عم خليل قبل أن ينتبه الجميع لسلطان القادم يجري قائلًا:

– سمعتم ما حصل؟ الداخلية مسكت عبُّودة، يقولون قتل واحدًا وسيلبس البدلة الحمراء.

***

– هزيمةٌ أخرى.. من المحزن أن أقولَ متوقَّعَة.

قلتُها للقوةِ المرميةِ أمامي غارقةً في عرقها ولهاثها وقد تمزَّق ذيل فستانها وبريقُ سطوتها ولم يبقَ في كتابها ورقةٌ. قالت:

– إنهم رهيبون، لقد كان العالم على وشك الوقوع بكارثة لو تم لهم القضاءُ عليّ. قد نجوتُ بمعجزة.

– ألستم غير مرئيين؟

قلتها أنظرُ بريبةٍ فقالت:

– قصدتُ الإفلات من دواخلهم، دواخلهم ترانا وتكرهنا وتهاجمنا بشراسةِ مَن خُدِّر وسيقَ للقتل. أخرجتُ نفسي من هناك بأعجوبة وبلطفٍ الله ألا تأتي القيامةُ على عالمٍ ضعيف.. حتى أن بعضي ما زال فيهم لم يستطع الهرب.

– أيُ بعض؟

– الإفتراء والنشوة، علقا هناك.

– الخوفُ مجددًا؟

– ولا غيره. لقد احتلَّ كل ذرةٍ فيهم ولم يعد مدخلٌ واحدٌ يؤتَوْن منه.

– الخوف.

قلتُها أزفرُ مستطردًا:

– لقد قتلني خوفُ هؤلاء ببشاعةٍ كما لم يقتل أحدٌ أحدًا.

– هو أقوى مما تخيلت وتخيلنا جميعًا.

– القوةُ نفسها من تقول ذلك؟ أقوى منكِ؟

قلتها ساخرًا فردَّت:

– خوف هؤلاء بالذات، نعم.. لو واجهته وجهًا لوجهٍ مثلنا ستدرك ما أعنيه.

– أوشِكُ أن أفعل.

– لا أنصحكُ بهذا.

– قد ظهرت هزيمتك باكرًا أكثر مما توقعت. لقد أفرغوكِ في غضبهم على بعضهم حد القتل، الوحيدان اللذان أفلتا من هذا كانا عارف وخالد، أحدهما باح بفقده فقُتِلَ به، والآخر هجرَ ما يحبُ فقُتِل به.

– ذلك أن الخوف فيهم مثل الدم والنفس، كلما مزَّقت الحياة جزءًا منهم ازداد خوفهم تلقائيًا وزادوا شراسة، الشيء الوحيد الداعي للأمل أنهم يدركون تمامًا أن لهم حقوقًا في مكانٍ ما. رأيتُ هذا في نقطةٍ مضيئةٍ وحيدةٍ فيهم قربَ القلب.

– بل هذا اليأس كله.

صمتت تنظر إليَّ مستفهمةً فقلت:

– يعرفون أن لهم حقوقًا لا يغفل عنها إلا مُتعامٍ أو مريضٌ مُشوَّهٌ بحب الركوع، ومدركون أن دورهم في الموتِ قادمٌ عاجلًا أو آجلًا وإن تظاهروا بالجهالة.. مع ذلك يحبون الخراف ويعتبرون تربيتها عزوة.

طأطأَت رأسها فقمتُ أتمشَّى بالغرفة قائلًا:

–على كل حالٍ قد فشلت رسالتي ولا أعلم إن كنتُ معاقبًا حيالَ ذلك من جهةٍ ما أو من أحدٍ ما ألقاني في هذه وفي كل قصة. لم يعد الكثيرُ على نهاية العام وأعرفُ كل شيء، إن كنتُ معاقبًا وعالمًا بشيءٍ من قصتي، أو أنني مُلقى في حدوتةٍ أخرى لآخرين يهلكونني وأهلكهم.

– يكفيكَ أنك رسولُ قوةٍ تسعى لإصلاحِ ما فسد من أمر العالم يا إبراهيم، الرسل لا يضجرون ولا يتمنون الهلاك، كل خطوةٍ لهم هي خطوة لإنقاذ العالم وما توسَّخ منه، تمنّيك الخلاص هو تمنٍّ يطال أمثالك في الأرض والأزمنة، وهو تمنٍّ للعالم أن يفنى بوسخِه. أنت لا يهمك رسول من تكون، قد بلَّغتَ رسالتَكَ بما استطعتَ وليس عليكَ إنفاذها في صدورهم.. ليس عليكَ بعد الآن شيء.

– حزني ليس لأنني فشلت، أنا حزينٌ لأجل هؤلاء القوم، إنهم مساكين جدًا ولا يملكون مكانًا يحتمون به من مكانهم، مكانُهم، المنوطُ بإحيائهم، يدفنهم فيهم وفيه. هل رأيتِ مأساةً كتلك عبر التاريخ.

– قد استحقوا بالصمتِ ما لاقاه الصارخون فيهم قبلًا وأبِيدوا تحت صمتهم.. هذا عدلُ الله.

– هذا عدل الله.

***

فضي الكوم على ما تبقى من أهل الجزء الجنوبي، حفَّارات وخوذات وحواجز مشروع التنمية حوَّطت الجوانب الثلاث الأخرى واحتلتها تمامًا، الأحاديث الدائرة في أمسياتهم وما طلع عليه الصبح من فراغهم وفراغ أطباقهم عن أن ما حدث كله كان مصلحةً وجاءت من عند ربنا، الشقق التي ستوزعها الحكومة الآن باتت مُوزَّعةً على عددٍ أقل وسيشمل المَنحُ الجميع، قبل أن يخطفهم الحديث الدائر عن عفاريت الساكن الغريب ويُدوِّر فيهم الرعب، في البداية اقترحت النساء على أزواجهن وبعضهن أن يلجأنَ له لتزويج من تعطَّلَت من البنات، أو تعجيل فرج ربنا في طلعات الشغل، أو تخليص ورق مضروب للمعاش أو التموين، أو تعدية أيام الجيش وطفح الدم على البيادة وساعات الخدمة، أو حتى التغاضي عن هذا كله وإيجاد كنزٍ في مكانٍ ما من مخلفات الزلزال والحريق والهدم.

قبل أن تجري فيهم تحذيراتُ الشيخ عبد المولى من الاستعانة بغير الله وشتائم عم خليل واتهامه إياهم بالكفر لنفس السبب، مع تحريض صبري أنابيب بضرورة التخلص منه وطرده خارج الكوم الذي لا تنقصه النجاسة ووقف الحال. في النهاية أصبح الأستاذ إبراهيم وعفاريته الحديث الأهم في صبح ومساء كوم (أبو جامع)، أصحاب الحجرات المجاورة له غادروها وباتوا يومين في ثلج الجو والبطاطين خوفًا من اللعنة، حتى تراص لهم باقي أفراد الكوم كالبنيان وباتَ كلُ شخصٍ في حجرةِ عائلةٍ من العائلات. أحاديث أستاذ سيد الذي رأى استفحال الأمر بينهم عن عدم منطقية وجنون ما يحدث وخطورة رمي الناس بالباطل والخرافة، لم تُجدِ نفعًا مع استعدادهم لطرد الغريب الوحيد، والاستعداد لذلك بالشوم والعصي الصغيرة وتحويش الحجارة وبعض السلاح الأبيض. حتى أنهم لم يلقوا بالًا كثيرًا للخبر القادم عن زينب المختفية منذ مدةٍ والهربانة من الحكومة بعد قتلها لسائق ميكروباص على خط المريوطية–فيصل.

***

– المصريون قتلى الكلمات منذ زمنٍ يا أستاذ إبراهيم. قالوا لنا "الفقر ليس عيبًا" ولم يقولوا قط أن "الغنى ليس جريمة" وقالوا "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" وحجبوا "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل". لقد قتلَتنا "عاش مولانا الملك" و "سنظل نقاتل نقاتل" و القومية العربية و "سنرمي إسرائيل في البحر" و "املئوا الأرض والفضاء بتراتيل السلام" و "الكفن ليس له جيوب". أنت ربما لم ترَ قتلى كل هذه الكلمات التي ربتت على كتف العالم في عزاءاته وقدمتنا له دمًا سادة يبلع به حزنه ويقرأ الفاتحة في خشوع، لكنك قد رأيتَ قتلى كل هذه العصور مدفونين في أرواح أهل الكوم، أخشى أنك قد ساهمتَ في قتلٍ جديدٍ دون قصد، والأداة.. كلمات.

– لم يعد لديَّ شكٌ في هذا يا أستاذ سيد، هذه الأرض مصنوعةٌ من ألسنة تقولُ لآذانٍ تسمع، الحوار من جهةٍ واحدةٍ هو دستورها التاريخي الذي لم تحِدْ عنه منذ فجر تاريخها، لقد فهمتُ متأخرًا هويةَ هؤلاء الناس، هؤلاء الناس ماتوا منذ زمنٍ بعيدٍ جدًا، وهذا الذي يحدث الآن هو حسابهم بكل تأكيد.. لا تفسير آخر.

– تفسير منطقي.. مشكلةُ المصريين أنهم كانوا يأكلون ويشربون ويتعلمون، ولمَّا سحقهم الاقتصاد وخنقتهم الأزمة أصبح همهم الأكل والشرب فقط، ضحوا بالشيء الوحيد الذي كان بإمكانه أن يجرهم لمكانٍ أجمل. نحن شعبٌ طيبٌ يا أستاذ إبراهيم، أناسٌ يُسرَقون ويُستَعبدون منذ سبعة آلاف سنة، حتى الفراعنة كانوا يخبئون كنوزهم من اللصوص، هههههه.. هَمٌ يضحك. شعبٌ صبر على هذا كله ومازال فيه نبضٌ يصحو به كل صباح، وبلدٌ مثل هذا يُسرَق آلاف سنين ومازالت فيه للفقير لقمة، هذا بالتأكيد يستحقُ أن نحارب لأجله.

– لو أن بهذا المكان شلةٌ معك لربما نجحتُ فيما أتيتُ إليه.

–التبليغ على الرسل والهداية من الله، هذه سنة الخالق في الرسائل، وأنت قد بلَغت. على كل حالٍ فقد أدَّيتُ واجبي وجئت أحذرك حين سمعتُ أنهم يريدون بك شرًا ورأيتُ أن تغادر، لكنك فاجأتني بمن تكون وما عملك هنا.

– ربما أصابني بعضٌ من قوةِ عارف.

– عارف؟ لا أفهم.

– مشكلتُك أنك تريد فهم كل شيءٍ يا أستاذ سيد.. المعرفة مُهلِكةٌ في أحيانٍ كثيرة.

– هذا صحيح.. أيقنتُ هذا بعد كل تلك السنوات التي جاهدتُ فيها لإدخال السياسة للكومِ وأحاديثه، لكنها في النهاية لم تفعل.

– لا أحد يدري إن كان هذا مما أجَّلَ النهاية أم عجَّل بها.
– لا يهم، مادامت النهاية قادمةٌ قادمة.. فلا شيء يهم.
– أصبت.. على كل حالٍ أنا شاكرٌ نُبلَك يا أستاذ سيد، أنت من الذين يُحزَن عليهم أنهم مُلقَون وسط كل هذا السواد.
– بل أنا الذي لا يدري أيشكرك لأنك حاولتَ إنباتنا فينا أم لأنك عجَّلتَ بالنهاية.. في الحالتين شكرًا لك. وأكرر نصحي لكَ بالتعجيل بالمغادرة.
– بل أنتظر نهاية العام، ليست إلا ساعات.. لا أظنهم قادرين على أذيتي على كل حال، رغم كوني لا أذكرُ شيئًا عن حيواتي السابقة، لكنني على يقينٍ أنني محميٌ بطريقةٍ ما.
– لا تثق لهذه الدرجة، قد قتل أقوامٌ أنبياءهم.
– ليكن إذن، على الأقل سأرتاحُ من هذه الحياة غير المفهومة. أرى أن تغادر أنت، نهايتهم قربت وجثث من بقي منهم ستكون أساس بقية هذا المشروع.
– لستُ مِن مَن يقفزون من السفينة يا صديقي، أنا لستُ مسئولًا حكوميًا.. ثم أنه لم يعد هناك فائدةٌ من هذا، لقد اعتدتُ هؤلاء الناس ولا أرى نهايتي إلا بينهم، من يدري؟ ربما يعقلون في الخطوة الأخيرة ويُحدثون ثقبًا ما في جدار العالم النائم فوقهم.
– رغم أنني لا أذكر شيئًا من سابق الحكايات التي عشتُها، لكن لا أظنني قابلتُ كثيرين مثلك فيها يا أستاذ سيد.
– الذين يبولون على خوفِ أقوامهم ولا يقطعون تلك البولات أثناء النشرات وخطابات الحكومة لا ينتهون، نحن ننبتُ من جثث بعضنا بالتتالي والتتابع وحب الصراع وكره البهائم ومن يمتطونهم عنوة.. الحياة مضبوطة السكر.. إيييه.. الله يمسِّيك بالخير يا خالد يا عسقلاني.
– الآن أيقنتُ أنني لم أقابل كثيرين مثلك.

أنهاها إبراهيم مبتسمًا تقابله ابتسامة مخاطبه الذي جاءه محذرًا فأفرغ عنده حقيقته التي ضاق بها، قبل أن ينهي كلَ ذلك انتباههما للزعيق بالخارج يقترب ومقولات "اخرج يا كافر يا بن الكلب" و "الله أكبر عليكم وعلى شياطينكم يا أنجاس" و "قل هو الله أحد" .. همَّ سيد بالخروج فشدَّه إبراهيم من ذراعه قائلًا:

– لا فائدة، لا تحاول، لقد بقي فيهم بعض قوة ولن يثنيهم كلامٌ بالعقل.. اخرج أنت من الشباك وأنا سأتصرف.

– أي تصرف؟ سيذبحونك.

قالها سيد وسحب يده فاتحًا الباب أمام الجموع التي بدأت تلقي الحجارة على الحجرة من الخارج مشيرًا بيده وصارخًا أن توقفوا فوقف البعض، غير أن صبري صرخ:

– إنه شريكه، ليست أول مرةٍ يزوره ويقعد معه، أنا شفتُه مائة مرة يدخل ويخرج في الخفاء.. أستاذ سيد مخاوٍ جنًا مثله يا جماعة.. لا تنسوا أنه أكثر واحد يسبُّ الحكومة والريس وتجيء الحكومة كل مرة تأخذنا في رجليها وهو صاغ سليم؟ لا توقفوا الضرب، عدل ربنا جاء وأرسلكم لتنصروا دينه من الكفرة أولاد الكلب، اضربوهم بدلًا من أن تشويكم نار جهنم.

انهالت الحجارة على الحجرة من الجموع التي خافت الاقتراب من اللعنة، حتى اضطر سيد أن يغلق الباب بعدما أدمته الحجارة قائلًا:

– لا فائدة.. أحاطوا الجهات الأربع وأعدادهم كثيرة جدًا.

– أرى أن..

لم يكملها إبراهيم الذي رأى كرة الولعة الأولى تمسك في الباب تتبعها كراتٌ أخرى، ورائحة بنزين يحيط بالمكان ويُسمَع صوت دلقه على خشب الشباك وتحت الجدران وترتطم جراكنه الملقاة بالسطح.. وفي دقائق كان

المطرح كومة نار استمر اشتعالها ساعتين ويزيد.. أُطفِئَت بعد ذلك من قوات الشرطة التي جاءت متأخرة لتجد ما خلفته النار وراءها من أثاثٍ بسيطٍ ولحم متفحمٍ لجثتين.

ساعاتٌ فقط وفوجئ أهل الكوم بتحوله لساحة نيران، قوات الشرطة التي حاصرت الجزء الجنوبي ثم اقتحمته القوات الخاصة بالنيران والرصاص والقنابل المسيلة للدموع وقتل كل من أخرج رأسه من شباكٍ أو بابٍ أو سطوحٍ أو خوفه، قبل أن يقتحموا المطارح ويفرغوا رصاصهم في كل من احتمى بجدارٍ أو دولابٍ أو صراخٍ أو "والله ما عملت حاجة". دخلت المدرعات تدوس المطارح، وتعجن لحم الجثث في صفيح الأبواب وفحم الشِيَش وطقِّ زجاج الجِوَز والعفش القديم، خليطٌ فجَّت نتانته ثم هبطت بعد التوليع فيه.

الأحراز التي جمعوها من مخدراتٍ رخيصة وما أضافوه إليها من قطع السلاح المرمي إلى جوار الجثث ما تفحَّم منها وما تم دَوْسُه بالبيادات، أو ما أُبقِيَ عليه لتصويرِ الصحف ودليل نجاح العملية. وقبل أن يحلَّ ليل الواحد والثلاثين من ديسمبر لم يكن هناكُ حيٌ واحدٌ في كوم (أبو جامع).

صورة جثة صبري أنابيب وإلى جوارها قطعة رشَّاش آلي بيده تصدَّرت صحف اليوم التالي، تجاورها صورة الصول كردي كأحد الأبطال المشاركين في ملحمة القضاء على الوكر الأكبر للإرهاب في القاهرة.

صورة صبري كانت أكثر الصور نموذجيةً التي تمثل الإرهاب المسلح تم تداولها بسرعة البرق في كل الصحف والوكالات المحلية منها والعالمية تجاورها صورة الصول كردي جنبًا بجنب، في حين تنوعت العناوين بين "عائلاتٌ كاملةٌ تعمل في تصنيع السلاح وتجارته وتمويل الإرهاب المسلح على الحدود" و"الجناة أصحاب سوابق في بيع المخدرات والتنقيب عن الآثار والتجارة بالقاصرات" و"حرق مسكن صحفيٍ ومصورٍ والتمثيل

بجثتيهما لأنهما أول من صوَّر بعض وقائع التهريب كانت القشة التي قصمت ظهر البعير" مع وضع صورةٍ لأستاذ سيد والفشل في العصور على صورةٍ لإبراهيم.. "الأرض المُستعادةُ ستدخل بأمرٍ رئاسيٍ في مشروع التنمية المُسمَّى بمدينة السلام."

***

خمسةُ وعشرون عامًا مرَّت على قيام الرئيس وممثلي عدة دول أخرى بافتتاح مدينة السلام، المشروع العملاق الذي جمَّل وجه القاهرة المليء بالتجاعيد والبثور ،وجعلها مدينة تلفُ فيها كاميرات التلفاز العالمي بعناوين ازدهار الاقتصاد وحنكة الحكومة في هذا الوقت في إنقاذ حياة الدولة التي كانت على المحك، المدينة التي أُعلِنَت مدينةً حرةَ التملك من أي جنسيةٍ دون النظر لأي اعتبارات غير المادة وكفاءة إدارة الوحدات بها، وجعل الإعلام يحتفل ساعتها بلياٍل ملاحٍ بالعملة الصعبة التي ستُضَخُّ في الاقتصاد، وتسكب في جيب كل مواطنٍ ما يكفي ليعيش عيشةَ لا يضطر معها للنظر للمطار أو مراكب الهجرة، ناهيك عن فرص العمل التي ستوفرها مشاريع المدينة والتي حتمًا ستكون عقودًا مكتوبة بلغةٍ أجنبيةٍ وراتبًا بنفس اللغة.

حين ظهر في قنوات التليفزيون المصري وصحفه والفضائيات الشباب الفائز بفرص العمل، طالب البقية بضرورة تعميم مشروع مدينة السلام في غير منطقة في القاهرة والمحافظات، ورغم أن السنين التالية شهدت أكثر من قصةٍ مشابهة لقصة "أبو جامع" لمدنٍ أخرى في الأسكندرية وبورسعيد ومدن الحدود الساحلية خصوصًا ناهيك عن القاهرة، فإن الناس قد نسوا بتتابع الأعوام فرصهم بالحصول على وظيفةٍ هناك خلف الأسوار اللمَّاعة، لم يعد أحدٌ يهتم بما يحدث بالداخل ولا الجنسيات المالكة للأراضي التي

تفشَّت في جسد البلد بأعلامٍ لا تنبئ أبدًا عن حقيقة الهوية.

وبخلاف مدينة السلام فإن معظم البقية من المدن الأخرى لم تكن إلا سورًا أحاط بأرضٍ خلاءٍ تملكها أجانب، رغم الشباب الظاهر في الفضائيات يشكر الحكومة على فرصة وظيفته. وبنهاية الأعوام الخمسة والعشرين كان أكثر من ثلث الدولة مملوكًا لآخرين لا يعلم عن جنسياتهم الحقيقية أحد، قبل أن تؤخذ إجراءات أخرى منها إعفاء مالكي العقارات والأراضي فيها من الجمارك وتفتيشات الطيران والملاحة، منتهيًا كل ذلك بتخصيص صالاتٍ خاصةٍ لهم بمطارات الدولة تبعد عن زحام الطيران العادي وتواجد شرطته وأمنه.

في خطوة قال عنها رئيس الوزراء في مؤتمر صحفي يجاوره فيه الرئيس الهولندي لاتحاد مدن السلام الجديدة أن هذه خطوة تمهيدية لإنشاء مطارات خاصة لهذه المدن تكون خارج سيطرة الدولة المصرية، وأن أراضي هذه المطارات سيشتريها مستثمرو المدن وينشئون مطاراتهم بالتقنيات التي يريدونها، والدولة ستستفيد بكل تأكيد بما تجنيه من مليارات تنفقها على خدمات الشعب.

***

كانت قد تملَّكت مستشفى صغير بمدينة السلام الأولى، اشترته لها أمها حين طُرِحَت الأرض للبيعِ قبل خمسةٍ وعشرين عامًا، كانت المصرية الوحيدة التي تملكت شيئًا هناك بمعارفها واتصالاتها وقد حفظته لابنتها الصغيرة التي أنشأتها نشأةً أجنبيةً تعليمًا ولغةً وسفرًا وصفات، والطبيبة الشابة كانت محافظةً على روتين يوميٍ يبدأ بزيارة قبر أمها الهانم، وورودٍ موضوعةٍ عندها، وتوصية لحارس المقابر ببذرِ حَبٍ للطيور حواليها، ثم العودة للبيتِ لتناول القهوةِ الأولى والاستعداد لكشوف الباطنية التي لم تتخلَّ عنها رغم كونها مالكة المستشفى الصغير، لم يمرُّ صباحها

هذا بالشكل المعتاد، ذلك أنها حين اقتربت من سيارتها وجدت من يجلس عندها مرتديًا جلبابًا مرقعًا وتجره لحيةٌ مشعثة ووجه غطَّاه التراب والتجاعيد وشعر أشيب، أخذ يُنشِدُ مُبعدًا رغيفًا من فمه حين رآها:

يا شايلين الهموم شيَّالة كِيفْ حالكُم
سمعنا بمُوت أمانيكم فحبّينا نعزّيكم ونسألكم
عن اللمة في لمبة جاز
عن الغنوة بصوت ماشي على العُكَّاز
عن العتمة اللي كابتة لحن موَّالكم
وحشتونا بقالنا كتير
بنسأل عاللي عايش لسَّه في الموَّال
ونبكي عاللي مات في الوِلعة والزلزال
هنيَّالُه براحة مسيرها جيَّالكم
مسيرنا نيجي في زيارة لتراب حارة هتفضل عايشة بعيالكم
وننسالكم
غيابكم في السؤال عن حالنا في العِيشة
زعلكم عاللي مات مالبانجو والشيشة
وزغرودة في فرح عبَّاقي عُقبالكم
وكِيفْ حالها بيوت الكُوم
وعين الموت على العتبة وبصَّالكم
بتستنَّى غريق العوم
سمعنا في راديو عالقهوة بزلزالكم
وأن الجانب الشرقي بقى تُربَة
لعواجيزكم ولعيالكم

وكِيفْها حياة
وتوهتها في بلاد الله
لسَّه بتجري ويَّا العنزة والحمامات؟
وتتحنَّى في ليلة حنة بالحنَّات؟
سمعنا إنها من وقت للتاني
بيعلى صوتها بالضحكات
وترجع للبكا تاني على الأموات
دبحتوا العنزة قدامها لكلية تئِنْ
وتتَدَحْرَج لأيام الغِنى وتحِنْ
وهي بالصريخ بتئِن وتعافر
ماهو صح الصديق غالي
واهو صح الحنين كافر
وكِيفْ حاله؟
عليوة البنَّا وعياله
سمعنا بفرشته المحطوطة في السكة
يبيع أكفان
ويغسل بالزعيق ضعفه
من الأحزان
ده لسَّه الدنيا من قهرتها شايلة لكم
وكِيْف عبُّودة في مقاولة؟
وكِيفْها فتاوى عَبْمَوْلى؟
وكِيفْ حالكم مع الدولة؟
وكِيفْها زينات؟
ودمعتها في كل بيات؟

وكِيْف الأقربون أولى؟
وكِيفْ سيّدِ؟
وكِيفْ دُكَّانته عَبْجَيّدِ؟
وكِيفْ اللي اتدَّفَن صاحي؟
وطاسة همّ صبّاحي؟
وصبري وهو متقيّدِ؟
وكشكول الشكك بالقُرْص
وضحكات العيال عالخُرْس
وشاهد قبر بيعَيّدِ؟
وكِيفْ دعوتها سجداتكم؟
بعَدَل البنت وجهازها؟
وطقّةِ جُوزَة بإزازها
وكِيفْ نخل السَجَر والعَفْر؟
وكِيفْ دكّ البيوت مالحَفْر؟
وكِيف وعد الرئيس فاتكم؟
وكِيفْ عيّلِ؟
بأتب العيشة بيميّلِ
وسايب مدرسة لجُوزَة
ولمَّا توجعه العُوزَة
بيسكت ثم يتنيّلِ
وكِيفُها القَرْفَة من ذاتكم؟
هيوحشنا الحنين ليكم
ولبيوتكم في آخر القَطر
وقعدتنا في حكاويكم

وللحزن اللي مالي السطر
هنستأذن ونتمنَّى
يبقالنا ويبقالكم
لُقَا مع بعض في الجنة
ومن تاني هنسألكم
عن العنزة وخطاوي حياة
وتوهتها وعن حمامات
وعن بنَّا قعد بيَّاع
بيفرش عجزه في السِكَّات
وأيامها تجاوبونا
وندعوكم وهتجونا
وهندردش
ونفتح قُفَّةِ الحكايات
وحتى ييجي هذا اليوم
بنتمنى ما تنسونا
في قعداتكم

أنهى إنشاده ناظرًا إليها يقول:

– الحياة مضبوطة السكر مسيرها تبقى سادة، لكن مَن يأخذ باله؟

ثم قام يستند على عكازه مستكملًا تناول رغيفه، بينما عجزت هي عن مناداته حتى، وقد سار التنميل في جسدها كله، دقائقٌ استعادت فيها نفسها وأنقذها مأمون حارس العقار بكوب ماءٍ وشيء به سكر، قامت إلى سيارتها بعد "شكرًا" و "أنا بخير".

عبرت بوابات المدينة التي مازال عليها صورة قتيلٍ قديمٍ إلى جواره

رشاش آلي وصول منتصر ، كدليل تاريخي عمره خمسة وعشرون عامًا على درء الإرهاب وإحلال السلام مكانه، وحين وصلت عيادتها، ونظرت لصورة العنزة المؤطرة ببرواز على حائطها ضمن لوحات، كان هذا آخر ما ذكره أحد عن الحكاية المنسية، وكانت هذه آخر دمعة تنزل من الطبيبة التي أطالت النظر للصورةِ وما علق فيها من ذكريات تسقط بتوالي السنين على حدوتةٍ مدفونةٍ تحت الرخام والبوابات وأفراد الأمن.

سمحت بدخول الكشف القادم، بينما يتردد في خلفية سمعها وعقلها وما تبقى فيها من روح ..

وكِيفها حياة؟!

وتوهتها في بلاد الله.

تمت